القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • سبتمبر - أكتوبر 2007

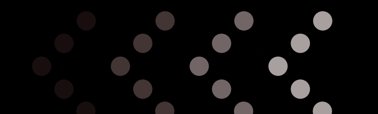
الدكتوراه لقب واحد وموازين مختلفة

ملف العدد
كرتنا الأرضية

- شهر رمضان .. وعاداته
- تعالوا نعيد ترتيب محيطنا الصوتي

العدد 5
المجلد 56

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً الهدف منه إشراك الباحثين الراغبين، خاصة طلاب وطالبات الجامعات، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. والهدف من هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمولية و الإحاطة بكافة زوايا الموضوع المطروح، ليتم تقديمها في النهاية على شكل موادٍ صحفية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تحديد الفترة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستتم مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف

شهادة الدكتوراه التي تتوج الدراسة الجامعية، هي مجرد مفصل بين متحركين: التعليم من جهة وعلاقة الدكتور بمجتمعه وبعلمه من جهة أخرى. وتسعى القافلة في هذا العدد إلى تسليط الضوء على القيمة الفعلية لهذه الشهادة وجدواها.

Corbis

القافلة



الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

سبتمبر - أكتوبر 2007
شعبان - رمضان 1428

توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

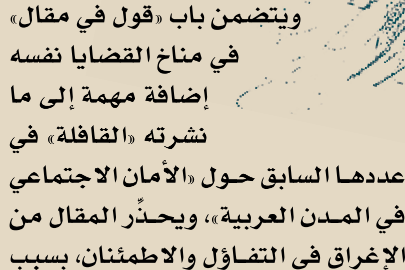
- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

تشكِّل شهادة الدكتوراه قضية صامتة تشغل الطلبة الجامعيين وأرباب العمل والمحيط الاجتماعي لحامل هذه الشهادة والساعي إليها وصولاً إلى السلطات المشرفة على التربية والتعليم في كل بلدان العالم.. فكل جهة تتطلع إلى هذه الشهادة من زاوية خاصة بها.. وباستثناء تهنئة الطالب الجامعي يوم حصوله على الدكتوراه، من النادر أن تشترك هذه الجهات في تقييم جدوى هذه الشهادة، أو أن تتفق على توحيد النظرة إليها وإلى ما يجب تطويره في مناهجها وشروط منحها.

ما تفعله «القافلة» في بداية هذا العدد هو نقل هذه القضية الصامتة إلى العلن، من خلال إسهامات أكاديمية وإعلامية تسلِّط الضوء على هذه الشهادة الجامعية بين واقعها من جهة والمرتجى منها من جهة أخرى.





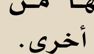
ويتضمن باب «قول في مقال» في مناخ القضايا نفسه إضافة مهمة إلى ما نشرته «القافلة» في عددها السابق حول «الأمان الاجتماعي في المدن العربية»، ويحذِّر المقال من الإغراق في التفاؤل والاطمئنان، بسبب التحولات المثيرة للقلق التي تشهدها بعض المدن العربية.



2 طاقة واقتصاد

ويخصص مناخ الطاقة والاقتصاد صفحاته في هذا العدد لموضوع واحد: التلزيم، المسمى outsourcing، وهو مفهوم اجتاز حدود الشركات والبلدان، لينشئ فكرة تعاون الشركات على اختلافها في إنتاج السلعة الواحدة أو في توفير خدمة متخصصة.

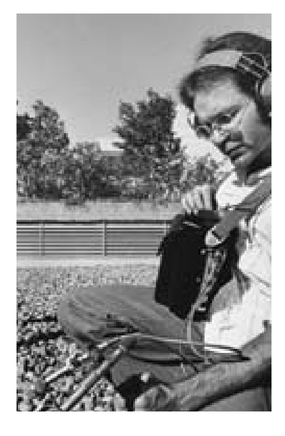






3 علوم وبيئة

أما مناخ العلوم والبيئة فيتضمَّن موضوعين: أولهما المحيط الصوتي، ولا نعني به أبداً التلوث الصوتي، بل تغيّر نوعية الأصوات المرافق لتغير أنماط الحياة في المدن الحديثة.



أما الموضوع الثاني فيتناول تطور الشبكة العنكبوتية في منحى يأخذها بعيداً جداً عن وظيفتها أو التوظيف الذي شهدته خلال السنوات الأولى من ظهورها، بحيث صارت تعرف باسم «الجيل الثاني» نظراً لدورها الجديد القائم على المشاركة والتفاعل بين مستخدمي الإنترنت.



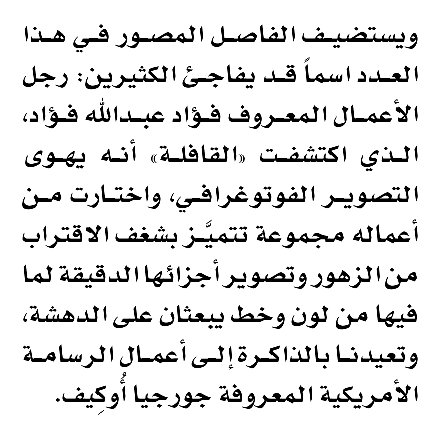
الفاصل المصور




ويستضيف الفاصل المصور في هذا العدد اسماً قد يفاجئ الكثيرين: رجل الأعمال المعروف فؤاد عبدالله فؤاد، الذي اكتشفت «القافلة» أنه يهوى التصوير الفوتوغرافي، واختارت من أعماله مجموعة تتميَّز بشغف الاقتراب من الزهور وتصوير أجزائها الدقيقة لما فيها من لون وخط يبعثان على الدهشة، وتعيدنا بالذاكرة إلى أعمال الرسامة الأمريكية المعروفة جورجيا أوكِيف.

5 الثقافة والأدب

وكالعادة، يتضمن المناخ الثقافي مساهمتين، وفي هذا العدد تبحث المساهمة الأولى في الدور الذي لعبته المقاهي الثقافية في البلاد العربية منذ ظهورها إلى تقهقر مكانتها وتراجعها أمام المقاهي الجديدة شكلاً ووظيفة.



أما المساهمة الثانية فهي عرض للمجموعة القصصية الجديدة التي نشرتها الكاتبة العُمانية جوخة الحارثي بعنوان «صبي على السطح». وتتضمن إضافة إلى العرض، نصين من قصص المجموعة.



4 بمناسبة رمضان

ولمناسبة تزامن صدور هذا العدد مع حلول شهر رمضان المبارك، كان من الطبيعي أن تكون مادة مناخ الحياة اليومية من وحي المناسبة. فتناولت «القافلة» في هذا المجال موضوع العادات والتقاليد الرمضانية وما طرأ عليها من تغير في العصر الحديث، ولا سيما مع نمو المدن عشرات أضعاف ما كانت أيام ظهور هذه العادات والتقاليد.






6 ملف العدد

وفي الختام، ومن دون التحليق في الفضاء الخارجي، تدعو «القافلة» قرَّاءها، في ملف العدد، إلى إلقاء نظرة بانورامية شاملة على الأرض، كل الأرض.. الكرة الأرضية، هذا الكوكب الجميل الذي يحتضننا والذي لا غنى لنا عنه، علَّ في هذه النظرة ما يدفع إلى الاهتمام بصونه وحمايته من المخاطر التي يمكن أن تتهدد سلامته وسلامة العيش فيه.



الرحلة معاً

اليوم الوطني..
رفرفة الصغار لعيون الوطن

ليس اليوم الوطني ورقة تقرأ ثم تلف وتوضع على الرف، ولا هو احتفال تلفزيوني عابر تدبج فيه الأغاني والقصائد والتصريحات ثم تتبخر مع نهاية اليوم. ولا هو أيضا إجازة من المكاتب والمدارس نحفل فيها بالفراغ، الذي يملك كثيرون منا أكياسا هائلة منه، إلى درجة الشكوى من تدني مستويات الإنتاجية وضآلة الإحساس بالفعل التنموي على المستوى الفردي.

اليوم الوطني، إذا أذنتم، هو حالة زمنية يفترض أن تكتسب صفة الديمومة ويفترض أن تحظى بشعور جميع المواطنين بالفرح والمسؤولية. والمواطنون هنا ليسوا فقط من نُسبغ عليهم صفة الاعتيادية في الوجود والتأثير، بل هم الوزير ورئيس الشركة ومدير الجامعة ومدير المدرسة والمدرس والتاجر والعامل والطالب وربة البيت. لا يُستثنى أحد من مسؤولية الإحساس باليوم الوطني، وبالتالي فإن كل الناس تنطبق عليهم شروط الفرح ومظاهره حين يزورنا هذا اليوم كل عام. ولذلك تحدث الناس هذا العام مطولاعن مظاهر اليوم الوطني العامرة في العيون والشوارع والمكاتب والمدارس، بل والسيارات التي غيرت ألوانها إلى الأخضر معلنة عبر سائقيها الشبان بأن يومنا الكبير، الساكن في حنايانا، قد حل بين ظهرانينا ونحن نحتفي به ونمتن للرجال والنساء الذين وضعوا لبنات وجوده الأولى ليكون لنا ترابنا الآمن كما لكل إنسان ترابه الآمن.

لقد كان مثار أحاديث الناس، وهم يتداولون يوم أمس الوطني، رفرفة أطفال المدارس بأعلامهم في الطريق إلى مدارسهم، وهذا بالنسبة لي بيت القصيد. ففي سنوات ماضية كان يومنا الوطني يمر عابرا لا يشعر به الناس إلا من خلال تصريحات تقليدية يدلي بها بعض المسؤولين للصحف، التي لم تصل إلى الآن إلى حالة مرضية في استقراء مدلولات هذا اليوم، بصفتها الطاقة المجنَّدة لرصد القديم والجديد من هذه المدلولات. فالصحافة بطرفيها، المقروء





من السهل على الإنسان السعودي من الآن أن يذكر يومه الوطني كما يذكر كل إنسان على وجه الأرض معاني أيامه الكبيرة التي كانت من أسباب انتمائه واجتهاده وبذله لعيون وطنه

والمرئي، تتحمل مسؤولية ضخمة في مخاطبة الناس وتثقيفهم وزيادة معلوماتهم عبر برامج ومواد صحافية متعوب عليها، إذ لا يكفي أن تذهب الصحيفة إلى الأسهل من تصريحات المسؤولين للمناسبة أو طرح أسئلة من قبيل كيف تعيشون وكيف تأكلون وكيف كنتم تسلكون الطريق إلى الرزق والحج؟!

لابد من ممارسة الاحتراف الإعلامي حين تقدم المواد الإعلامية الخاصة باليوم الوطني، بحيث تجذب المادة القارئ أو المشاهد الذي ملَّ الطرح التقليدي، بعدما تعرف عبر تعرضه لوسائل إعلامية، عربية وأجنبية، على المواد الإعلامية التي تمكث في الذهن وتلك التي تذوب مع أول سطر أو أول مشهد. وإذا كان شبابنا في الشارع ابتكروا وسائلهم الخاصة اللافتة في يومهم الوطني فإنه لن يعوز صحفنا أن تبتكر موادها التي تضعنا فعلا في قلب الحدث الوطني الأهم، وتنقلنا عبر رواسي ورواسخ هذه المواد إلى حالة من التأثر والشعور الفردي والمجتمعي بالمسؤولية الوطنية الملقاة على عواتقنا.

أما إذا عدت إلى بيت القصيد، بعد هذا الاسترسال الذي أبعدني قليلا عنه، فإن أطفالنا بأعلامهم وأنشوداتهم وقصص المدرسة الوطنية هم مدار اهتمامنا وامتناننا نحن الذين سبقناهم إلى المدارس والمكاتب والمصانع والمعامل، لكن حظهم مع اليوم الوطني أوفر من حظنا. ولذلك من السهل على ابنك أو ابنتك من الآن وصاعدا أن يسجل في دفتره أو تسجل في دفترها ماذا يعني اليوم الوطني وماذا فعل أو فعلت في الإجازة لمناسبة حلوله. سهل على الإنسان السعودي من الآن أن يذكر يومه الوطني ومعانيه الكبيرة كما يذكر كل إنسان على وجه الأرض معاني أيامه الكبيرة التي كانت من أسباب انتمائه واجتهاده وبذله لعيون وطنه.

وما أريد أن أؤكده في هذا السياق هو أن تبذل المدرسة ويبذل البيت الكثير من جهد الابتكار لاحتفال اليوم الوطني التي نُشرك به أطفالنا، بحيث يعلق هذا اليوم وتعلق معانيه في أذهانهم وقلوبهم من الصغر وبالتالي نضمن أنهم سيحملون هذه المعاني معهم حين يتولون المسؤولية باختلاف مواقعها وأنواعها. كما أننا سنضمن، دون شك، تحصينهم ضد موبقات عصرنا وعواتيه التي تتربص بالوطن وقدراته وحاضره ومستقبله.

يومنا الوطني هو يوم ميلاد كل منا، فلنصنع لهذا اليوم كل عام كعكة وندعو الأطفال لتفريقها على أهل البيت، وإذا سألونا ما المناسبة قلنا لهم: اليوم هو اليوم الوطني وهو حلو المذاق مثل الكعكة. وكل كعكة وأنتم بخير.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

مجلة الكبير والصغير

تحياتنا لكم ولكل من أسهم في إصدار القافلة. فهي، من دون أي مجاملة، مجلة المنزل والعمل. وعندما تصلني يقرؤها الكبير والصغير في المنزل، ثم أقرؤها في المدرسة لطلابي.
كانت موضوعات مجلتنا الغرَّاء في السابق حكراً على الرجال. أما الآن، فهي تتطرق إلى موضوعات تهم المرأة السعودية بشكل خاص والخليجية والعربية بشكل عام.
كما أنها تتناول موضوعات تتعلق بالطفل والأسرة والطب والطبيعة. وقد أثْرَتْ هذه الموضوعات المجلة، وأرغمت القارئ على قراءتها من الغلاف إلى الغلاف.
نتمنى المزيد من التقدم والنجاح والتطور لمجلتنا الغرَّاء، فهي ليست ملك السعوديين فقط، بل هي للعالم بشكل عام وللوطن العربي والخليجي بشكل خاص.
ويا ليتكم تتكرَّمون بتخصيص صفحة من القافلة عن تاريخ دولة من دول العالم، بدءاً بدول الخليج العربي، وتزوِّدونها صوراً تثري الموضوع حول نشوء هذه الدولة وحالتها الحاضرة. كذلك تشدني صفحة «علوم وبيئة» كثيراً، وخاصة عندما تتعلق بموضوعات سعودية. فما زلت أحتفظ بالعدد 3 من المجلد 53، للموضوع الذي يتضمنه حول الربع الخالي في المملكة التي تفتنني الحياة البرية فيها بنباتاتها وحيواناتها. وأنتم لكم قدرة عجيبة على إمتاع القارئ بالأسلوب الراقي والصور الرائعة.
وفقكم الله، ومهما أكتب في قافلتي فإنني أشعر بأنني مقصرة. فقد أفادتني كثيراً بصورها وموضوعاتها وقصصها. أفتخر بها وأنا أحملها مع كتبي وملفاتي، وعندما أجدها في بيتي وسيارتي ومكتبي، فذلك لأنها بالفعل «قافلتي».

نادية خالد سعود السيف
اليرموك – الكويت



المشهد الثقافي السعودي

أسعدني الاطلاع على العدد الجديد من مجلة «القافلة» وضمنه موضوع ثري عن «المشهد الثقافي السعودي بين انتصار الرواية وبطولة القارئ»، والذي تحدَّث فيه عدد من النقاد والقاصِّين عن أبرز القضايا المؤثرة في الحركة الثقافية السعودية، كالإصدارات الروائية الجديدة، والمجالات الفنية كالرسم والتشكيل والمسرح، وتأثير الصحافة في إشاعة مفهوم النقد وتوسيع دوائره بما يخلق أجواءً مريحة من اعتياد المختلف، أدباً ونقداً وتياراً إبداعياً. ومن ذلك إشارة بعض الدارسين لما تكتبه المرأة القاصَّة من لون قصصي جديد، وجدت فيه فضاءها الرحب للتعبير عن قضاياها وهمومها.
أشكركم على هذا الجهد، الذي هو امتداد لتاريخ هذه المجلة العريق. وتقبلوا فائق التقدير والاحترام.

عبد العزيز بن محمد السبيل
وكيل وزارة الثقافة والإعلام للشؤون الثقافية

حكومة الظل

اطلعت في مجلتكم (العدد 2 من المجلد 56)، وفي باب الثقافة والأدب على مقال حول رواية «حكومة الظل» للدكتور منذر القباني. فشدني الكتاب، ولذا أطلب من إخواني الأفاضل في مجلتكم أن يدلوني على نقاط بيع هذه الرواية هنا في الجزائر، أو طريقة شرائها بواسطة المراسلة.

هشام بن صالح بن الطيب زاوي
الجزائر

القافلة: الرواية صدرت عن مركز الراية للتنمية في دمشق، ويمكنك طلبها بريدياً من وكيل التوزيع: مكتبة بستان المعرفة، ص.ب 41547، الرمز البريدي 21531 جدة، المملكة العربية السعودية.

ملف الحمار

وجدت في العدد الأخير من مجلة «القافلة» الذي حمله إليَّ ابني من صندوق البريد موضوعات دسمة ومفيدة، ومنها الخلايا المرآة، اللون الأحمر، عندما يستوزر الأدباء، الأمان الاجتماعي (ولي ملاحظة على بعض فقراته) ثم ملف العدد «الحمار».
ومن المصادفات أني كنت قد كتبت مقالاً عن الحمار في جريدة الجزيرة بتاريخ 1428/8/13 ورب صدفة خير من ميعاد.

محمد بن عبدالله الحمدان
الرياض

ناشونال جيوجرافيك بعد القافلة
الوقود البيولوجي، ما له وما عليه

بعدما عالجت مجلتنا المفضَّلة «القافلة» في عددين سابقين، بمقالتي: «الطاقة

البيولوجية، العاصفة ما زالت في الفنجان» (عدد يناير فبراير 2007م، الصفحات من 20 إلى 27) و «التسوق في مصادر الطاقة.. خيارات لا بدائل» (عدد يوليو أغسطس 2007م، الصفحات من 20 إلى 27)، موضوع الوقود البيولوجي المستخرج من النبات، والمشكلات التي يرتبها إنتاجه، قرأت موضوعاً مماثلاً، في مجلة «ناشونال جيوجرافيك» الأمريكية في عدد أكتوبر 2007م، التي صدرت وعلى غلافها صورة كوز ذرة، وعنوان موضوعها الأساس: زراعة الوقود.

وكتبت المجلة في الداخل، من الصفحة 38 إلى الصفحة 59، تحت العنوان: أحلامٌ خضر، عن المشكلات التي تواجه إنتاج الوقود البيولوجي، من النبات. وقالت إن إنتاج الوقود من الذرة أو فول الصويا، يحتاج إلى مبيدات كثيرة ومخصب الأزوت (النتروجين) الذي يحتاج صنعه بدوره إلى حرق وقود أحفوري (نفط أو فحم). ويستهلك إنتاجه من الوقود تقريباً مقدار ما ينتجه. وأضافت أن العلماء يخشون تحويل 53 مليون إكر (أي نحو 212 ألف كيلومتر مربع) في الولايات المتحدة الأمريكية، من مناطق طبيعية مخصصة الآن للحياة البرية، إلى مناطق لزراعة الذرة والصويا، على نحو يزيد إنتاج ثاني أكسيد الكربون بدل خفضه. وحذَّر خبراء الاقتصاد من ارتفاع سعر الذرة بعد، وقد زاد إلى مستوى قياسي الآن أصلاً، وتحويل كثير من علف الحيوانات الداجنة، إلى صناعة الوقود، فيما لا يمكن لكل إنتاج الذرة والصويا الأمريكية الآن أن يحل محل أكثر من 12% من وقود البنزين، و6% من الديزل. ومع الحاجة إلى إنشاء أنابيب لضخ الوقود البيولوجي، سيزيد سعره وقد يصبح الميزان خاسراً.

وقد شعرت بالفخر لأن «القافلة» عالجت الموضوع في العددين المذكورين بالتنبيه إلى كل هذه الأمور، قبل ناشونال جيوجرافيك بأشهر.

ولاحظت المجلة الأمريكية أن استخراج الوقود البيولوجي من قصب السكر في البرازيل يبدو أفضل حالاً، إذ إن عصير قصب السكر 20% منه لدى عصره يكون أصلاً سكراً، ويبدأ تخمره فور عصره. ولا يحتاج إنتاج 8 وحدات حرارية من قصب السكر، إلا لوحدة حرارية واحدة من الوقود الأحفوري. لكن توسع المساحة المستخدمة في إنتاج قصب السكر يدفع الرعاة نحو الغابة الاستوائية، ويقضم في الغابات. كذلك لاحظت أن المساحة المخصصة لزراعة الغذاء تتقلَّص، فيما يعاني مليون برازيلي الجوع. وتشير أرقام الأمم المتحدة إلى أن 25 ألف إنسان يموتون جوعاً كل سنة في العالم، معظمهم دون الخامسة من العمر. وقد تنبهت «القافلة» في مقالتيها المذكورتين أيضاً للمخاوف المتعلقة بالغذاء وإنتاجه.

واقترحت ناشونال جيوجرافيك توجيه الأنظار صوب مصادر أفضل للوقود البيولوجي، لا تؤثر في المساحة المزروعة ولا في إنتاج الطعام في العالم. ومن هذه المصادر ما بدأ يظهر على استحياء في مجال الأبحاث والتطبيق: استخلاص الوقود من ساق النبات وأوراقه أو حتى نشارة الخشب، وكذلك من الطحالب التي يسهل إنتاجها في محاضن صناعية. وختمت المجلة بالإشارة إلى أن الإمارات العربية المتحدة خصصت 250 مليون دولار أمريكي، لتطوير أبحاث الوقود النظيف، من الطاقة المتجددة.

فمبروك لـ «القافلة» ريادتها اليقظة.

جميل عبد الباقي
القاهرة

المشتركون الجدد

محمد عثمان الغامدي، جدة - حمد بن عبدالله الركبان، الرياض - حجب العصيمي، مكة المكرمة - خالد بن محمد الصقر، الأحساء - أسامة عبدالله سعد، جدة - أحمد بن عبدالله بوبشيت، الدمام - مصطفى عبدالله العلي، الأحساء - عبدالله بن علي عبده، المدينة المنورة - محمد القاضي، طنجة، المغرب - بن نويوه بومدين، الجزائر - عبدالله بن حسن الشهري، مكة المكرمة - محمد بن سالم الجهني، المدينة المنورة - د. حمود بن إبراهيم السلامة، الرياض - محمد عبدالرحمن العلي الخضيري، القصيم - إبراهيم حافظ غريب، مكة المكرمة - ماجد عبدالله رابح الردادي، المدينة المنورة - بن طالب مصطفى، الجزائر - نهى نبيل الهيجا، دمشق - فضلون هيكل لطفي، الجزائر - عبدالله بن علي عبدة، المدينة المنورة - محمد أحمد البقشي، الهفوف - ناصر السبيعي، الرياض - الدكتور إبراهيم السعيد، جامعة البحرين - قصي أبو الفرج، المدينة المنورة - محمد جواد السعد، الهفوف - عيسى محمد الفيفي، فيفا - بكر نزال العودة، الجوف - محمد تقي البوخضر، الأحساء - صالح المطلق، المذنب - عبدالله سالم آل مرعي، خميس مشيط.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء للقافلة التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

إدعاءات الناشرين وغيرهم

تلقيت العدد 4 من المجلد 56، واطلعت على كل محطاته الشيقة والممتعة، ولكني تمعنت كثيراً في مقال رئيس التحرير بعنوان «تكذيب ادعاءات الناشرين»، الذي يُشكر كل الشكر على ما قدمه فيه.

بوركتم على هذا المقال الذي أنار دروب المضلّلين بأفكار بعيدة عن الثقافة والمعرفة العربية، وأتمنى أن أرى الكثير والكثير من المقالات المشابهة الممتازة في أثرها المعنوي، علَّها تحرك ساكناً بمرور الأيام.

حسن حجي الشبيب
الأحساء

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

آل غور يصبح رمزاً..

عندما قرأت موضوع «الحقيقة لا تلائم من؟» الذي يعرض لكتاب نائب الرئيس الأمريكي السابق آل غور، كنت على وشك أن أكتب إليكم رسالة لسببين: الأول هو تحية مجلة «القافلة» لمتابعتها آخر المستجدات العلمية والثقافية في العالم، لأنني بعدما قرأت المقال المذكور بنحو أسبوعين، شاهدت على إحدى الفضائيات البرنامج الذي تعده المقدمة المشهورة أوبرا وينفري، وقد استقبلت في تلك الحلقة آل غور الذي تحدث عن كتابه وعرض الصور نفسها التي كانت «القافلة» قد اختارتها لمرافقة الموضوع. وسرني أن أكون على اطلاع مسبق على كل مجريات هذه الحلقة التلفزيونية سلفاً. أما السبب الثاني فقد كان السؤال عن المكان الذي يمكنني أن أجد فيه هذا الكتاب، ولكنني وجدته لاحقاً، ويا ليتكم تشيرون مع عرض الكتب إلى المكتبات المحددة التي يمكننا أن نجدها فيها، فالأمر خدمة للقارئ تعفيه من عناء البحث هنا وهناك. وقد قررت اليوم أن أكتب إليكم بعدما طالعت خبراً في إحدى المجلات العلمية على صلة بموضوع الاحتباس الحراري.

يقول الخبر إن علماء من جامعة ويلز بحثوا في سبيل تخفيض انبعاث غاز الميثان من روث الماشية في المزارع، الذي يشكِّل نحو 16% من انبعاث هذا الغاز في العالم، ويبلغ أثره الضار على الاحتباس الحراري نحو 20 مرة ضرر ثاني أكسيد الكربون. ويضيف الخبر أن التجارب التي أجريت على معدة بقرة صناعية أثبتت أن خلط العلف بشيء من الثوم يخفِّض انبعاث الميثان من الروث بنسبة 50%، وأن التجارب انتقلت الآن إلى مرحلة دراسة أثر الثوم في نكهة حليب البقرة ولحمها.

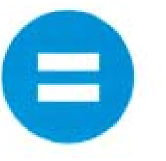
الطريف في الخبر (وهو ما ذكرني بالمقال الذي قرأته في «القافلة») ودفعني إلى أن أكتب إليكم، هو أن اسم آل غور لم يرد مطلقاً في الخبر، ولكن صورته كانت تعلوه في إخراج صحافي طريف جاء على شكل ثلاث صور صغيرة: بقرة وفص ثوم وآل غور، ويقول إن البقرة+الثوم=آل غور سعيد (أرفق رسالتي بنسخة عنها). فالرجل أصبح رمزاً لمقاومة الاحتباس الحراري. ولعل التصاق قضية برجل ليصبح رمزاً عالمياً لها يشكِّل مادة بحث ودراسة تشمل آل غور وغيره في شتى الميادين، ونأمل أن نرى مثل هذا البحث في أحد الأعداد المقبلة من «القافلة».

إدريس عبدالرحمن القادري
جدة

تعقيباً على موضوع «الحقيقة لا تلائم من؟»، «القافلة» عدد مايو-يونيو 2007





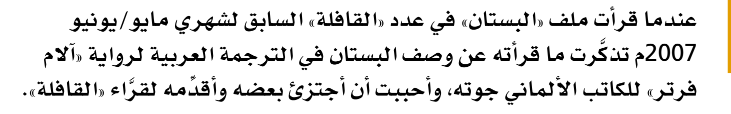





حول

ملف البستان..

عندما قرأت ملف «البستان» في عدد «القافلة» السابق لشهري مايو/يونيو 2007م تذكَّرت ما قرأته عن وصف البستان في الترجمة العربية لرواية «آلام فرتر» للكاتب الألماني جوته، وأحببت أن أجتزئ بعضه وأقدِّمه لقرَّاء «القافلة».



يقول في الرواية: «والحديقة متواضعة، من السهل على المرء أن يرى، حالما يدخلها، أن هندستها لم ترسمها يد بستاني عالم في هذا المجال، بل رجل يرغب في أن يمنح قلبه المرهف أكبر قدر من الإحساس بالمتعة... إنني سعيد جداً، يا صديقي العزيز، ويستولي عليَّ شعور ممتع في هذا الوجود الهادئ، إذ انني شُغلت به عن ممارسة فنِّي، فلم أستطع أن أرسم خطاً واحداً، لكنني أشعر بأنني لم أكن رساماً أعظم مما أنا الآن، وقد انداح أمامي الوادي الجميل في الأسفل، يزنِّره الضباب، وتسطع الشمس المرتفعة من وراء الأشجار المخضرَّة الأوراق، الكثيفة الظل التي ليس في داخل حرمها المقدَّس إلا أشعة استرقت طريقها إليه، وأنا مستلق فوق العشب الكثيف، قرب جدول يسقسق ماؤه، وتثير انتباهي ألوف الأشياء المألوفة حولي، فأصغي إلى تلك المخلوقات الصغيرة التي لا حصر لها ولا وصف، وهي تحف بي، وتدندن بين سيقان الأعشاب، فيتملكني شعور عميق بوجود الخالق الذي كوَّن الإنسان على صورته ومثاله، وبذلك النسم الكوني من الحب الذي يمدّنا بأسباب الحياة، عندما نعوم في بحر النعم الإلهية، ومن ثمَّ يا صديقي، عندما يسودّ أفق حياتي، ويغشى عينَي الضباب، يبدو لي أن الأرض والسماء تسكنان في روحي، وتستنفدان على شاكلة العاشق، كل طاقاتها- عندئذ أغرق، والشوق يغمرني، في التفكير».

أديب حداد
فلسطين

تعقيباً على ملف «البستان»، «القافلة» عدد مايو-يونيو 2007



القافلة.. تعجبني وخاصة المعالجة الأسلوبية

أود الإشارة في البداية، إلى أنني كنت على اتصال مع «القافلة» قديماً؛ إذ كنت أقرأ بعضاً من موضوعاتها، التي كانت رائعة وجميلة؛ وإلا لما كان أن يُكتب للقافلة أن تعيش هذا العمر، وما كان يكتب لها أن تكون بهذا الحجم والقوة الآن.

أما حديثاً، فللقافلة مظهر جذَّاب لافت للنظر.. إخراجها الفني تطور تدرُّجاً من عدد إلى آخر، فلا نستغرب أن يتكامل هذا الإخراج في أعداد العام 2007م؛ إذ انني لم أعد أجد شيئاً يمس الإخراج الفني لا يعجبني، كما كنت قد تعودت أن أجد ذلك في أعداد «القافلة» السابقة.. اللهم باستثناء غلاف العدد الثالث لهذا العام، الذي جاء قاتماً جداً؛ وأيضاً في ص 97 من العدد نفسه في ملف «في ظلال البستان» اللون البني للصفحة مع الكتابة باللون الأسود يُتعب النظر.

ومن دون شك، عندما ترى «القافلة» الجديدة أول مرة ستأخذك الدهشة! ستمعن النظر في الغلاف قليلاً، ثم تقلِّب صفحات العدد مراراً وتكراراً، مستمتعاً بالنظر إلى الرسوم والألوان الهادئة الجذَّابة التي تزدان بها صفحاته، والتي قلَّما تجدها في مجلة عربية.. هذا ماحدث لي، وأعتقد أنه سيحدث لأي شخص سيرى «القافلة» الجديدة أول مرة.

أما موضوعات «القافلة» حديثاً فهي مختلفة عما ألفناه؛ ذلك أنها تتعامل مع القارئ بذكاء، تتفاعل معه، وتؤثِّر فيه بشكل كبير. بعبارة أخرى، ليس هدفها فقط أن تقرأ لتكسب المعرفة، بل لتكسب المعرفة وتستفيد منها أيضاً، ويتضح ذلك من خلال الدقة والعناية في اختيار موضوعاتها وطرحها وسعيها إلى الجودة والشمولية في طرحها.

المقدمات والموضوعات

أما من ناحية إخراج موضوعات «القافلة» (لا أقصد الإخراج الفني)، هو -في تقديري- ممتاز جداً. والمقدمة التي توضع بداية كل موضوع تستثيرني لأن أقرأ الموضوع حتى عندما لا تكون لدي الرغبة في قراءته عند معرفة عنوانه.

احتوت أعداد «القافلة» العام 2007م على جملة موضوعات مميزة فعلاً... ولا أنسى موضوع «الطاقة البيولوجية.. العاصفة ما زالت في الفنجان»، و«المقهى المعاصر في المدينة العربية»، و«الطوافة»، و«ملف الدمية»، و«ستوكهولم وريو وكيوتو وجوهانسبرغ... منعطفات كبيرة في رحلة قصيرة».. في العدد الأول. و«الجامعات الخاصة في الوطن العربي»، و«رحلة الدواء داخل الجسم»، و«أدب الراشدين الصغار»، و«الموقف الإنساني في القصيدة»، و«صورة شخصية: فاتح المدرس»، وكل ما جاء حول رواية «حكومة الظل».. في العدد الثاني. وأود أن أبدي رأيي حول بعض الموضوعات المنشورة في العددين الأول والثاني من مجلتنا العزيزة عام 2007م:

- موضوع «الملكية الفكرية في عصر التكنولوجيا» هو عنوان قضية العدد الأول، عنوان مهم وجذَّاب ومثير للفضول.. إلا أن الأسلوب المتبع في كتابة هذا الموضوع -في نظري- جاء صعباً؛ وعندما أنهيت قراءته شعرت ببعض الغموض وعدم وضوح الرؤية تماماً!
- موضوع «صناعة الإعلان في دول الخليج» جاء تناوله -في نظري- مملاً بعض الشيء؛ بسبب تركيزه على الأرقام وتطورها وإهماله جوانب عديدة تتعلق بهذه الصناعة.
- أما موضوع «التسويق العصبي..فن مخاطبة «مخ» المستهلك» فقد استمتعت كثيراً عندما قرأت الفقرات «من مخاطبة الغرائز إلى مخاطبة الدماغ» و«كيف يقرر المخ؟»، واستمتعت أكثر عندما قرأت الفقرات «البحث عن زر الشراء!» و«أكثر من مجرد تسويق».
- بصراحة، أصبت بخيبة أمل عندما قرأت موضوع «صناعة الترفيه والتسلية: تسويقها ذكي وثقافة مواجهتها غائبة» ولكن ليس بسبب الموضوع، فالموضوع رائع. ولكن بما أنني قد عملت بحثاً للقافلة عن «ألعاب الفيديو»، فإن ذلك يعني -إذا نشر «ألعاب الفيديو»- أن القضية لن تتطرق إلى





الجانب الاقتصادي مرة أخرى؛ لأنه نشر في عدد سابق من أعداد «القافلة»، وسيكتفى في القضية بالإشارة إليه. ومن وجهة نظري، أنني كنت أفضل دمج الموضوعين ونشرهما معاً في باب قضايا؛ لأنني أرى أن هذا الجانب الاقتصادي المهم، هو في الواقع قضية أكثر من أن ننظر إليه بوضعه في باب الطاقة والاقتصاد؛ فهو سيعطي القضية قوة، وسوف يشد الانتباه إليه أكثر، كما أنه سيغيِّر زاوية النظر إلى الموضوع.. حتى وإن كان نشر هذا الموضوع (صناعة الترفيه والتسلية: تسويقها ذكي وثقافة مواجهتها غائبة) وحده في باب الطاقة والاقتصاد يعطي مساحة أكبر للحديث عنه.

- وأخيراً، أحيي كاتب «المنهج الخفي للنص الجديد»، فقد أعجبني كثيراً.

الأسلوب

وإذا كانت «القافلة» قد عودتنا في كل عدد أن تتقدَّم نحو الأمام ولو خطوة واحدة مثلاً؛ فإنني أرى أنها في عدد مايو-يونيو 2007م قد تقدَّمت خطوتين نحو الأمام؛ لأن أسلوبها في هذا العدد في موضوعاتها كافة كان قوياً ومدهشاً!.. فلقد أعجبني كثيراً مقال الأستاذ كميل حوا في تعقيبه على ملف الشاحنة، وأدهشني تحليله المنطقي الرائع.. فذلك المشهد الذي بدا في لحظة ما أسطورياً، كان يختزن معانيَ رائعة جداً!

قضية العدد كانت أكثر من رائعة، كما أنها كانت هادفة.. أما قضية الاحتباس الحراري.. فالكثيرون تناولوها؛ ولكنني أرى أن «القافلة» تميزت في عرضها وتناولها لهذه القضية.. وعندما قرأت موضوع «ما بين الكتاب والتلفزيون والإنترنت... الراديو لا يزال من دون بديل» اشتقت كثيراً إلى ذلك الزمن الذي كان الراديو فيه الاختراع الطاغي..! كما شعرت برغبة ملحة في سماع برامجه..!

أما باب صورة شخصية فقد أثَّر بي كثيراً بقصة الأستاذ فرج الظفيري.. وقد أعجبتني جداً تلك الكلمات المختارة التي وضعت في بداية المقدمة («بل تستطيعين» كلمة قالتها والدة أغاثا كريستي لابنتها فأدخلتها عالم الكتابة الرحيب). لقد أعجبني الأسلوب الجديد الذي عرضت به رواية «الزهرة المحترقة»، فهو أفضل من الأسلوب الذي درجت عليه العادة؛ لأنه يجعلنا نفهم أكثر ونتواصل مع الرواية في الوقت نفسه. ولم تكن الموضوعات «المشهد الثقافي السعودي» و«التربية بواسطة الذكاء العاطفي» و«العلامة التجارية» والمقالات الأخرى دون مستوى الموضوعات السابقة.. بل ان أسلوب الكتابة في هذا العدد دفع بي إلى قراءة موضوع لا أميل أصلاً لقراءته: «صورة البترول في الإعلام العالمي». بالطبع، سررت جداً في نهاية رحلتي وأنا أتجول في ظلال البستان.

أسلوب «القافلة» -كما ألحظه- لا يشجع على القراءة فقط؛ بل يحثُّنا على التفكير بطريقة جديدة وراقية.. وهذا الشغف بقراءتها؛ هو نتيجة لأسلوبها والمفاجأة التي حدثت لنا عند قراءتنا لموضوعاتها؛ والتي نجم منها تغيير نظرتنا إلى الموضوعات وأمور عديدة أيضاً. ببساطة شديدة جداً، «القافلة» تحمل لنا رسالة مهمة جداً، وهي: أن الرقي في التفكير والجمال هما معاً مطلب أساسي في حياتنا.

أريج عيسى المحفوظ

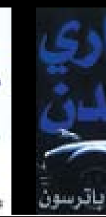
قافلة النشر

إصدارات سنة ٢٠٠٧ م

مكتبة جرير






الزهرة الزرقاء
نورا روبرتس

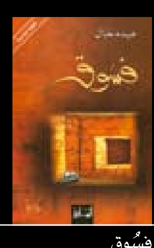
حوارات عصيبة
آن ديكسون

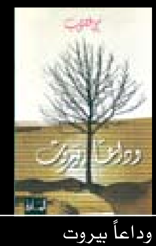
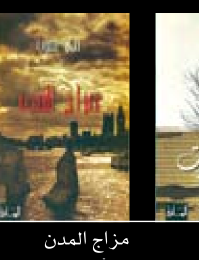
كباري لندن
جيمس باترسون

مهما حدث!
جاكلين ويلسون

جاك ويلش ومبادىء القيادة الأربعة. جيفري أيه. كرامز

دار الساقي


طوق الطهارة
محمد حسن علوان

فسُوق
عبده خال

حكايات دبلوماسيّة
نجدة فيحى صفوة

وداعاً بيروت
مي غصوب

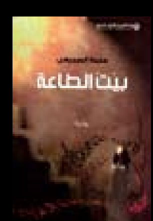
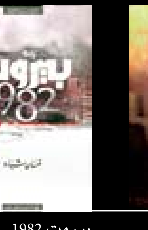
مزاج المدن
مي غصوب

دار العربية للعلوم










رشاقة الفرنسيّات
ميراي غوليانو

بخور السراب
بشير مفتي

كل مجدي أنني حاولت
شوقي بزيع

بيت الطاعة
منيرة السبيعي

بيروت 1982
غسّان شبارو

دار الفارابي









محطة قطار براماتا
عبد اللطيف الحرز

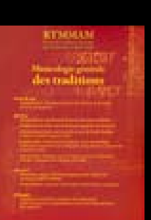
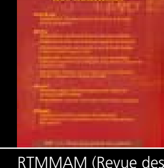
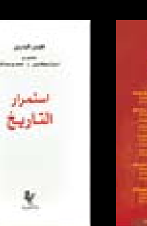
غبطة برّية
جمانة مصطفى

زيارة السيد الوزير
د. هشام زين الدين

وشم عقارب
ورود الموسوي

دار النهار







RTMMAM (Revue des Tradition Musicales des Monde Arabe et Mediterranéen) Musicologie générale des tradition

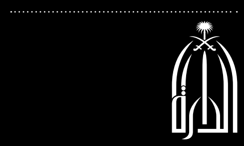
استمرار التاريخ
هوبير فيدرين

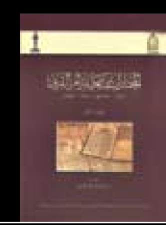
من الدار إلى العالم
كمال الشاعر

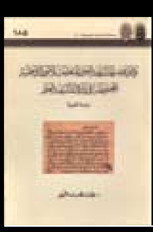
سيجيء الموت وستكون له عيناك. جمانة حداد

من الاستقلال إلى الحرّية
علياء رياض الصلح

دارة الملك عبد العزيز





المختارات من صحيفة أم القرى (جزءين)
إعداد دارة الملك عبدالعزيز

امتاع السامر بتكملة متعة الناظر. شعيب بن عبدالحميد بن سالم الدوسري

صحيفة أم القرى
محمد بن عبدالرزاق القشعمي

النشاط الزراعي في الجزيرة العربية. أ. د. عبدالله بن محمد السيف

وثائق عصر الملك عبدالعزيز المتعلقة بالأمور الداخلية المحفوظة في دارة الملك عبدالعزيز
خولة بنت محمد بن سعد الشويعر

دار رياض الريس

















ممالك من خشب
عبيدو باشا

أرض معزولة بالنوم
ناظم السيد

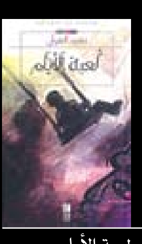
ما أشهى طعم الحريّة
سمير القضاة

جانجي
طاهر أحمد الزهراني

عرب الصابون
غازي قهوجي

وجوه





بنت الجبل
صلاح القرشي

طقوس متوحشة
لبنى محمود ياسين

بكارة
عبدالواحد الأنصاري

الدمى والشيطان
محمود محمد حسن

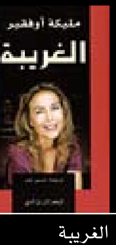
لعبة الأيام
نعيم الغول



المركز الثقافي العربي











الذات في مواجهة العالم
د. أميرة علي الزهراني

الغريبة
مليكة أوفقير

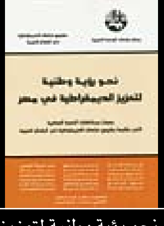
الخطاب المسرحي في العالم العربي. وطفاء حمادي

كتيبة الخراب
عبد الكريم جويطي



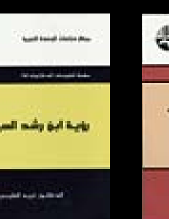
مركز دراسات الوحدة العربية















نحو رؤية وطنية لتعزيز الديمقرطية في مصر
تحرير: عاطف السمداوي

جماليات الشعر العربي
د. هلال الجهاد

رؤية ابن رشد السياسية
د. فريد العليبي

اللسان العربي وإشكالية التلقي

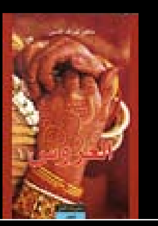
إدارة هندسة النُظُم
د. حاتم النجدي

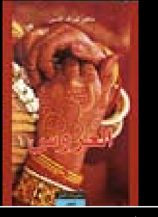
منشورات الجمل

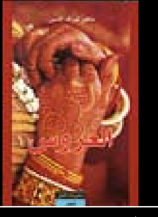






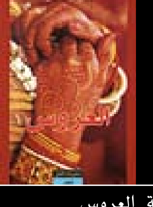












ثلاث حكايات وملاحظة تأملية. باتريك زوسكند

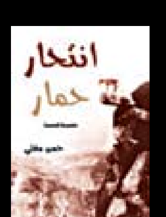
العروس
ماهر شرف الدين

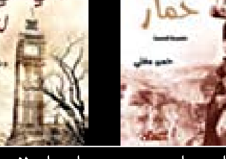
سأمُ باريس
شارل بودلير

بوذا الضواحي
حنيف قريشي

الحمامة
باتريك زوسكند

مكتبات ونشر العبيكان

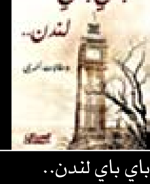




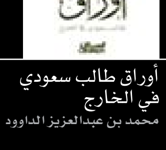


















انتحار حمار
حسن مفتي

باي باي لندن..
غازي عبدالرحمن القصيبي

أوراق طالب سعودي في الخارج
محمد بن عبدالعزيز الداوود

سعوديّون في أميركا
تركي الدخيل

وحيداً في المنزل
ماي إبرستاد

الدكتوراه..

اللقب واحد.. أما الموازين فمختلفة

«دكتور» كلمة لاتينية الأصل تعني «المعلم». أما اليوم، فقد صارت لقباً لكل الذين وصلوا في علومهم إلى أعلى ما تستوعبه مقاعد الدراسة الجامعية، أياً كانت هذه العلوم. ولكن هذا اللقب في الواقع أكثر من ذلك. فهو يجمع في قيمته البحث العلمي إلى الفرص الوظيفية إلى المكانة الاجتماعية، ويطمس الاختلاف النوعي في الأبحاث والمجهودات المبذولة للحصول على اللقب نفسه ما بين تخصص وآخر، وما بين جامعة وأخرى.
فكيف بدأت شهادة الدكتوراه، وما هي حقيقة ثقلها في الميزان العلمي والاجتماعي في حياتنا اليوم؟
فيما يأتي أربعة إسهامات تبحث في هذه القضية، أولها يعرِّف بماهية هذه الشهادة والعوامل المؤثرة في قيمتها وجدواها، والثاني يتناول تاريخ الدكتوراه وتطور برامجها في الجامعات الغربية.
أما الإسهام الثالث فيبحث في حال هذه الشهادة وإشكاليتها في المملكة. والرابع يعرض خلاصة واحد من الكتب البارزة التي تتناول قضية الدراسة الجامعية وتدعو إلى تغيير ثقافتها.



المحترف السعودي

1 الدكتوراه جواز مرور لا نهاية مطاف

لقاء مع الدكتور أهيف سِنُّو



للتعرف إلى ماهية شهادة الدكتوراه وقيمتها وما تتأثر به هذه القيمة سلباً أو إيجاباً، التقت «القافلة» بالبروفسور أهيف سنُّو، نائب رئيس جامعة القدِّيس يوسف للدراسات العربية والإسلامية في بيروت، ومدير معهد الآداب الشرقية، ومدير المعهد العالي لإعداد الدكتوراه في علوم الإنسان والمجتمع، وكان لنا معه اللقاء الآتي نصه:

• كيف تُعرِّف شهادة الدكتوراه لمن لا يعرفها، وبماذا تختلف عن الشهادات التي دُونها؟

• لتقديم جواب واضح، يُستحسن الانطلاق من الدرجة العلمية التي تسبق الدكتوراه مباشرةً، أي الماجستير أو ما يُعادلها كدبلوم الدراسات العليا. فإن شهادة الماجستير تُمهِّد السبيل أمام شهادة الدكتوراه، وهي تأتي بعد الإجازة أو الليسانس أو البكالوريوس مباشرة. وتتيح شهادة الماجستير للطالب أن يُعمِّق تخصصه الذي اختاره عادةً في المرحلة الجامعية الأولى، أي البكالوريوس، من خلال دراسة مجموعة من المواد المقررة التي تختلف باختلاف الاختصاص والجامعات، وبحث جامعي يسمى رسالة (بالفرنسية: Mémoire، وبالإنجليزية: Thesis)، يُشرف عليها أستاذ متخصص ويزيد عدد صفحاتها عادةً على المئة، وذلك حسب الاختصاص والجامعات أيضاً. والرسالة بحث علمي يَرمي بشكل عام إلى تقويم منهج الطالب في بحثه، أكثر مما يرمي إلى حمله على الاكتشاف والاختراع، وهو يُؤهّله للإعداد للدكتوراه.

أما شهادة الدكتوراه فتتيح بدورها للطالب أن يزيد تعمقه في تخصصه من خلال مجموعة من المواد الجديدة، وإعداد بحث جامعي آخَر يُسمّى عادة أطروحة (بالفرنسية: Thèse، وبالإنجليزية: Dissertation). وتجدر الإشارة إلى أن نظام الدكتوراه قد تطوَّر عالمياً: ففي فرنسا مثلاً، كان إعداد دكتوراه الدولة يقتضي إعداد أطروحتين: أطروحة ثانوية، وأطروحة أساسية. ثم ميَّزوا بين دكتوراه الاختصاص أو الحلقة الثالثة، ودكتوراه الدولة، ثم ألغي نظام شهادتَي الدكتوراه هذا، وحل محله نظام الدكتوراه الواحدة، لأن مفهوم الدكتوراه قد تغيَّر: فقد كانت دكتوراه الدولة مثلاً لتكلل حياةً حافلةً بالنشاط العلمي ويُنجزها المتخصصون في سن متقدمة، بينما أصبحت الدكتوراه الواحدة في الأنظمة الجديدة جواز مرور إلى الجامعات ومراكز البحث العلمي.

ومهما كان الأمر، فإن الأطروحة بحث علمي يُشرف عليه أستاذ متخصص أو أستاذان. وهو أوسع من الرسالة، فيتطلب نَفَساً طويلاً (ثلاث أو أربع سنوات عادة)، وجهداً منهجياً معيناً، وهو أرفع مستوى من الرسالة، ويرمي إلى الإتيان بجديد ذي شأن في الاختصاص المنشود، من الناحية النظرية، وناحية النتائج العملية. ومن شأن الأطروحة أن تدل على طول باع صاحبها في البحث والتحليل والنظر، وعلى قدرة الباحث على معالجة أبحاث أخرى من غير أستاذ مشرف.

• ما هو تقييمك لحامل هذه الشهادة اليوم وكيف تؤثّر الشهادة في حاملها؟

• نشهد اليوم تفاوتاً بالغاً بين حَمَلَة الدكتوراه: فالقيمة العلمية لصاحب الأطروحة هي من قيمة أطروحته. ومن هنا يمكن القول إن الأطروحة تؤثر إيجاباً أو سلباً في صاحبها. فحتى سنين قليلة خَلَت، كان الرجل العادي في بلداننا العربية ينظر إلى «الدكتور» نظرة تقديرٍ وتبجيل؛ ولكن يجب أن نعترف أن تغيراً طرأ على هذه النظرة، وأن الرجل العادي نفسه بات لا ينظر إلى لقب «دكتور» النظرة نفسها.

• مَن في نظرك الجدير بحمل هذا اللقب، هل هو كل متخرج؟

• لا، فإن الصدق والصراحة يقتضيان الاعتراف بأن اللقب في نهاية الأمر ليس كل شيء، وأن حامل اللقب قد لا يكون أهلاً له، شئنا ذلك أم أبيناه. فجدارة حامل اللقب بلقبه أمر يحتاج إلى نَظَر. لذلك، ينبغي أن نأخذ عدة أمور في الحسبان، كالطرح الذي تقدِّمه الأطروحة، والجهد المنهجي المبذول فيها، ومتانة مستنداتها، وعمق تحليلها ومعالجتها، وتماسك بنائها، وسلامة تعبيرها؛ نضيف إلى ذلك دقة النتائج التي توصلت إليها. يعني هذا الكلام أن الأطروحة هي أساس التقويم أو التقييم، بالنظر إلى مواصفاتها التي هي غير مواصفات الكتاب. فباختصار، ينبغي للأطروحة أن تكون وثيقة علمية صارمة منهجاً ومضموناً وشكلاً، حتى يستحق صاحبها اللقب الذي يحمله.

• إلى أي مدى يؤثِّر دور الجامعة والهيئة المانحة للشهادة في مستوى الدكتوراه؟

• لا شكّ في أن طريقة إعداد الدكتوراه تؤثّر في مستوى هذه الشهادة، وأن للجامعة ولجنة المناقشة مثلاً دورًا

فـي ذلك. فلا بد من لفت النظر هنا إلى أمرين على الأقل: المؤسسـة المانحـة أولاً، ولجنـة المناقشـة والتقرير الذي تضعه ثانياً.

إذ يختلف الواقع باختلاف البلدان والجامعات. فـلا يخفـى مثـلاً أن التنشئة العلمية فـي البلـدان الأوروبية والولايات المتحـدة الأمريكية أفضـل مما لدينا اليوم في عالمنا العربي في كثير من الحقول، نظراً إلـى إمكانات البحـث المتوافرة هناك، من موازنات، ومختبرات، ومناهج، وتقنيات... ولكـن لا يخفى أيضاً أن من أطروحاتنا ما يوازي ما يعد في الغرب، بل ما يفوقـه أيضاً، على الأقل في بعض المجالات. لذلـك لا بـد من التنبـه إلى تكاثـر الجامعـات الناشئة في العالم العربـي، وانصرافها بعد سنوات قليلـة من إنشائها في أحسن الحالات إلى منـح شهادات الدكتوراه. فإن عدنا إلـى الولايات المتحـدة الأمريكيـة وجدنا تصنيفـاً رسمياً للجامعـات فيها. أمـا في بلدانـا فيتحدثون عـن اعتراف الدولـة بالجامعـات أو اعتمادهـا مثلاً، من غيـر أن نعرف المعاييـر التي اعتمدت في هذا الاعتراف أو ذلك الاعتماد: أهي سياسية، أم استنسابية، أم غير ذلك...؟ وإن قالوا هي علمية، فليتنا نعرف ما هي.

قبل أن نفكّر في وضع أسس جديدة للدكتوراه، حبذا لو نطبِّق الأصول المتعارف عليها في التدريس والبحث والإشراف

لقـد حاولت بعض الأجهزة عندنـا وضع بعض المعايير، ولكنهـا غالباً ما كانـت معايير شكلية، كعـدد الأساتذة من حملة الدكتوراه، وعدد المختبـرات، وعدد المؤتمرات التي تُعقد كل سنة... من غير تطـرّق إلى إنتاج حَمَلة الدكتوراه، وبرامـج البحث في المختبـرات، وغير ذلك.

لـذا، يتعين على الجهـة المانحـة أن تكون صاحبة تقاليد عريقـة في البحث العلمي، وأن تتوافر فيها المـوارد البشرية المؤهَّلة للإشـراف علـى الأطروحـات، فـي الحـد الأدنى.

كذلـك، تُمثّل لجنـة المناقشـة دوراً أسـاسيـاً فـي منــح الشـهادة وتقديرها. فهـي بالنتيجة التي تُجيـز الأطروحـة أو لا تُجيزهـا، وتمنحها علامـة معيَّنة أو تقديـراً معيناً. لذلك ينبغـي أن تتألف من أصحاب الكفاءة العالية، والضمير الحي أخلاقياً ومهنياً. ويتعين عليها وضع تقريـر مفصَّل يتناول شـؤون الأطروحـة وشجونها. ومثلما تفاوتـت الجامعـات فيما بينهـا، نجد هنا أيضـاً بين لجان المناقشـة تفاوتـاً في تقديـر الأبحاث، حتى فـي المؤسسة الواحدة.

• هـل مـن حاجة إلـى تجديد أساليب منـح الدكتوراه أو وضـع أسـس جديدة لتقييم الطلبـة، تُساير التطـور وتُؤهّل الطالب فعلاً لخدمة مجتمعه؟

• ترمي الأبحاث الجامعية -ومنها الرسائل والأطروحات- إلـى التنشئـة العلميـة. وأول مـا ينبغـي لنـا البـدء بـه هو تربية أبنائنا على مقومـات المعرفة العلمية والروح العلمية والتحصيـل الأكاديمي. فمن دون تنشئـة على الموضوعية، والمنهـج، والحـس النقـدي، والأمانـة، والنزاهـة، والعمل الجماعـي ضمن فريـق معيَّن، عبثاً نحـاول إصلاح الأمور. وحبذا لو يُدرك طالب الدكتوراه أنه مُقبل على مشروعٍ علمي كبيـر يحتاج إلى عدة كاملة، ومثابرة، وفضول علمي. فبئس الأطروحـة التي لا يرمي مُعدُّهـا إلاَّ إلى وظيفة، أو منصبٍ، أو تحسين مستوى المعيشة.

وقبـل أن نُفكّـر فـي وضع أسـس جديـدة، حبذا لـو نطبِّق الأصول المتعارف عليها في مرحلة إعداد الدكتوراه، وذلك على مُستوى التدريس، والبحـث، والإشراف على الرسائل، ومناقشتها. وبما أن الدكتوراه أصبحت جواز مرورٍ -حسبما رأينـا- لا نهايـة مطـاف، فيجـب أن نتأمل ما يجـري بعد الحصـول عليهـا: وعلى ضـوء ذلـك نسعى إلى سـدّ بعض الثغـرات في مناهجنـا. فالذيـن تولَّوا مسؤوليـات جامعية يعرفون أن من حَمَلة الدكتوراه من لا يستطيع أن يُدرِّس أكثر من ساعتين أسبوعيتيـن منحصرتين في مجال أطروحته. من هنا الحاجة إلى الانفتاح على أبواب التخصص الأخرى للإفادة منها وتوسيع آفاق البحث والعمل.

إن الباحث فـي الأدب مثلاً، يُفيد اليوم بالتأكيد مما تُقدمه علـوم كثيـرة كالألسنيـة، وعلـم النفـس، وعلـم الاجتماع، والأنثروبولوجيـا...؛ ولا شـك في أن إفـادة الآداب من هذه العلـوم الإنسانيـة سيُؤدي إلـى تَرقّي مستـوى الأطروحات الجامعيـة فـي الاختصاص هذا. كذلـك، يجـب أن نحثّ حَمَلَـة الدكتوراه على متابعة إنتاجهم العلمي، وأن نوفِّر لهم الإمكانات اللازمة للقيام بأبحاثهم حتى بعد تخرجهم.

2 تاج الدراسة يحتاج إلى دراسة

حنان أحمد عبد الحميد*



بدأ ظهور شهادات الدكتوراه في الجامعات الأوروبية منذ القرون الوسطى. وكانت عبارة عن رخصة تسمح لحاملها بممارسة مهنة التعليم، ولم يكن هناك فرق بينها وبين درجة الماجستير، فكلاهما كان يُستخدم للدلالة على المعنى نفسه، ولم تكن هذه «الرخصة» تشبه في شيء درجات الدكتوراه الحاضرة التي يعدّ البحث العلمي الفريد شرطاً لنيلها.

كانت ألمانيا الدولة الأولى التي أعطت شهادة الدكتوراه صورتها المعروفة اليوم بإنشائها جامعة برلين عام 1810م على يد هامبولدت. وكان الحصول على الدرجة يتطلَّب حضور حلقات دراسية، وإعداد رسالة بحث علمية واختباراً شفهياً شاملاً، ويركِّز على الأصالة والإبداع بصفتهما عنصرين أساسيين لنيلها. كذلك كان أعضاء الهيئة التدريسية لهذه الجامعة مطالبين بحمل شهادة الدكتوراه وإجراء الأبحاث العلمية ونشر المواد الثقافية، وأدى هذا إلى ذيوع صيت هذه الجامعة عام 1815م؛ فجذبت ذوي العقول المتقدة والنفوس الطموحة من بريطانيا وأمريكا. وعاد الطلاب الأمريكيون إلى أوطانهم، وبدأوا بدفع عجلة الدراسات العليا إلى الأمام وأدخلوا مفهوم الأبحاث وشهادة الدكتوراه إلى الجامعات الأمريكية عام 1860م. وكانت جامعة «يال» (Yale) أول جامعة تتبنى هذه الشهادة، تبعتها جامعات هارفرد وميشيغان وبنسلفانيا. بعد ذلك وصل مفهوم شهادات الدكتوراه الجديد إلى بريطانيا عام 1917م بدءاً من جامعة أكسفورد، ثم انتشرت في أرجائها وفي الدول التي تتحدث الإنجليزية مثل كندا وأستراليا.

أنواع شهادات الدكتوراه

تعددت أنواع درجات الدكتوراه واشتهرت. وأشهرها ثلاثة: أولاً الدكتوراه في الفلسفة (Doctor of Philosophy)، وهي درجة دكتوراه بحث تولي الجانب النظري اهتماماً كبيراً، ثانياً الدكتوراه المهنية (Professional Doctorate) وهي درجة دكتوراه بحث أيضاً تركِّز على جوانب تطبيقية وعملية أكثر من النظرية، وانتشرت بعد شهادات الدكتوراه في الفلسفة لحاجة السوق لها، وأخيراً درجة الدكتوراه الفخرية (Honorary Doctorate) التي تعطيها الجامعة لفرد تقديراً لإسهامه وإنجازه المتميز في مجال معيَّن،



المحترف السعودي

* باحثة من السعودية — كلية دار الحكمة

مـن دون أن يكون هذا الفرد قد خضع للمتطلبات الدراسية اللازمة لذلك..

الدكتوراه في الولايات المتحدة

تجـذب برامـج الدكتوراه في الولايـات المتحدة عدداً كبيراً من الطلاب من مختلف أرجاء العالم، وعلى الرغم من قوة هذه البرامج إلا أن قضية تقييمها وتطويرها موضوع أساس علـى جدول كثير مـن المسؤولين فـي القطاعات الحكومية والخاصـة، الأكاديمية وغيـر الأكاديمية. وليسـت أعمال التقييـم والتطويـر هـذه نابعة مـن خلل أو ضعـف في هذه البرامج، بل من طبيعة العصر الاقتصادية والتقنية والمعرفيـة والسياسية المتسارعة التغيُّر.

جعلت ضرورة ترابط العلوم تأليف رسالة الدكتوراه من باحثَين بدلاً من واحد أمراً معتمداً

انتشـر الفكـر الداعـي إلى مشاركـة جميع الجهات المؤثرة والمتأثرة في إعداد برامج الدكتـوراه بما يتناسب مـع حاجة كل جهة، فهـذه البرامج ليسـت حكراً علـى الجامعات فقـط؛ بل ان للطلاب والباحثيـن والمموليـن والموظفيـن ونحوهم الحق فـي التخطيـط لهـا. وأسهمـت فـي إذكاء روح هـذا الفكر انتقادات الدراسـات الوطنية لبرامـج الدكتوراه بأنها تركِّز علـى الدراسـة أكثر من التدريـب، وبأنهـا لا تشجِّع ترابط العلـوم، ولا تخـرج الكفـاءات اللازمـة لشغـل المناصـب القياديـة، ووصفتهـا بأنها طويلـة وبطيئة فـي تلبية حاجة المجتمع المتغيرة بسرعـة. وهذا ما نتج عنه تكريس جميع جهود الفئات المعنية لبلورة تصور جديد لبرامج الدكتوراه يتماشى مع حاجة المجتمع.

وتسهم مؤسسات الدولة الاتحادية أيضاً في الإعداد لبرامج الدكتـوراه، وتتعالـى الآن نداءات المسؤوليـة -التي ابتدأت فـي مؤسسـات التعليم الأساس والجامعـي- الموجهة إلى الجامعـات العامـة. فجميع من فيهـا مسؤول عـن الكفاءة النوعية لبرامج الدكتوراه وعـن استثمار أموال الدولة فيما يعود عليها بالنفع المماثل، وتغلق الهيئات الحكومية البرامج التي أثبتت عـدم جدواها، وتخفـض المخصصات المالية لبرامج الدكتوراه بما يتناسب مـع المردود الملموس منها، وتصدر التوصيات بافتتاح أبواب تخصص تخدم المجتمع، وتعديل وتطوير أخرى، ومراعاة الموازنة بين العمق واتساع معرفة حامل الدكتوراه ومهارته.

ربط فروع المعرفة وربط حقولها

ومن أبـرز التوجهات الآن فـي برامج الدكتـوراه الأمريكية المبادرات والبرامج الجامعة بين فروع مختلفة من المعرفة. وتلاقي هذه المبادرات دعماً مـن جميع الجهات الحكومية

ليست هناك جامعات.. هناك جامعيون

سـأل سائـل صديقـاً لـه عن معنـى نيله شهادة الدكتـوراه قائـلاً: «هـل قيمـة هـذه الشهادة بنفسهـا أم بحاملها أم بالمؤسسـة الجامعية التي أعطتها؟».

واحتـار الصديـق، فـي الجـواب لأن السـؤال وُضـع بصيغـة تفضيل أحد الأجوبـة المحتملة الأخـرى. إلا أنـه تنبَّـه فـي نهايـة الأمـر إلـى أن الجـواب «مركَّـب وغيـر بسيـط». فالشهـادة العلميـة العاليـة مهمـة بنفسهـا؛ لأنهـا بمثابة إعـلان بأن حاملها قـد حصل على درجة علمية فـي مـادة أكاديميـة، فـي العلـوم أو الآداب، بعد سنـوات طويلـة مـن الجهد الـذي يجعلـه قادراً على مناقشة ما ينشر عن هذه المادة، وتقييمه ونقـده والاستفادة منـه. أو أن هذا ما يجب أن يكون.

كـمـا أن الـدكـتـوراه مهمـة بحاملها أيضـاً فلـيـس كـل الـحـاصـلـيـن عـلـى الـدرجـة الـعـلـمـيـة نفسها سواسية في العلم.



فهناك الذي يقف عند حدود ما تلقى لا يتقدَّم بعده قيد أُنملة، لأنه كان يبغي اللقب أكثر من لب الموضوعات التي درسها. وبهذا قال أحد الظرفاء «الدكتوراه هي بكوية العصر الحديث!».

وهنـاك من يـرى أن الدكتوراه -وإن كانت أعلى مرتبـة في سلم التعليم الجامعـي- فإنها أيضاً بدايـة لزيـادة البحث والتحصيـل. لأن مـا هو جديـد اليـوم قديـم غـداً. وأسئلـة الإنسانيـة، كالنهـر المتدفـق، لا تنقطـع جريانـاً وتغيـراً. والباحـث الجـاد يجد أجوبـة جديـدة ينتفع بها مجتمعـه والعالـم. لهـذا، فإن الذيـن حصلـوا علـى الدكتـوراه كثيـرون، لكن الذيـن برزوا في ميادين تخصصهـم قلائـل انتشـرت أسماؤهم واشتهرت لما بذلوا وجددوا.

أمـا أهميـة المؤسسـة التـي تمنـح الدكتـوراه فلا تنكـر. فالمؤسسـات التعليميـة تتفاوت في مستوى أساتذتها وقدراتها على توفير أساليب البحـوث وطرقهـا وأجوائهـا مـن مختبـرات ومكتبـات وتمويل لمستلزمـات البحث التي قد يحتـاج إليها الطالب. من هذا المنطلق يجرى ترتيـب أهميـة الجامعات في هـذا البلد أو ذاك ولا سيما في بلدان الغرب.

بالطبـع يتفاعـل عامـل اجتهـاد الطالـب مـع العامليـن الآخريـن بطرق مختلفة تُنتج دكتوراً باحثـاً لامعـاً أو عاديـاً. وليـس مـن شـك في أن للعامـل الذاتـي التأثيـر الأكبـر. لأن الطالـب الـذي يعمـل بجـد، ولـو فـي جامعـة متوسطـة القـدرات التعليميـة، قـادر علـى التفـوق علـى طالـب يعمل بطاقـة عادية في جامعـة مميزة. وهنـاك قول فرنسي بهذا المعنى: «ليست هناك جامعات.. هناك جامعيون!» أي أن المؤسسة لا تستطيـع أن تصنع بمفردهـا الطالب المتفوق، وإلا لكان جميع المتخرجين في جامعة هارفرد الأمريكيـة مثلاً، وهي أشهـر جامعة في العالم الآن، متفوقيـن ولامعيـن إلا أن الأمـر ليـس كذلـك بالتأكيـد. فالطالب هـو العامل الأساس بمـا يحمل مـن أسئلة وصبـر وذكاء وقدرة على استخـدام الجامعـة ومرافقهـا للتوصـل إلـى حلول جديدة في الحقل الذي ينتمي إليه.

والمهنية والأكاديمية. ومن الأمثلة على هذه البرامج، المحاولات الجادة لطالبة دكتوراه في مجال الهندسة العصبية -في جامعة إموري ومعهد جورجيا للتقنية- لصناعة خلايا عصبية محوسبة تُزرع عند الأشخاص المصابين بشلل دماغي فتمكِّنهم من المشي! ومثال آخر بسيط على الجمع بين المعارف المختلفة: «المصباح الضوء صوتي اليدوي» الذي يمكِّن الطبيب والممرض من الرؤية عبر جلد المريض عند حقن إبرة أو قطع جلد بمشرط. وتجمع أوجه التطبيق العملية بين العلوم الحيوية والطبية والهندسية والتقنية وغيرها وبين المتخصصين في هذه المجالات.

بات الممولون وأرباب العمل يتدخلون في برامج الدكتوراه، والتدريب من أبرز مطالبهم

وتجري الآن دراسات على أساليب تقنين ممارسات الربط بين العلوم المختلفة في برامج الدكتوراه. ومن هذه الممارسات تأليف باحِثَيْن رسالة دكتوراه بدلاً من واحد، وتعيين أكثر من مشرف في أبواب تخصص متنوعة لطالب الدكتوراه ونحو ذلك.

سوق العمل والدكتوراه

يجد حاملو الدكتوراه بشكل عام مجالات عمل مناسبة. ونسبة البطالة بينهم منخفضة وتبلغ 1.1%، وهي أقل من غيرهم ممن يحملون درجات علمية أدنى، ورواتبهم أعلى منهم إذ يبلغ المعدل السنوي 66000 دولار (2001م).

وتنقسم أنواع الوظائف لحاملي الدكتوراه إلى نوعين: وظائف أكاديمية، وغير أكاديمية. فالوظائف الأكاديمية مناصب تدريس أو إدارة أو كليهما في الجامعات والكليات، وهي ساحة تنافس تجذب شريحة كبيرة منهم، خصوصاً أصحاب أبواب التخصص الإنسانية والاجتماعية. أما الوظائف غير الأكاديمية، فهي أيضاً تستقطب شريحة واسعة منهم لا سيما ذوي التخصص العلمي والهندسي.

وتجري الولايات المتحدة دراسات لبحث أسباب بطالة 1.1% من حاملي الدكتوراه. فهذه النسبة تخص ذوي التخصص الدقيق جداً في برامج الدكتوراه، إذ لا يجد هؤلاء مكاناً وظيفياً مناسباً خارج نطاق الأكاديميات ومراكز البحث. ويعزى بعض الفائض إلى تخريج ما يزيد على حاجة السوق للاستفادة من طلاب الدكتوراه أثناء مكوثهم في الجامعات في مشاريع بحث ومهام تدريس.

الدكتوراه في المملكة المتحدة تركيز أكبر على المهارات

تحاول الجامعات البريطانية اللحاق بمثيلاتها الأمريكية في ساحة المنافسة العالمية، وتهتم بالتطوير النوعي للبرامج بتركيزها على التدريب واكتساب المهارات، والعناية برسالة البحث والمشرف والطالب، وإدخال معايير وطنية.

فقد أشار تقرير روبرتز (2002م) إلى أن تركيز برامج الدكتوراه على تحضير رسالة البحث أدى إلى الفشل في إدراك حاجة الطلاب إلى اكتساب نطاق واسع من المهارات، كذلك تشير فرص التوظيف المحدودة لخريجي الدكتوراه في المؤسسات الأكاديمية إلى الحاجة إلى تدريبهم على شغل مناصب متنوعة خارج نطاق الجامعات والكليات. ويتعزز توجه برامج الدكتوراه لتضمين التدريب واكتساب المهارات على نحو لا يقل أهمية عن رسالة البحث والمهارات المكتسبة منها. وهو أمر بدأ بالظهور في عدد من الدول الأوروبية إضافة إلى المملكة المتحدة، استجابة لنداء الجهات الممولة والموظفة التي تقول إن التدريب في هذه البرامج يجب أن يكون متماشياً ومتحسساً لحاجة السوق.

وتعاني الجامعات البريطانية عدم وجود أسس عامة لتوحيد أسلوب المناقشة الشفهية لرسالة الدكتوراه فيما بينها. فهناك اختلاف قد يصل إلى حد التناقض فيما يخص هدف هذه المناقشة وطرق تطبيقها، جعل هذه المناقشة تعد «اشتباكاً مرتباً» أكثر من نقاش موضوعي نزيه. وتشهد السنوات الأخيرة تغيراً بطيئاً فيما يخص تركيز المناقشة على اختبار مهارات البحث المكتسبة، ونمو شخصية الباحث المستقلة، وتطوير المهارات الأساسية للعمل في جهات غير أكاديمية عند هؤلاء الذين يشغلون مناصب خارج نطاق الجامعات والكليات.

وتوضع الآن دراسات بريطانية لنسب الإكمال والانسحاب من برامج الدكتوراه؛ لاتخاذها مؤشراً على كفاءة البرامج النوعية. وتشير الدراسات المحدودة في هذا الشأن إلى تنوع العوامل المؤثرة في انسحاب باحث الدكتوراه من البرنامج، فبعضها يعزى إلى سمات الطالب أو مشكلاته الشخصية، أو مشكلات متعلقة بالبحث ونوع الإشراف عليه، أو العوامل المادية، أو التخصص؛ مع لفت النظر إلى أن طلاب أبواب التخصص العلمية يميلون إلى الإكمال أكثر من غيرهم.

حلول البيروقراطية

نشرت «وكالة ضمان الجودة» (Quality Assurance Agency) (2001م) مستنداً يوضِّح أن حامل شهادة الدكتوراه يجب أن يكون قادراً على تصور مشاريع أصيلة وتصميمها وتنفيذها لتوليد معارف جديدة واستيعاب

أفضل للواقع، كذلك يجب أن يتمتع بالمهارات المطلوبة للتوظيف، والقدرات الإبداعية اللازمة لإصدار قرارات واعية وناضجة فيما يخص القضايا المعاصرة في مجال تخصصه.

وقد عيَّنت هذه الوكالة المؤهلات اللازمة لحامل الدكتوراه والمعايير الواجب توافرها في برنامج الدراسات العليا. وعلى الرغم من الترحيب بأهداف هذه المعايير الساعية لإحداث تطوير نوعي، يشير النقاد إلى حلول البيروقراطية لنظم التعليم العالي وفرض معايير خارجية قد لا تلائم الاختلاف النوعي بين أبواب تخصص الدكتوراه المختلفة.

جدير بالذكر أن تنوع درجات الدكتوراه في المملكة المتحدة يشكِّل استجابةً لحاجة المجتمع، فظهرت - على سبيل الذكر لا الحصر- أشكال مختلفة لبرامج الدكتوراه المهنية، وبرامج الدكتوراه المدمجة (Integrated PhD)؛ التي تسعى إلى جذب الأشخاص المميزين من مختلف دول العالم لما تحويه من رسالة بحث أصغر ومدة إكمال أقصر ورسوم دراسية أقل، إضافة إلى التدري والحلقات الدراسية في مجال التخصص.

سوق العمل الأوروبي والدكتوراه

بعد التخرج من الجامعات البريطانية إلى سوق العمل (حيث الإحصاءات المتوافرة عن توظيف حاملي الدكتوراه في الدول الأوروبية لا تزال محدودة) توظَّف نسب كبيرة من المتخرجين في مؤسسات التعليم العالي ومراكز الأبحاث، ونسبة أخرى كبيرة أيضاً تجد وظائف لها خارج القطاع الأكاديمي.

وعلى الرغم من أن توظيف حملة الدكتوراه في المؤسسات غير الأكاديمية أضاف قوة معرفية ومهنية إلى هذه المؤسسات، إلا أن الموظفِين فيها لا يتطلعون إلى مؤهلات علمية عالية بقدر ما تعنيهم مناسبة السمات والمهارات الشخصية لطبيعة العمل لديهم. لذا فإن حاملي الدكتوراه لا يجدون فرقاً بينهم وبين أصحاب البكالوريوس من ناحية الرواتب والأمن الوظيفي؛ إذ ان رواتبهم تكاد تتساوى، وقد تكون غير مرضية لهم في دول مثل فرنسا وهولندا والمملكة المتحدة.

تطوير هنا.. تجديد هناك.. توجهات تدريب.. نداءات المسؤولية.. معايير وطنية.. جسور معرفية.. آفاق متنوعة نابضة بالحياة، تدفعنا إلى دراسة واقع الدكتوراه في العالم العربي.. والسؤال لماذا هو متنح عن ساحة المنافسة والقوة العالمية.

3 عن «إشكالية الدكتوراه» في السعودية

أشرف إحسان فقيه*



في الوسط العربي عموماً، وفي السعودية والخليج خاصة، حيث تعدّ الألقاب عناصر مهمة في لعبة المكانة والنفوذ، يحظى لقب «الدكترة» بميزة خاصة لأنه جسر بين عالمين: العالم التقليدي القائم على الرتب القبَلية والاجتماعية، والعالم العصري بمفرداته الحداثية اللمّاعة.

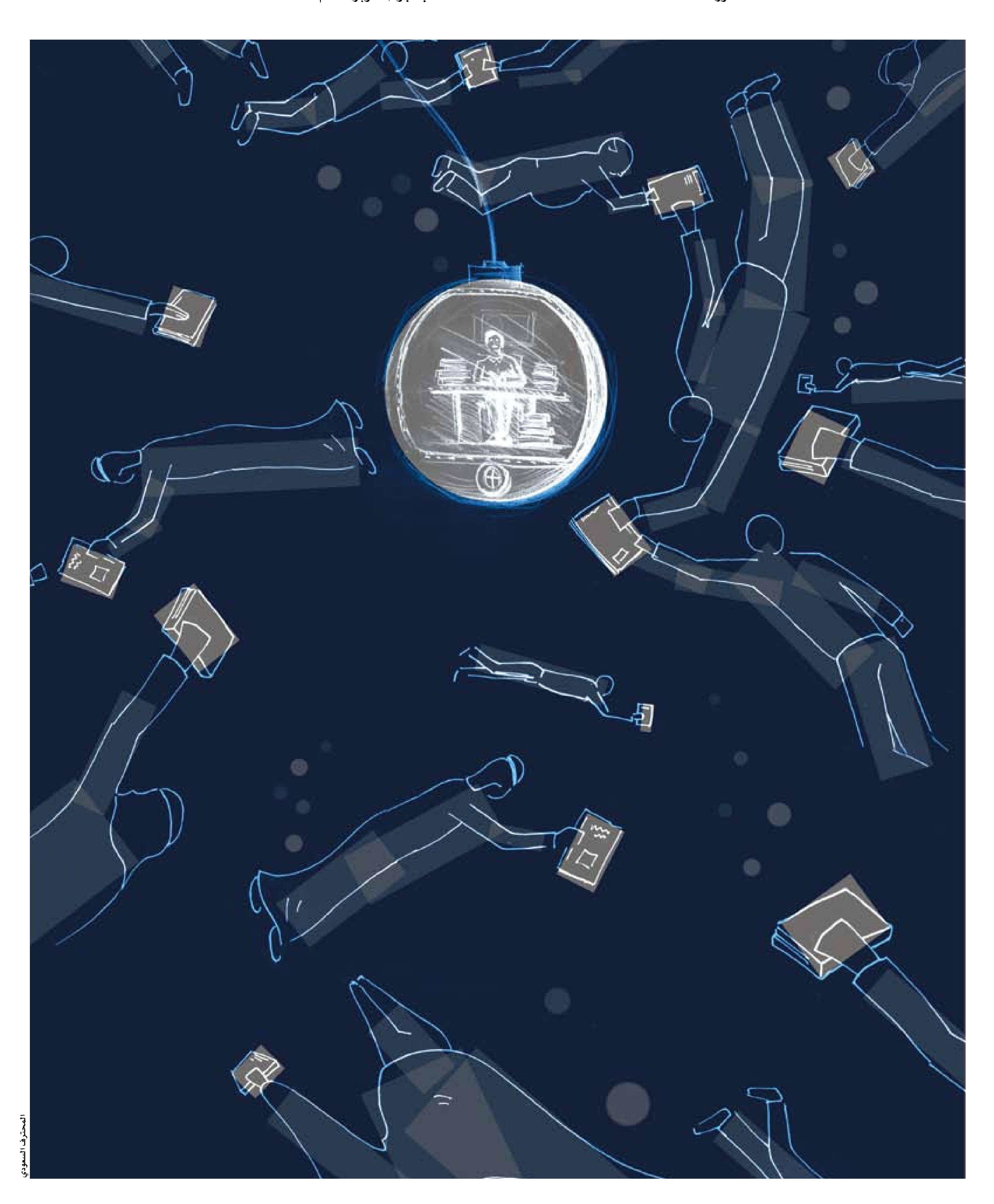
ولعل هذا هو مكمن الإشكالية. فاللقب الأكاديمي ليس مكرمة أُسبغت على صاحبها. بل هو شهادة إثبات لقيَم علمية واحترافية معينة. وفي الوسط المحلي، حيث لا تحظى القيَم العلمية ولا الاحترافية بحيّز تأثير واسع، جُيِّر هذا اللقب لصالح القيمة الفخرية التي يُضمرها؛ ليغدو مثله مثل ألفاظ شيخ وباشا.

* محاضر في كلية علوم وهندسة الحاسب الآلي، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

لمشكلة «الدكتور» في القاموس المحلي وجه آخر أيضاً. فبقدر ما يُجل نصف المجتمع حامل هذا اللقب «الفانتازي» ويتوقَّع منه الخوارق، فإن النصف الآخر لا يربطه إلا بالعبثية وبالإيغال في التفلسف. وهي نظرة تستند إلى صور نمطية خاصة بالمشتغلين في القطاع الأكاديمي، وإلى واقع تنموي غير مُرضٍ غذّته علاقة غير مكتملة الملامح بين المثقف الأكاديمي من جهة، وبقية شرائح المجتمع من جهة أخرى.

جذور إشكالية الدكتور

لم يعرف المجتمع السعودي الدرجات العلمية العليا إلا متأخراً. فيما تأسست أولى جامعات المملكة أواخر الخمسينيات الميلادية. لكن هذا الفقر الأكاديمي لم يلبث أن انقلب تماماً خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات التي شهدت طفرة حقيقية في عدد الجامعيين وفي



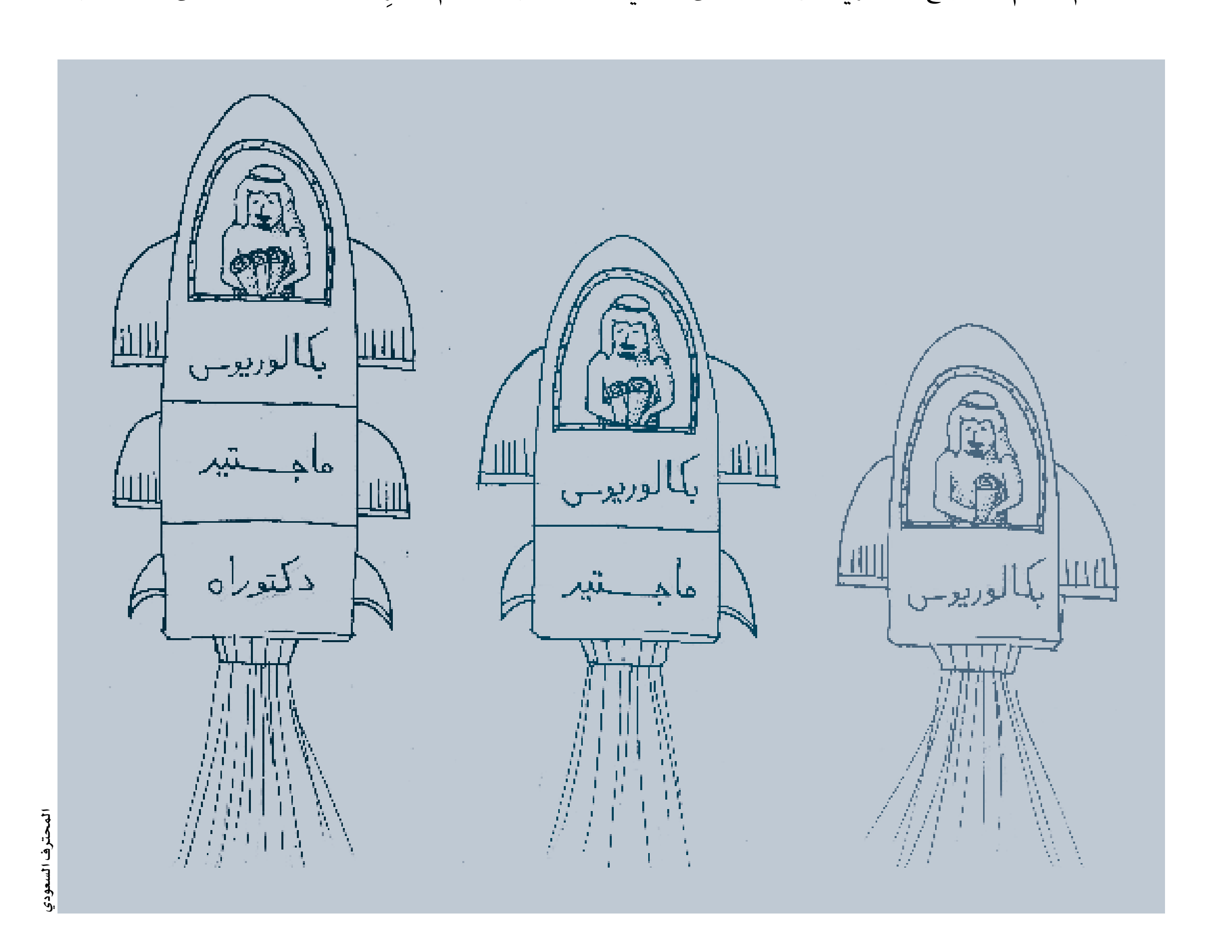
برامـج الابتعاث للجامعـات الغربيـة. وإذا لاحظنا أن هذه الطفـرة الأكاديمية قد تزامنت تماماً مـع الطفرة النفطية والاقتصاديـة التي شهدتها البلاد، وسعنـا أن نفهم طبيعة الظـرف الاجتماعي الذي رافـق نشوء الأجيـال التالية من الأكاديميين السعوديين.

وقـد سوَّغ التوسع المباغت في النشاط التنموي الحاجة إلى الكفـاءات الجامعية، وهو ما لم تتأخر الدولة في دعمه عبر البعثـات، وعبر خلق القنوات الرسمية الرافدة له في صيغة عـدد من الجامعـات الحكومية (سبع جامعـات كبيرة حتى العام 2000م).

إلا أن هـذه المكونات المحـدودة مثّلت، مـع الأسف، كامل دورة الحياة الأكاديمية في المملكة. فالتأثير الأكاديمي ظل محصـوراً بين جدران الجامعات، وهذه انحصرت علاقتها بالجمهور في حدها الأدنى (مَنح شهادة البكالوريوس) دون أن تصبح الدراسة العليا -المحلية- هماً حقيقياً للجانبين. كذلـك لم يتقدم المشروع التنمـوي على الصعيدين العلمي والإنسانـي، ليُمكّن العائدين مـن بعثاتهم من نقل خبراتهم إلى المجتمع على النحو الأمثل.

في ضـوء هذه الظـروف وسواهـا، تكوَّنت ثقافـة أكاديمية محلية قائمة على ما يمكن تسميته الحد الأدنى من الإنجاز. مظاهـر هذه الثقافة يمكن تلخيصهـا من المنظور الفردي في المسار التالي: الالتحاق بعضوية هيئة التدريس بجامعة محليـة، الحصول على بعثـة للدراسة بالخـارج، الحصول علـى درجة علمية ومن ثم العودة دكتـوراً للوطن والاشتغال بالتدريس وبشيء من البحث العلمي.. أو ربما الاستغناء عن الوسط الأكاديمي بالكلية.

للتصوّر أعلاه استثناءات وفروع عديدة، بالذات فيما يتعلق بتجـارب ابتعـاث الشركات الكبـرى مثلاً وغيـر المرتبطة بالمـلاك الأكاديمـي الرسمـي. إلا أن هـذا التصـور يظل منطبقاً على الكثرة الساحقة من الحالات ما يسوّغ اعتداده سياقـاً عامـاً للتقييـم. وهو يمثّل قاعـدة مناسبـة لدراسة الظاهـرة لأنه لم يحـوِ -عمداً- تفاصيل عـن نقل التجربة



المحترف السعودي

الحضارية من الغرب، ولا تطور البحث العلمي الوطني، ولا علاقة جامعاتنا بباقي مؤسسات المجتمع.. وهي كلها شجون أساسية لهذا الحديث.

على من نُلقي باللائمة؟

بين رباعية الأكاديمي-الجامعة-الدولة-والمجتمع، تتوزع التهم المتعلقة بالدور الضائع عند الدكتور.

يشجِّع النظام الأكاديمي في صيغته الحاضرة على بذل الحد الأدنى من العطاء، ونجاح الدكتور مرتبط بنشاطه الاستشاري وصلاته

فالجامعات متهمة بالانشغال بمشكلاتها والاكتفاء بدور المورِّد للشهادات الأولية على حساب برامج الدراسات العليا ودعم البحث العلمي والتواصل مع المؤسسات الإبداعية والشعبية. الأكاديميون من جهتهم متهمون بتقمص دور الضحية فيما هم المحركون الحقيقيون للقطاع الجامعي والمطالَبون أصلاً بتغيير النظام الجامد المتهم، من قبلهم، بقتل الإبداع وتثبيط جهود المميزين منهم. هناك شريحة عريضة من هؤلاء متهمة بالانحدار بمستوى التدريس الجامعي وبتشويه صورة القطاع الأكاديمي كله في أعين العامة.

القطاعات الصناعية والتنموية متهمة بأنها قد قصرت عن دورها ولم توفِّر بيئات تطوير حقيقية تنهض بالمجهود الأكاديمي الخام وتوفِّر له مجالات تطبيق وتسويق على غرار وادي السليكون.. مثلاً. كذلك لم تخلق أجواء تنافس للمؤهلين أكاديمياً الذين فوجئوا بالبون الشاسع بين بيئات البحث في أوطانهم وتلك حيث تحصلوا على شهاداتهم.

المجتمع كله أيضاً متهم بأنه رفض معايير الحداثة التي عاد بها المبتعثون وأنه قد استعصى على ثقافات الاحترافية والعملية التي حاول أن يرسِّخها به هؤلاء.. ليستسلموا في نهاية المطاف ويصبحوا جزءاً من المنظومة القائمة على معايير شخصية وأُسرية في المقام الأول.

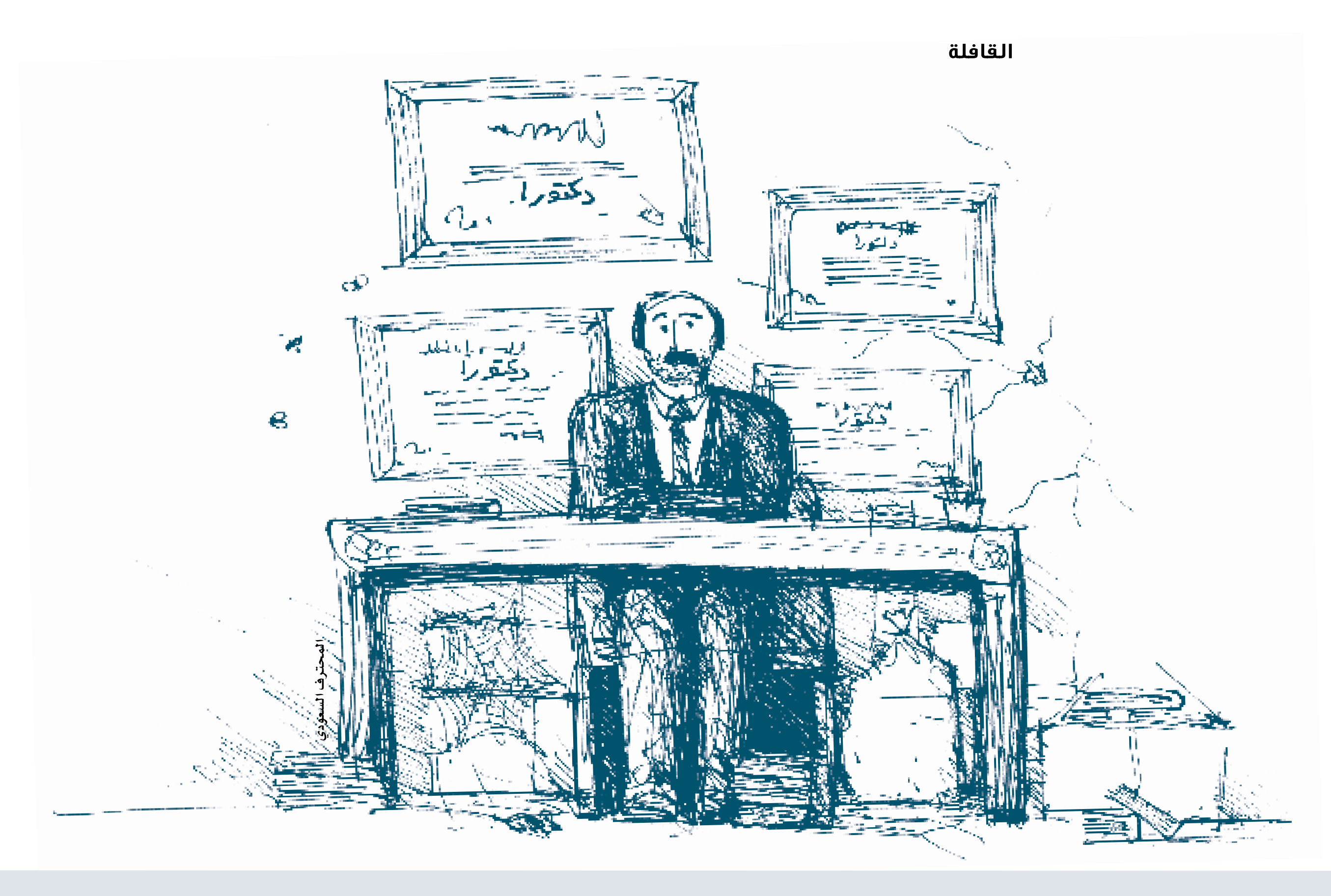
بين هذه التهم المتبادلة هنا وهناك تبرز حقائق لا مفر من مواجهتها. أولها كون النظام الأكاديمي في صيغته الحاضرة مشجعاً فعلاً على بذل الحد الأدنى من العطاء. نجاح الدكتور مقترن في الغالب بنشاطه «الاستشاري» وصِلاته الخاصة لكن ليس بالضرورة بمدى تميز نشاطه البحثي وجدِّه. هذه حقيقة معروفة عبر الامتداد العربي بأسره وليست المملكة استثناءً له. وفي الحالة السعودية بالذات، الدكتور السعودي لن يجد من يحاسبه لو لم تنشر له أية ورقة علمية طول سنوات. ثمة تقاعس غالباً ما يعزى إلى الغرق في مشاغل التدريس، أو المهام الإدارية داخل الجامعة، أو حتى الانشغال -عياناً بياناً- بتحسين مستوى الدخل الذي لا ينصفه العمل الأكاديمي.. كما يؤكد الأكاديميون.

ثمة حقيقة أخرى جديرة بالملاحظة. فالأكاديميون السعوديون، الذين يتلقّى بعضهم تعليماً مميزاً في أفضل جامعات الغرب الصناعي، سرعان ما يجدون أنفسهم «مؤهلين فوق الحاجة» في مجتمعاتهم غير الصناعية حيث لا ينشئ اقتصاد المعرفة علامات فارقة في المشهد المحلي. وهي ملاحظة تنطبق كذلك على مستوى التدريس الذي يقدمه هؤلاء لطلبتهم. هذه الحقيقة تدفع بعدد متزايد من دارسي الشهادات العليا إلى اعتماد نظرة أكثر واقعية. فلماذا المعاناة مع جامعة أمريكية من الصف الأول؛ طالما الأمر لا يعدو إضافة سابقة «د.» للاسم.. بغض النظر عن مصدرها؟!

لنتكلم عن (المثقَّف) عموماً

كل الكلام أعلاه وإن جرى تعميمه على كامل التجربة الأكاديمية، إلا أنه يركّز في الواقع على الجانب العلمي من هذه التجربة. إذ ان هنالك أكاديميين غير معنيين بهموم الصناعة والتكنولوجيا. هؤلاء متخصصون في الشأن الإنساني.. مفكرون وأدباء وقانونيون وفقهاء. وهم في صميم الإشكالية المطروحة هنا. فالأكاديمي ذو التخصص الأدبي -كما في العرف الشعبي- وغالباً ما يستحوذ على لقب المثقَّف أيضاً، أقرب إلى مواجهة الجمهور والتعاطي معه من نظيره العلمي، بحكم طبيعة تخصصه وطبيعة الاهتمام المحلي. وفي بيئة حساسة تجاه موروثها الفكري والاجتماعي كما هي بيئة الجزيرة العربية، فإن الصدام بين التقليدي والحداثي كان أشد قسوة عما في الباقي العربي. الدارسون الذين عادوا من الخارج محملين بمجموعة من الطروحات والأفكار الحديثة، واجهوا صعوبة في تداول هذه الأفكار والتبشير بها، حتى على الصعيد الأكاديمي البحت.

هذا الصدام بين التقليدي والحداثي كانت له نتائج مهمة عبر المجتمع بأسره. فهو رسَّخ أولاً نظرة اشتباهية بالمثقَّف-الأكاديمي-الدكتور، أياً كان تخصصه في مقابل الشيخ التقليدي المستند لمصفوفة فكرية وتراثية شديدة التجذر بالوعي الشعبي. كذلك خلط هذا الصدام توزيع



اقرأ للدكتوراه

نحن البحَّاثة

من السير بموازاة المجتمع إلى التفاعل معه

معظم الكتب التي تتناول الحديث عن الجامعات والمشكلات التي تعترضها غالباً ما تتحدّث عن الميول السياسية عند الأساتذة الذين يدرّسون فيها، ومصادر تمويل الأبحاث التي يقومون بها، ومدى تأثيرها في مسار تلك الأبحاث ونتائجها، والمعايير التي يعتمدون عليها في اختيار الكتب والمراجع التي يتبعونها في المواد التي يدرّسونها. إلا أن كتاب: «نحن الأكاديميون: تغيير ثقافة الجامعة» للكاتب دايفيد دامروش يتناول فكرة هيكل البناء الأكاديمي والمشكلات التي تعتريه. ومن أهم هذه المشكلات، تلك الناتجة من التخصص الزائد الذي يسود معظم الجامعات في أيامنا الحاضرة ومشكلة العزلة عن المجتمع الذي يحيط بها.

تكوّن شكل الجامعات الأمريكية الجديد خلال نحو 20 سنة، بين أوائل 1870م حتى منتصف 1890م. في ذلك الوقت، ظهرت أبواب التخصص المتعدّدة، وظهرت معها بيروقراطية الحياة الأكاديمية الجديدة. فالتخصصية أو التخصص الزائد كان نتيجة الثورة الصناعية التي حدثت آنذاك. إذ استدعى ظهورها إعادة ترتيب المواد التي تدرّس في الجامعات وجمعها، لتشكّل كلّ مجموعة منها اختصاصاً معيناً يعبّر عن متطلّبات الصناعة الجديدة. كذلك تطلّب الأمر استحداث مواد جديدة لم تكن تُدرَّس من قبل. فبدأ الأساتذة الجامعيون يتحدثون عن «إنتاج المعلومات» بدلاً من الحديث عن «الحفاظ على التراث». وهكذا، تمايزت أبواب الاختصاص المختلفة بفصلها بعضها عن الآخر وإنشاء الدوائر الأكاديمية المختلفة. واستوجبت إدارة تلك الدوائر وجود بيروقراطية معينة تعمل على إدارتها.

ومع بداية القرن العشرين ومع زيادة الاهتمام بالبحاثة الأكاديميين واعتمادهم مستشارين وزيادة تمويلهم لدى الحكومات والمؤسسات المدنية، ومع توسع النظام الأكاديمي، بدأ عدد كبير من المثقفين من الكتّاب والمهتمين بالاستراتيجيات الدفاعية، بالالتحاق بالجامعات المختلفة، خاصة في الغرب. وهكذا، أخذت المشكلات العامة تجد لها حلولاً عند البحاثة الأكاديميين داخل حرم الجامعات أكثر من المثقفين المستقلين الذين كانوا يموّلون أنفسهم من خلال مداخيل خاصة أو من خلال الكتابة الحرّة.

إلا أن «هجرة» العقول إلى الحياة الأكاديمية كان لها ثمن. إذ انها تحد معالجة المشكلات العامة لأن هذه العقول تصبح محدودة بالتخصص الزائد في الجامعات، وهذا يفرض عزلة ما تحدّ تبادل الخبرات والدراسات والمعلومات فيما بينها وينشئ حاجزاً معيناً مع المجتمع الذي يحيط بها. وبالتالي، لا تكون الحلول الشاملة والشافية لمشكلات المجتمع المختلفة متوافرة.. بالإضافة إلى ذلك، أضرَّ هذا التخصص بالمجتمع المحيط بالحرم الجامعي.

وقد لاحظ العالم الأمريكي جون دوي منذ عام 1916م في كتابه «الديمقراطية والتعليم» أن التجزئة المتزايدة في البرامج الأكاديمية

الأدوار بين هذه الرموز وأدى إلى ظهور تصنيفات اعتباطية قسّمت المدارس الفكرية، عبر عدة انتماءات إيديولوجية، دون أسس واضحة في الحالة السعودية بالذات.

أدى هذا الصدام كذلك إلى إضعاف نفوذ «الأكاديميا» التي علِق أصحابها في معارك جانبية مع مناوئيهم. وإلى «أدلجة» خطوط التواصل بين المثقَّف عموماً من جهة، ورجل الشارع العادي من جهة أخرى، وأثر في مستوى الوعي الفكري في المجتمع السعودي وفي المنتج الثقافي السعودي أيضاً.

أسئلة أخرى مفتوحة

هموم الدكتور السعودي تبدو أكثر من أن تحويها هذه المساحة. وهناك أسئلة وملاحظات أكثر تنتظر الطرح. فالتعلل برفض المجتمع لقيم الحضارة الوافدة مع الدارسين الأكاديميين لا يلبث أن تكسّره مظاهر التغريب الواضحة في شوارع المدن السعودية وخلف أبواب منازلها. الأكاديميون ليسوا وحدهم سفراء أوطانهم في الغرب. لماذا إذن تُعلق بأعناقهم هم مسؤولية نقل صورتنا الإيجابية للغرب؟ ولماذا يتحملون هم وزر الصورة الشائهة للسعودي هناك؟

وإذا كان «التكنوقراط» قد تحصلوا أخيراً فقط خلال العقد الأخير على فرصتهم في إدارة التجربة التنموية المثقلة بأخطاء الماضي، فهل يسعنا أن ننتظر أكثر نتائج تجربتهم؟ أم ان على هؤلاء أن يتوقفوا عن لعب دور «جوكر» المناصب ويزدادوا انغماساً في عوالمهم الأكاديمية ليقيلوها من عثراتها الذاتية؟ هل سيستمر المجتمع بالتطلع بشك وريبة للمثقف الأكاديمي على أساس أن ما يصدر عنه هو «كلام كتب» لا يناسب واقعنا ذي الخصوصية الفريدة؟ أم ان أكاديميينا يمتلكون عن حق حلولاً سحرية لإشكاليات المجتمع؟.. حلولاً تليق بالهالات المهيبة التي تحيط بهم وبألقابهم وشهاداتهم المؤطرة القادمة من عوالم ما وراء البحار!

أدت إلى «عزلة المجموعات الاجتماعية في المجتمع العصري». إذ ان المجتمع المعاصر يبرع في التخصص والفردية ويسوده منطق ثقافي معروف بميله إلى بناء هوية المجموعات من خلال الاهتمامات الفردية والخلفية الثقافية المشتركة. وتسهم هذه المسألة في إضعاف المجتمع، إذ تحد انفتاح بعضه على بعض وتخلق الكثير من المشكلات الاجتماعية.

أما اليوم فتقع المؤسسات الأكاديمية، وكذلك المؤسسات العامة، تحت ضغوط نتيجة تدفق المعلومات والترابط السياسي والمادي الناتج من العولمة بين المجتمعات المختلفة. لذلك، ضروري إقامة الإصلاحات الإدارية في الدوائر المختصة وتوجيه الأكاديميين إلى العمل بطريقة منفتحة، تمكّن من معالجة الأمور والمسائل العامة بطريقة أفضل.

وأول خطوة في الإصلاح الأكاديمي وأهمها هي إعادة تقويم المجموعة البحثية الأكاديمية وإعادة فهمها. فهذه الصورة السائدة عند الأكاديميين أن العزلة والتقوقع بعيداً عن المجتمع تساعد في صفاء الذهن وابتداع الأفكار الخلاَّقة، والمقولات السائدة بينهم مثل «أنه لا يمكن لمجموعة من الأشخاص أن تمسك قلماً واحداً» وأن «كل الأفكار المهمة تنبثق من عقل واحد لا من عدة عقول».. كلها أفكار تعزز الانعزال والبعد عن المشاركة الفكرية العامة. وفي هذا الصدد تقول البحاثة ماري دوغلاس: نحن لا نريد أن نكون مثل جهاز الحاسوب الذي لا يستطيع أن يعمل إلا من منظور البرنامج الموضوع فيه.. أملنا أن يكون لدينا الاستقلال الفكري لمواجهة أية حواجز يمكن أن تحد تفكيرنا. وأول خطوة في ذلك هي اكتشاف كيف أن قبضة المؤسسات، التي أصبحنا جزءاً منها، أسهمت وتسهم في خنق عقولنا. إذ كيف تكون لنا نظريات شافية ووافية في علم الاقتصاد إن لم يكن لدينا الاطلاع الكامل على العلوم السياسية، وكيف يمكننا الغوص في عالم الطب إذا لم تكن عندنا الدراية الكاملة بالعلوم النفسية وهكذا.

هذا عن الانفتاح ضمن المجموعة الأكاديمية في الجامعات المختلفة. أما عن العلاقة مع المجتمع الخارجي، فيجب ألاّ تسير المجموعة الأكاديمية بطريقة موازية للمجتمع وإنما بطريقة تتفاعل معه. فمثلاً، تفاعلت الجامعات مع متطلبات المجتمع مثل التركيز على لغة الحاسوب أكثر بكثير من التركيز على تعليم اللغة اللاتينية مثلاً التي كانت مطلوبة سابقاً في معظم أبواب الاختصاص. لكن هذه الدينامية لا تعني استجابة الجامعات لكلّ متطلبات المجتمع الاستهلاكي الذي لا يعير اهتماماً كبيراً لدراسة أنواع الثقافة المختلفة مثل تاريخ الحضارات، لأن ذلك يُفقد الجامعة دورها الذي يجب أن تلعبه في تثقيف المجتمع وتطويره.

إذن المطلوب هو الاعتراف بضرورة التخصص لأننا لا نستطيع أن ننكر أن هذا التخصص أسهم في خلق نظام ناجح جداً للتعليم العالي، إلا أن علينا استخدام هذا النظام بطريقة تسمح بالتفاعل والانفتاح ما بين أبواب الاختصاص المختلفة وما بين المجتمع الأكاديمي البحثي والمجتمع كله لأن ذلك يساعد في تقديم الحلول الشاملة التي تواجه أي مجتمع.

مهى قمر الدين

قول في مقال

تحت سطح المدينة «الآمنة»

عطفاً على موضوع «الأمان الاجتماعي في المدن العربية» الذي نشرته «القافلة» في العدد السابق، تعرض الكاتبة المصرية داليا يوسف وجهة نظر مغايرة، وإن كانت لا تصل إلى حد نقض ما نُشِر، فإنها تحذِّر من الإغراق في الاطمئنان إلى حال الأمان الاجتماعي، لأن ثمة ما يهدِّده فعلاً.

أفزعني صراخ سيدة جاء صوتها مستغيثاً في شارعنا المظلم ليلاً.. هرعت إلى الشرفة لأجدها تبكي وتشكو الرجل الذي خطف حقيبتها وهو على دراجة بخارية.. حتى الآن تبدو لقطة عادية ومتكررة ولكن اللافت أن شارعين يفصلاننا عن وزارة الداخلية المصرية على الأكثر!!

والحق أنني أثناء التحضير للكتابة عن مفهوم الأمن ومظاهره في بلد كمصر قفز إلى ذهني أنني أستطيع أن أعقد مقارنة بسيطة بين مشاهد لاحقتنا الشهور الماضية.

فقد كان وسط البلد مسرحاً لأحداث التحرش الجماعي التي تعرضت لها مجموعة من الفتيات والسيدات المصريات، وكان المتحرشون عدد من المراهقين والشبَّان أمام إحدى دور السينما في أكتوبر 2006م. وسبق ذلك في مايو 2005م أحداث تحرش بالصحافيات المصريات أثناء إحدى تظاهرات القوى المعارضة في مصر. أما حي السيدة زينب المتاخم لنا فشهدت إحدى مناطقه العشواء (قلعة الكبش) حريقاً هائلاً في مارس 2007م دمَّر جانباً كبيراً من بيوت وعشش ساكنيه، ولا تزال المواجهة مستمرة بين أهالي هذه المنطقة والمحافظة المسؤولة عن إعادة تسكينهم ضمن مسعى شَابَهُ الكثير من الفوضى وشبهة التربح ولن أنسى وجوه أبناء هذه المنطقة الغاضبة اليائسة وقد صورتها عدسة الصحافية أمل فوزي في فِلم تسجيلي عنوانه «ولاد الكبش».

ما زلنا نستطيع السير

رغم أن ما ذكرت قد يبعث على التشاؤم والحزن إلا أننا ما زلنا نستطيع السير في شوارع مصر آمنين.. ما زلنا نمارس نشاطنا ليلاً ونهاراً من دون تهديد ظاهر للعيان.. ولكن الثقوب التي تزداد اتساعاً يوماً بعد الآخر تستوجب القلق والحرص على الرصد والتحليل. والمشاهد التي ذكرتها تلخِّص ظواهر معقَّدة تضرب في عمق الشارع المصري وتهدِّد شعوره بالأمن.

فور الحديث عن مسألة الأمان ونسب الجريمة يتبادر إلى الذهن أنماط المعيشة في المجتمعات الغربية وغياب الشعور بالأمان إلى حد ما، مع تعقد أشكال الجريمة وعنفها الشديد هناك وبالتالي تظل نتيجة المقارنة في هذا الشأن لصالح مجتمعات مثل المجتمع المصري والعربي بصفة عامة. ولهذا الأمر أسبابه وملابساته التي يجدر التوقف عندها قليلاً، أولها أن الضامن الحقيقي الذي يحفظ توازن الفرد ويؤهله للحركة في محيط أوسع هو ما يعرف بالجماعات الاجتماعية وعلى رأسها الأسرة ويرافقها في ذلك معاهد التعليم ودور العبادة والأصدقاء والنوادي وجماعات النشاط والنقابات وغيرها، ويبدو بصورة لا تحتاج لكثير من الإثبات أن الفردانية في المجتمعات الغربية سادت على نحو تسبب في تفتيت أهم هذه الدوائر وهي الأسرة أو لنكن أدق عبر القول بأنه أضعف تأثيرها. ورغم أن أغلب أنظمة الدول الغربية يعتمد على إمداد مواطنيها بالخدمات (التعليم، الصحة، السكن...) والتي قد تصل أحياناً إلى حد الرفاهية إلا أن هشاشة البنى الاجتماعية في هذه المجتمعات سمحت بتنامي شكل من العنف والقسوة والتشوه النفسي قد تصادف

ما يحوِّلها إلى أنماط من الجريمة المنظَّمة والمهدِّدة لأمن البشر. فإذا ما نظرنا إلى المجتمع المصري الآن فسنجد أن كثيراً من الجماعات التي كانت تضمن تنمية الفرد وإدماجه بصورة تؤهله للقيام بأدواره الاجتماعية المختلفة قد تآكلت ولا سيما ما يتعلق بالتعليم وجماعات النشاط السياسي والثقافي بل الأسرة الممتدة.

الأسرة المصرية: وحدها في المواجهة

تزامن تآكل أدوار هذه الجماعات وخسارة عافيتها الاجتماعية مع ميل الدولة إلى الانسحاب من دعم خدمات التعليم والصحة وغيرها ومحاولة الانتقال إلى نظام السوق المفتوحة وسياسة الخصخصة، حدث ذلك لتترك الأسرة الصغيرة (أو النواة) وحيدة في مواجهة ضغوط عدة، وتقوم بأغلب الواجبات دون تسهيل حقيقي لتمارس دورها. وهذا ما أدى إلى إفراز ظاهرة من أخطر ما يهدِّد الأمن الاجتماعي في مصر وهي «أطفال الشوارع».. فالأسر التي ضاقت بها سبل الرزق رفعت الراية البيضاء وأعلنت تسليم أبنائها نهباً للشوارع.. وتتعقد ظاهرة «أطفال الشوارع» لتصبح عالماً موازياً له قوانينه ونظمه القاسية التي تجلَّت في قضية «عصابة التوربيني» حيث أخذ عدد من المراهقين والأطفال من أبناء الظاهرة في الاعتداء الجنسي وقتل مواطني عالمهم الموازي أي أطفال شوارع مثلهم. وتتحدث الدراسات عن ألوف من هؤلاء الأطفال، والمذهل أننا بصدد التعامل مع جيل ثان وثالث منهم عبر علاقات وزيجات فوضى فيما بينهم.

يرافق مظاهر الخلل الاجتماعي ونتيجته في «أطفال الشوارع» خلل عمراني مع وجود أحزمة عشواء تلتف حول المدن في مصر، ويرجع تاريخ معظم العشش السكنية القديمة إلى بداية الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، وما زال عدد كبير منها يجاهد في البقاء بجوار الأبراج السكنية العصرية الضخمة، والمباني الإدارية الشاهقة.

عشوائية المكان والإنسان

ولا تقتصر المشكلة هنا على الشكل العمراني أو تأثر الأحياء المتاخمة للعشوائيات وإنما تتجاوز ذلك إلى أزمة مكتملة الملامح أصبحت أكبر بكثير من القدرات البشرية لدى أجهزة الأمن بسبب ضيق شوارعها وتلاصق مبانيها على نحو يحول دون دخول سيارات الشرطة والإطفاء والإسعاف. وكشفت دراسة لمركز بحوث الإسكان والبناء والتخطيط العمراني عن الإسكان الفوضوي أن 18% من الأسر المصرية تعيش في غرف مشتركة وأن معدل التكدس يبلغ 7 أفراد في غرفة واحدة في المناطق العشواء، فضلاً عن اشتراك عشرات الأسر في دورة مياه واحدة ويعني هذا غياب سياسة واضحة للإسكان. وتذكر الدكتورة ضحى عبدالغفار أستاذة الاجتماع بكلية البنات في جامعة عين شمس في دراسة لها أن مصر تضم 434 منطقة عشواء، وتختص القاهرة وحدها بـ 88 منطقة يسكنها نحو 50% من سكان القاهرة المراوح تعدادهم بين 17 و 19 مليون نسمة بحسب الإحصاءات الخاصة لعام 2004/2005م.

وفي الوقت نفسه فإن الرهان على قدرة المصريين على التكيف مع أوضاع المعيشة الصعبة لعبة خطرة إذ أوضحت الخبيرة في علم النفس، الدكتورة إيمان شريف، أن الإنسان المصري بطبيعته يتكيف مع أية ظروف يعيش فيها منذ القدم ولكن مع تطور الحياة والتقدم والمتغيرات الاجتماعية التي يمر بها المجتمع يحدث تغير في سلوك الأفراد. وأشارت إلى أن هناك من يتكيف مع وضعه القائم لأنه لا يجد بديلاً منه ولكن البعض الآخر يظهر تمرده على وضعه في سلوك خطر تجاه المجتمع. وأوضحت أن ذلك أدى إلى تحول هذه المناطق إلى وكر للعصابات الإجرامية ومراكز لتجارة المخدرات والسلاح.

الأمن إنساني أيضاً

يؤكد تقرير صدر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي عام 1999م وعنوانه «عولمة ذات وجه إنساني» أن على الرغم مما تقدِّمه العولمة من فرص هائلة للتقدم البشري في كل المجالات نظراً لسرعة انتقال المعرفة وانتقال التكنولوجيا الحديثة وحرية انتقال السلع والخدمات، فإنها في المقابل تفرض مخاطر هائلة على الأمن البشري في القرن الحادي والعشرين، وهذه المخاطر ستصيب الأفراد في الدول الغنية والفقيرة على السواء. وقد صنَّف التقرير تحديات أساسية تهدِّد الأمن الإنساني في عصر العولمة من أهمها:

- غياب الأمان الوظيفي وعدم استقرار الدخل: إذ دفعت سياسة المنافسة العالمية بالحكومات والموظفين إلى اتباع سياسات وظيفية أكثر مرونة تتسم بغياب أي عقود أو ضمانات وظيفية؛ ويترتب على هذا غياب الاستقرار الوظيفي.
- غياب الأمان الثقافي: إذ تقوم العولمة على امتزاج الثقافات وانتقال الأفكار والمعرفة بطريقة غير متكافئة من الدول الغنية إلى الدول الفقيرة، وفي أحيان كثيرة تفرض الأفكار والثقافات الوافدة تهديداً على القيم الثقافية المحلية.

فالعالم كله يعاني فيما يتعلق بمدى الشعور بالأمن ولكن في بعض المجتمعات خاصة الغربية المؤسسات والمسارات التي تذيب المشكلات، وتعمل نظم الشفافية والمراقبة والمحاسبة في محاصرة الجريمة والتهديد الأمني على قسوتها. أما في مجتمعاتنا فبدأنا في دفع ضريبة كوننا في مدن تتعولم ولكنها لا تجد سبيلاً لحل مشكلاتها.

التلزيم

شركات توكِّل وشركات تتعهد





مع تقدم الصناعة في العالم، ظهر منذ سنوات في المحافل الصناعية والاقتصادية، مفهوم يعمّق فكرة التخصص في صنع السلع أو توفير الخدمات، هو التلزيم (Outsourcing). ففي الماضي، كانت الشركات التي تريد صنع ملابس مثلاً، تصنع كل شيء: من حياكة القماش، إلى صنع الأزرار، إلى التصميم فالقص فالتفصيل والخياطة، لتخرج السلعة إلى المستهلك، من مكان واحد.

اليوم مع مفهوم التلزيم تبدل الأمر تماماً. ومثلما صارت العائلات «تعطي خبزها للخباز»، كما يقال، بعدما كانت هي التي تعجن وتخبز، هكذا صارت الشركات توكل إلى شركات أخرى متخصصة التزام كثير من أعمالها أو خدماتها. في شرح هذا الموضوع وتوسعه في دنيا الأعمال في السنوات الأخيرة، كتب د. **مروان اسكندر*** المقالة التالية التي تروي تاريخ تطور هذا المفهوم منذ نشوئه قبل أربعين عاماً.

* خبير اقتصادي لبناني

Corbis

توسع الاهتمام بالتلزيم وحدود استخدامه وفوائده بفضل العولمة والاسماء التجارية وتطور تكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصال وتحرير الدول سياساتها



اليوم، مع توسّع الشركات في بلادها الأصلية وفي خارج هذه البلاد، لأسباب تتعلق على الخصوص برخص اليد العاملة في هذا البلد أو ذاك، أو بجودة صناعة هذا الجزء من السلعة هنا أو هناك، صارت السلعة التي تشتريها من ألمانيا أو الولايات المتحدة مثلاً، تتضمن أجزاء مصنوعة في ماليزيا أو كوريا، كأن تصنع شركة في الصين رقائق إلكترونية، تستخدمها شركة أمريكية في صنع حواسيب تحمل اسمها التجاري.

كذلك اقتحمت شركات الخدمات المتنوعة نطاق عمل غيرها من الشركات، لتُعاونَها في مجال معين، مثل إطعام الموظفين أو نقلهم أو توفير أجهزة المكاتب لهم أو تنظيف مباني الشركة، وما إلى ذلك.

هكذا اعتمدت الشركات شيئاً فشيئاً فكرة الانفتاح على مفهوم العمل المشترك.

Corbis

أي ان العمل الاقتصادي لم يعد عمل شركات منعزلة نوعاً ما عن البيئة الاقتصادية التي تعمل فيها، سواء أكانت هذه البيئة وطنية أم عالمية، تتخطى الحدود.

صارت الشركات الكبرى اليوم تميل أكثر فأكثر إلى إيكال جزء من أعمالها، أو حتى صنع جزء من سلعها، إلى شركات متخصصة أخرى، تتولى قطاعاً معيناً من الصناعة أو الخدمات. وقد أخذت العقود التي تنظم هذا التعاون، تنتشر بسرعة ويزيد إسهامها في دنيا الأعمال.

عقود التلزيم

ما هي عقود «التلزيم»، وما هو تاريخها، ومجال نموها وتطورها؟

عقد التلزيم عقد يوكِل فيه طرف إلى طرف ثان، مهمة صنع منتج وسيط أو خدمة، أو توفيرهما، لحاجة الطرف الأول إليهما، في إتمام صنع سلعة نهائية تباع إلى المستهلك أو المستثمر، أو لحاجته إلى خدمة ليس متخصصا فيها. ويكون الطرف الذي يطلب التلزيم، شركة كبيرة معروفة النتاج والعلامة التجارية، أو وكالة حكومية توفر خدمة مهمة للجمهور. وفي المقابل يكون الملتزم، أي الطرف الثاني، الذي يُطلَب منه النتاج الوسيط أو الخدمة الوسيطة، مقاولاً أو فريقاً موثوقاً فيه، يتميز بدرجة عالية من التخصص.

وقد حظي التلزيم في السنوات الأخيرة باهتمام متزايد، بصفته أداة لتحسين الإنتاجية والانتشار الدولي. غير أن مفهوم عقد التلزيم ليس جديدا. إذ ظهرت عقوده منذ عشرات السنين، وقد استخدمها لي ياكوكا على نطاق واسع، لإنقاذ شركة كرايسلر الأمريكية لصنع السيارات، في أزمتها الأولى في أواخر سبعينيات القرن الماضي.

وتوسع الاهتمام بالتلزيم، وربما أيضا توسعت حدود استخدامه وفوائده، وبدا هذا التوسع واضحاً، بفضل


Corbis

العولمة والأسماء التجارية وتطور تكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصال وتحرير الدول سياستها وأساليب عملها. وثمة أسباب أخرى يعزى إليها الاهتمام بالتلزيم، لكنني أظن أن ما سلف يشمل أهم الأسباب التي تجعل هذا النوع من العقود موضع اهتمام متزايد.

وعلى الرغم من الإشارة إلى الأسباب الوجيهة التي أدت إلى ظهور هذا الأسلوب، والاهتمام بظاهرته على الصعيد الدولي، فلا بد من تأكيد أنه قائم ومتداول منذ أربعة عقود على الأقل، وأن دوره المتعاظم يعبر عن تنامي حاجة شركات الأعمال والحكومات، أكثر من تعبيره عن ظهور مفهوم جديد.

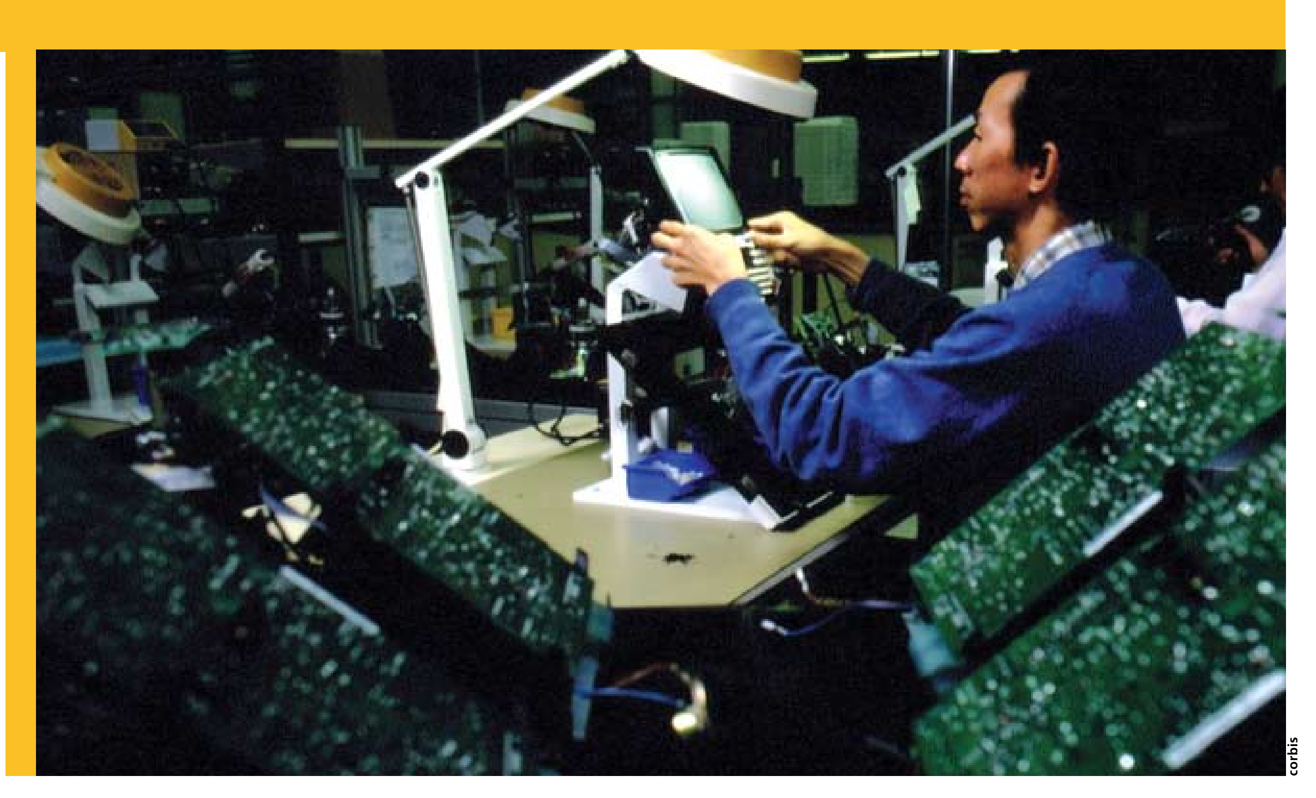
خدمات متنوعة

لقد تعاقدت الشركات الصناعية في الدول المتقدمة، عقود تلزيم للنظافة وصيانة السيارات والتنظيم والتموين والمطاعم والمقاهي وأمن المكاتب، ومثل هذه من الخدمات، منذ زمن بعيد. ولعل هذه العقود ظهرت في أوائل الستينيّات من القرن الماضي.

وتطورت عقود التموين لتوفير وجبات الطعام لمئات الألوف من الموظفين وشركات الطيران وحقول النفط وما شابه، بسرعة كبيرة منذ الستينيات. وأدت الشروط المتشابهة والمتطلبات العالية المستوى في أداء خدمة معينة، حتى بين مؤسسات متنافسة، إلى رسم مسار تطور التلزيم. كانت تلك حال عقود تموين الوجبات وشركات الأمن التي كانت تجمع النقود والأشياء الثمينة، من فروع المصارف، لنقلها إلى المراكز أو المصارف المركزية، أو من هذه إلى الفروع. أما المهام الدقيقة ذات الطابع المتخصص، التي تقتضي مستوى أعلى من التوقيت، فبدا أنها تتطلب نشوء وكالات متخصصة، أصبحت تسمى: الملتزمين.

ويمكن للتلزيم أن ينمو على صعيدين. فمن ناحية يمكن تلمس فوائده على نحو أفضل في السوق الوطنية التي تعمل فيها الشركة، ومن ناحية أخرى، إذا اتضح أن عقد التلزيم موثوق فيه ومعتمَد عليه، يمكن للشركة الملتزمة أن توسع عملها في أسواق أخرى، أوسع وأكثر تطوراً. ويمكن أن نضرب مثلاً على هذا.

تتقاضى مراكز الإنتاج، وهي بلدان مكتظة بالسكان، نسبة ضئيلة جداً من ثمن بيع السلعة النهائية



corbis

لقد بدأت مجموعة أبيلا، التي صارت في أواسط الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي شركة تموين متعددة الجنسية، بمشروع صغير للتموين في لبنان، سنة 1962م. واستطاعت أن تحرز منذ أواسط الثمانينيات، رقم أعمال سنويا يبلغ ملياري دولار، وهي توفر على الخصوص تموين وجبات لموظفي شركات النفط في الصحراء الليبية، أو السعودية، أو في حقول النفط في بحر الشمال وخليج المكسيك. كان ثمة مصفاة نفط في طرابلس (لبنان) تملكها شركة نفط العراق «آي بي سي»، التي كانت تحتكر إنتاج الزيت العراقي، وأُمّمت سنة 1973م. وكانت المصفاة توفر وجبات لموظفيها عند الظهر، في مطعمها الصغير. وقد حصل ألبيرت أبيلا، مؤسس مجموعة أبيلا، على عقد قيمته 60 ألف ليرة لبنانية (25 ألف دولار أمريكي آنذاك) في السنة، من أجل هذه المهمة. وتمكنت المجموعة بحنكة ودراية وأمانة، من أن تكسب سمعة متعاظمة لدى صناعة النفط، لتصبح مؤسسة دولية، حتى قبل منتصف الثمانينيات.

في السنوات الأخيرة نمت عقود التلزيم، خارج الحدود، وصارت قطاعا دوليا للأعمال، هائل الحجم. وقد أدت عناصر كثيرة، منها الأسماء التجارية المسجلة، وتحرير التجارة والتبادل المالي، وثورة الاتصال، وتحرير الحكومات سياستها وخدماتها، والحاجة المتزايدة إلى التكافل، إلى تنمية مجالات استخدام عقود التلزيم، نماء غير منتظر ولا متوقع.

وفي الجزء التالي من هذه المقالة، سنعالج بعض أهم خطوط اتجاه هذا النماء.

موجة التلزيم

لقد كانت الأسماء التجارية المسجلة الشهيرة، التي جمّلتها حملات الإعلان، وقد فاضت بها شاشات التلفزة على نطاق عالمي، سبباً مباشراً لزيادة هائلة في طلب خدمات بعقود التلزيم. ولن نذكر أسماء معروفة جداً، بل سنتناول الملابس، من أحذية أو قمصان أو سراويل قصيرة.



تنتقي إدارة الشركات ذات الأسماء التجارية المشهورة في مجال الملابس مواد أولية مناسبة، وتطوّر تصميمها ومقاساتها، وتفاوض في شأن سعر التكلفة ومواعيد التسليم، وتتعاقد لبيع مقادير كبيرة جدا من منتجاتها. وتُصنَع معظم ملابس الرياضة في الفلبين وتايوان والصين والمكسيك. أما السراويل الرياضية القصيرة والقمصان والملابس الداخلية، فتُصنَع في الصين وهونج كونج ومصر والمغرب والهند وبورتوريكو، وغيرها.

ويجدر بالذكر أن تكلفة صنع الملابس الرياضية اليوم نادراً ما تتخطى 15% من سعر مبيعها في محلات البيع المفرق. ويُسخّف هذا الأمر، ما يعلّمونه في الاقتصاد، أن التكلفة الهامشية، ومنها الربح المعقول، يعيّن السعر. فالحقيقة أن سعر المبيع النهائي يتأثر أكثر، بجاذبية اسم السلعة التجاري وسمعته. وهما أمران يصنعهما الإعلان والوسائل المتاحة لتمويل موازنات الدعاية. وتتقاضى مراكز الإنتاج، وهي في الغالب بلاد نامية مكتظة بالسكان، وتعد مواقع التلزيم الأساسية، نسبة ضئيلة جداً من قيمة السلعة النهائية، التي تُشحن من موانئها أو مطاراتها، بأسعار نقل تفوق سعر الإنتاج.

لقد أتاحت ثورة الاتصال والهاتف الخلوي فرصاً هائلة لعقود التلزيم. وفي بعض الحالات، تحولت هذه الفرص إلى مشاريع على نطاق عالمي.

دور الدول النامية

وحين أخذت الأقمار الاصطناعية تنقل الصورة والصوت حول العالم، فرّخت قنوات التلفزة مثل الفطر، بعدد متعاظم. وأدى انهيار الاتحاد السوفياتي وانفتاح الصين المتدرّج، مع نماء الهند والبرازيل، إلى طلب مئات ملايين أجهزة التلفزة. وصُنعت المكوّنات الإلكترونية من رقائق، لكنها احتاجت إلى عمل دؤوب. ولذا انتقل صنع الرقائق الإلكترونية للحواسيب والسيارات والتلفزيونات وغيرها، إلى الشرق الأقصى. وصارت الصين وتايوان وماليزيا وكوريا الجنوبية وسنغفورة، مراكز صناعية متخصصة مهمة لهذا النوع من الصناعة. وفي زمن قصير، لم يعد صنع أجهزة التلفزة في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة أو فرنسا أو ألمانيا مجزياً. كذلك صارت أجهزة الراديو اختصاصاً لبلدان الشرق الأقصى هذه. وفيما كانت شركات كوريّة جنوبيّة، مثل إل جي أو سامسونج، توسع خدماتها لشركات في الولايات المتحدة وأوروبا، لاحظت أن في استطاعتها أن تطور منتجاتها الخاصة التي تحمل اسمها التجاري. ودخلت هذه الشركات إذن في مجال السوق العالمية، وصارت تحمل أسماء تجارية عملاقة. وتنافس سامسونج الآن شركة نوكيا على المرتبة الأولى في العالم، في إنتاج الهاتف الخلوي، وأما إل جي فهي عملاق عالمي في إنتاج الأدوات المنزلية والإلكترونية (White Products).

لم يقتصر التوسع في الصناعة في الشرق الأقصى، على جهاز التلفزة والحاسبة والهاتف الخلوي وجهاز الراديو والساعة الإلكترونية والميزان، بل صارت بلاد تلك المنطقة تصنع الحاسوب أيضاً. ومنذ أواسط الثمانينيات،





ولايات أمريكية تقدم التجهيز للمدارس وتلزِّم التعليم. وفي إنجلترا اختارت الحكومة أن تلزِّم إدارة السجون ومراقبتها

صار الحاسوب المنقول، من أكثر السلع المطلوبة، بعد السيارات، لأغراض الحساب وحفظ المعلومات، بدلا من حواسيب المكاتب الثابتة، وصارت منطقة الشرق الأقصى أكبر منتج لهذا الحاسوب. وحده إنتاج الرقائق الذكية ظل مستثنى، فبقيت فرنسا مع الولايات المتحدة وغيرهما، قادرة على المنافسة في هذا القطاع الذي تبلغ قيمته عدة بلايين من الدولارات في السنة.

وكان لثورة تكنولوجيا المعلومات، التي أكملت ما فعله تطور تكنولوجيا الاتصال، دور أيضا في إتاحة فرص هائلة أمام عقود التلزيم. وصارت المعلومات المالية عن تدفق المال، وقيمة العملات، وأسعار الأسهم والسندات والعقود الآجلة، والسلع، خدمة متخصصة توفرها شركات مثل رويترز وبلومبرج وغيرهما. لكن هذه الشركات التي توفر الخدمات، اعتمدت بدورها على برامج طُوِّرت في بنجالور وسنغفورة وغيرهما، وحتى في روسية ربما.

حتى طلب الطبيب

وصارت المكالمات الهاتفية عبر القارات وفي داخل المدن تمر بخوادم إلكترونية، مقرها في بعض الأحيان على بعد ألوف الأميال. وقد يمر اتصال هاتفي عاجل من نيويورك لطلب نجدة طبية، عبر الهند أو أيرلندا، في اتجاه مؤسسة خدمات طبية في نيويورك. لقد صارت المواصلات والعقود المالية متداخلة إلى درجة أن شبكة العنكبوت القائمة بين نظم تعمل معاً، صارت تقوم على خدمة المرضى، أو المستثمرين، أو الصحافيين، أو الساسة، أو الناس العاديين، سواء بسواء.

وأدى تحرير أسواق المال إلى إصدار مئات ملايين بطاقات الائتمان. وهي تُستخدَم في كل أنحاء العالم، بغض النظر عن مكان الصدور، أو المقاصّة النهائية. ولا يمكن معالجة حركة شراء مئات ملايين السلع في اليوم، في أكثر من 150 بلداً، من دون تلزيم لاستخدام برامج ذكية، وخوادم يقوم معظمها في بلدان متقدمة.

ولما كانت الأعمال بتوسعها، قد عبرت الحدود إلى المجال الدولي، لا سيما في ميدان الخدمات والتبادل، كان لا بد من تعاظم الحاجة إلى معالجتها، أكانت صغيرة أم كبيرة، بوتائر متعاظمة هي أيضاً، وما كان لهذا أن يكون ممكناً لولا التلزيم في هذه الميادين.

لا شك في أن العولمة في مجالي المعلومات والاتصال، تسهّل الأعمال وتُعقد شبكة المعلومات وقواعد معالجتها. إلا أن التلزيم صار في عدد من الحالات، أمراً حكومياً أيضاً، أفي الدول المتقدمة أم النامية. وفيما يلي أمثلة على بعض ملامح هذه الصورة.

اختارت بعض الولايات الأمريكية أن تلزّم خدمات التعليم عند المستويين الثانوي والابتدائي. وتوفر هذه الولايات الموجودات المادية للمدارس، من مبان وإنارة وتدفئة وتكييف. وما عدا ذلك، تعقد له عقد تلزيم مع مؤسسات تربوية متخصصة، لتوفير التعليم اللازم للتلاميذ. وفي كثير من الحالات، تدفع الولايات رسماً من المال كل سنة لكل تلميذ، عند كل مستوى مدرسي. وثمة مئات من المدارس تعتمد هذا النظام في الولايات المتحدة.

السجون.. والأمن

في إنجلترا، اختارت الحكومة أن تلزِّم إدارة مراقبة السجون وخدماتها. وعلى الملتزم أن يوفر النظافة والانضباط والمراقبة الصارمة والطعام السليم والملابس، وفي بعض الحالات، الرياضة والترفيه أيضا. ويدار كثير من السجون على هذا النحو.

ولكن أكثر عقود التلزيم إثارة للجدل، هي عقود خدمات الأمن الخاصة، التي يعقدها الجيش الأمريكي أو الحكومة

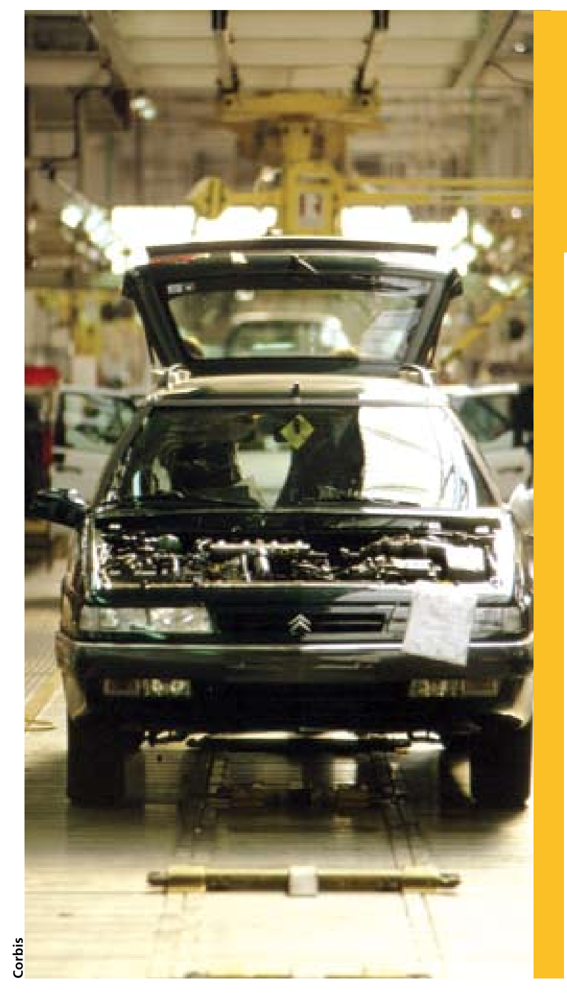
الأمريكية مع شركات أمن خاصة متخصصة، تتولى حماية الرسميين والمؤسسات. والأمن في هذه الحالات ربما يتضمن أمن قوافل التموين وحماية الدبلوماسيين والمباني الحساسة والأجهزة السرية، وغيرها. ومعروف أن قيمة هذا القطاع من الأعمال في العراق وحده، تبلغ ملياري دولار أمريكي في السنة. وفي المدة الأخيرة طفت إلى السطح مشكلات تتعلق بهذا النوع من الخدمات.

وثمة ميادين تلزيم أقل خطراً، في بعض الدول النامية، في مجال توفير خدمات تكون عادة من اختصاص القطاع العام.

ففي جورجيا، الجمهورية السوفياتية السابقة، مسقط رأس جوزف ستالين، اعتمدت الحكومة سياسة ليبرالية لتسهيل الأعمال، وتقليص حجم الحكومة. ولهذا الغرض، عقدت جورجيا عقود تلزيم لكل قطاع التعليم. ولم يعد في استطاعة الفتى الجيورجي أن يذهب إلى المدرسة الرسمية، لأن المدرسة الرسمية لم تعد موجودة. وثمة مستندات مالية تضمن مبلغاً معيناً لكل تلميذ، في كل مرحلة من مراحل التعليم. ويذهب التلميذ صاحب المستند إلى أي مدرسة يريد، وفي معظم الحالات، يكمل القسط من ماله الخاص. والشيء نفسه متبع في القطاع الصحي، إذ لم يعد في البلاد مستشفى تملكه الدولة.

خلاصة

العولمة ودفق التجارة الحر والتبادل والاتصال الفوري، جميعها عوامل تشجع على التلزيم. وتستطيع الدول النامية أن تستفيد منه، لكن عليها حتى تجني فوائده الجمة، أن تُدرج النشاط المعني بالأمر في إطار شبكات التسويق العالمية، لتضمن مكانة مرموقة في الاقتصاد الدولي المعولم. ويصعب تقدير حدود التغيير والفرص المتاحة، ما دامت التكنولوجيا والتبادل المالي في تطور مستمر بسرعة.


Corbis

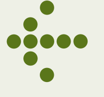
ويستند نزوع الحكومات إلى تلزيم الخدمات، وهو أمر يعد جزءاً لا يتجزأ من البنى الحكومية الحديثة، إلى الاقتناع بفوائد تحرير الاقتصاد. لكن ثمة آراء ودراسات جادة تبين أن انسحاب الحكومات من خدمات التعليم والصحة، قد يؤدي إلى عكس الغرض المنشود، بإحداث مشكلات اجتماعية.

أما تلزيم الخدمات الأمنية فيبدو سلوكاً خطراً. وعلى وجه الخصوص، كان هذا أمراً مخيباً في العراق، ولم يؤت الثمار المطلوبة. فيما أثبتت عقود تلزيم الخدمات الأمنية في المطارات ونقل المال جدواها، على تخفّيها.

ولا يزال ثمة جدال إذا كان عالمنا سيكون أفضل، مع توسيع التلزيم في إنتاج الخدمات. ففي بعض القطاعات يبدو جيد النتائج، فيما يبدو غير مرضٍ في أخرى. ويستحق الموضوع مزيداً من الانتباه والدرس، لأن التلزيم صار جزءاً مهماً من حياتنا اليومية.

هل بات بحاجة إلى إعادة ترتيب؟

الصوت ودوره في حياتنا



يلعب الصوت دوراً بالغ التأثير لا في مزاج الإنسان ونفسيته فحسب، بل أيضاً على الصعيد العضوي. وتطور نوع الأصوات المحيطة بالإنسان بعد الثورة الصناعية فرض جمعها تحت مصطلح «المحيط الصوتي» الذي بات مادة لدراسات متزايدة أدَّت بدورها إلى مكتشفات مدهشة. وبعيداً عن التذمر من موضوع «التلوث الصوتي» الذي كثر الحديث عنه أخيراً، يُطلعنا رجب سعد السيد* عن ماهية هذا المحيط الصوتي الذي بات، على ما يبدو، بحاجة إلى إعادة ترتيب.

* المدير العام في المعهد القومي لعلوم البحار والمصائد بمصر



يقول عالم الصوتيات والموسيقى الكندي المشهور موراي شيفر إن حاسة السمع عاملةٌ أبداً، ولا يمكن إيقافها عند الطلب. فآذاننا مفتوحة على الدوام. أما عيوننا فلها جفونٌ تغطيها، وليس لآذاننا أغطية.

وعندما نخلد إلى النوم يكون السمع هو آخر الحواس التي تنطفئ أنوارها، وتكون هي أيضاً أول ما نستقبل به العالم عندما نستيقظ.

وعلاقة الإنسان بالصوت هي إحدى أول العلاقات التي تربطه بالعالم من حوله. فالأذن هي أول عضو يتكون في الجنين، وتبدأ وظيفتها السمعية بعد 18 أسبوعاً من عمر الجنين، وتكتمل قدرته على تمييز الأصوات في عمر 24 أسبوعاً. وقد لوحظ أن الموسيقى الهادئة تهدِّئ ضربات قلب الجنين، عكس الموسيقى الصاخبة، التي تزيد معدل ضربات قلبه.

ويعلم المتصلون بعلوم الصوتيات أن الحديث عما يمكن تسميته بالأحوال الصوتية لحضارة البشر في العصر الحديث لا يستقيم من دون التوقف طويلاً عند جهود موراي شيفر، الذي أضفى على المسألة صبغة فلسفية، وكان هو الذي نحت مصطلح «المحيط الصوتي» (soundscape)، استناداً إلى رؤية تقول بأننا نحن البشر نحاول أن نسمع أصوات البيئة المحيطة بنا على أنها ألحان موسيقية مؤلَّفَة، بينما نحن -بالوقت نفسه- نتحمل مسؤولية تأليف هذه الألحان !.

المقصود بـ «المحيط الصوتي»

يشير مصطلح «المحيط الصوتي» إلى مجمل ما يتردد في البيئة من أصوات، سواء أكان طبيعي النشأة أو من صنع الإنسان، ويتحدد مدى الاستجابة لها، تقبلًا أو نفوراً، بالمستهدف من وراء إطلاق هذه الأصوات، وبدرجة تطابقها مع القيم السائدة في محيط البيئة. فعلى سبيل المثال، يمكن تقبل أصوات إطلاق المدافع الاحتفالية في ساحة كلية عسكرية، في يوم تخرج دفعة جديدة بها، لا في محمية طبيعية للطيور البرية. فلكل محيط صوتي صفاته المميزة التي يطرأ عليها تبدل دوري، بين الليل والنهار،

ومن فصل إلى آخر. ويعد المحيط الصوتي مكوناً أساساً من مكونات الموارد الطبيعية للأنظمة البيئية، يسهل تقويضه بأصوات دخيلة، ذات مستويات مغايرة للمستقر به؛ وذلك يستوجب إدارة جيدة للمحيط الصوتي، تحميه من تلك الأصوات، ليدوم احتفاظه بخصائصه الصوتية.

استخدم شيفر مجموعة من المصطلحات ليوضح نظريته عن المحيط الصوتي. فهناك «الأصوات التأسيسية» وهي المناظرة للمقام الأساس في الموسيقى، الذي يحدد طبيعة النغمات في القطعة الموسيقية، أو المؤلِّف الموسيقي. وهناك أصوات المقدمة، وهي الأصوات التي تعمد إلى لفت انتباه المستمع، وهي بمثابة إشارات صوتية لا غنى عنها. كذلك أوجد شيفر مصطلح «الثوابت الصوتية»، ويقصد به الأصوات التي يوقرها ويعتز بها مجتمعٌ ما، على نحو خاص، مثل الأصوات المرتبطة بالنشاط التقليدي والناتجة منه. وكل هذه الأصوات، التأسيسية والتقديمية والثابتة، تعبِّر - مثلها في ذلك مثل العمارة والأزياء- عن هوية المجتمع، فهي تمثل مجتمعة المحيط الصوتي المميز له.

«هاي فاي» و «لو فاي»

لعل كثيرين منا لم يهتموا بالتوقف لمراجعة مصطلح مرتبط بأجهزة الصوت التي لا يخلو منها منزل، بالرغم من أننا نردد هذا المصطلح عند وصف هذه الأجهزة، وهو «هاي فاي» .. فما معناه؟. إن معناه الحرفي هو (الأصوات الأمينة للأصل) .. فالجهاز الـ «هاي فاي» هو الذي يعطيك الصوت كما لو أنك تسمعه من مصدره الأصلي، ومن خصائص أصوات الـ «هاي فاي» أن التداخل فيها نادر الحدوث، فيسهل تمييز مستويات الأصوات التأسيسية والتقديمية في مجسَّم المحيط الصوتي. والحقيقة أن قصد شيفر من هذا المصطلح هو أن يكون عنواناً على الأصوات التي كانت سائدة قبل الثورة الصناعية؛ وعند استنساخ تسجيلات من محيط صوتي ينتمي لـ «هاي فاي»، لاحظ شيفر أن مستوى أصوات البيئة الطبيعية، مثل الأصوات القادمة من الجو والصادرة عن الحيوانات، تخضع لمتغيرات ثابتة، في دورات متكررة على مدار شهور السنة، وأن ثمة علاقة صوتية تميِّز كل محيط صوتي طبيعي، تقوم على تبادل إصدار الأصوات بين أنواع الكائنات الحية في المحيطات الصوتية. ثمة، إذن، إيقاع متوازن للأصوات في البيئات الطبيعية. وقد لوحظ عندما يصدحُ طائرٌ بالغناء، أو يطلق ضفدعٌ نقيقه، أن الصوت يبدو كما لو كان يصعد ليسكن في موقع مخصص له بين مختلف الترددات والإيقاعات في منظومة الأصوات الطبيعية. وعلى النقيض من الـ «هاي فاي»، يدل مصطلح «لو - فاي» على الأصوات التي سادت محيطاتنا الصوتية في أعقاب



Google

رصد نوعية الأصوات اهتمام أم هم جديد؟

هذه الثورة. فقد تكفلت الثورة الصناعية بالقضاء على عدد كبير من المحيطات الصوتية التي كان لها تميزها بخصائصها الصوتية الطبيعية، ولا يزال ذلك جارياً على نحو ما، وأفسحت المجال لمحيطات صوتية مغايرة، هي المحيطات الصوتية للمدينة، التي تنعقد السيادة فيها لمقام أساس، اسمه الضوضاء!

أثر الصوت في البقاء

حصل موراي شيفر وتلاميذه على 2500 ساعة من تسجيلات للأصوات الطبيعية، مكَّنتهم من رسم خرائط لطيف الأصوات، أوضحت لهم كثيراً من الحقائق، منها، على سبيل المثال، أن أصوات الحيوانات والحشرات تحتل منطقة صغيرة من الترددات، تترك فيما بينها أشرطة متفاوتة الاتساع، ذات ترددات ضعيفة، أو خالية تماماً من الترددات، تسكن فيها أصوات الطيور، وهذه الأشرطة هي التي تستقبل أيضاً الضوضاء التي تنشأ إذا امتدَّ النشاط العمراني؛ فتبدو أشرطة الترددات الصوتية الضعيفة كما لو أنها سُدَّت أو وُضِعَ عليها قناع غيَّر معالمها؛ فإن جاءت الأنواع المختلفة من الطيور لتطلق تغاريد الدعوة للتزاوج، فإنها تضيع، فيصعب، إن لم يصبح في حكم المستحيل، لمّ شمل الذكور بالإناث. وإذا تكرر ذلك لمواسم توالد متعددة متتالية، تعرضت أنواع من الطيور للهلاك. وثمة دراسة حديثة تؤكد ذلك، إذ تشير إلى أن الطيور التي تعيش بالقرب من الطرق السريعة المزدحمة بحركة المرور، لا يسمع بعضها بعضاً. ففقدت الأجيال المتعاقبة منها القدرة على تعلم الغناء، ومن ثمَّ فقدت أهم وسائل التواعد في موسم التزاوج. فالأصوات عند الطيور والحشرات واللبونيات

والبرمائيات هي رسائل محمَّلة بالمعاني المهمة، ابتداءً من أصوات التحذير من خطر الافتراس، مروراً بزمجرة إعلان السيادة على مساحة من البرية، إلى تعبير الغزل ودعوات الزواج؛ وتنقل جميعها بالصوت؛ فإن لم تصل هذه الرسائل إلى مستحقيها، زاد احتمال الهلاك.

الموسيقى البرازيلية... مثلاً

ومن الخصائص التي كانت متوافرة للمحيط الصوتي قبل الثورة الصناعية، الامتداد العظيم للأفق الصوتي، الذي كان يبلغ عدة أميال، حيث كانت الأصوات التي تصدر في موقع بعينه مسموعة على امتداد هذا الأفق، وقد أدى ذلك إلى تدعيم الإحساس بالمكان والفراغ المحيط به، وتنمية علاقة قوية بالموطن. كما أن بعض الأصوات التي تصدر عن تجمع سكاني محدد، من خلال طقوس احتفالية خاصة به، أو سوق في موعد انعقادها الأسبوعي، أو أي من أوجه نشاط الحياة اليومية، تصل إلى التجمعات السكانية المجاورة، فينشأ ما يمكن تسميته بالرابط الصوتي بين التجمعات البشرية، وتترسخ الخصائص الصوتية المميزة لكل تجمع منها؛ ففي بلد مثل البرازيل، تتدفَّق في عروق سكانه دماء هي مزيج من شعوب الهنود، سكان البلاد الأصليين، والبرتغاليين الغزاة، والأفارقة. ويمكن النظر إلى مكونات هذا المزيج على أنها جماعات صوتية؛ فمن السكان الأصليين جاءت الأصوات من الطبقات والإيقاعات المرتفعة الواضحة، تحث على العمل، وترقص في الأعياد، وهي أصوات تشارك الطبيعة على نحو ما في صنعها. فمعظم آلات الوطنيين الموسيقية هي آلات نفخ ووتريات، والمكون الأول فيها هو ثمرة اليقطين، ينفخ فيها، أو تعمل صندوق صوت في الآلات الوترية. ومن الأفارقة الذين كانوا مكبلين بالأغلال، تنطلق الترانيم التي تعينهم على تحمل الأشغال الشاقة، والأهازيج التي لا تخلو من رسائل رمزية، تدعو للكفاح والمقاومة. أما البرتغاليون، أولئك الغزاة القادمون من أوروبا، فقد جلبوا الآلات الوترية، مصدر أنغام الحزن والحنين للأهل في الوطن الأم، وأيضاً أصوات الموسيقى المصاحبة للأغاني المشيدة بالغزو.

الصوت هو الوسيط بين المستمع والبيئة، والضوضاء تنشأ عندما لا نُحسن الإصغاء

الطيور.. طليعة المتأثرين بتبدل المحيط الصوتي


StockXchange

بعد سنوات عديدة قضاها شيفر في البحث العلمي، اتجه إلى العمل في مساحة جديدة من مشروعه الصوتي. فقد تفرغ للتأليف الموسيقي. وكأنه يئس من محاولة ضبط أصوات العالم، فآثر أن ينتج الأصوات التي يريد. لم يكن هم شيفر الأول دراسة ذلك الخليط المتنافر من الأصوات في المجتمعات الحديثة، ولا البحث عن وسائل لتخفيف حدة الأصوات، فقد كان يرى أن التعرض لتلك الضوضاء والأصوات المتنافرة مدخل غير صحيح لمعالجة قضية الأصوات غير المرغوب فيها.

وفي رأيه أن الضوضاء تنشأ عندما لا نحسن الإصغاء. ومن ثمَّ، فعلينا البحث عن أسلوب إيجابي لهذه المعالجة يشتمل على برنامج نوضِّح فيه مسائل أساسية، مثل: أي الأصوات نبقي عليه ونشجِّع على إنتاجه وانتشاره؟ فإن توصلنا إلى إجابة لهذا السؤال، واصطلحنا على ما نريده من أصوات، تكشفت عورات الأصوات المدمِّرة لأسماعنا، واجتمعنا على ضرورة التخلص منها، وينتهي ذلك بنا إلى اكتساب ميزة الإدراك الكلي لمعنى المحيط الصوتي، فنسعى لإيجاد وسائل تطوير وتحسين التوزيع الأوركسترالي للمحيط الصوتي الكوني.

الوسيط بين الإنسان والعالم

إن الصوت هو الوسيط بين المستمع والبيئة التي يعيش فيها، فإن تدهورت أحوال المحيط الصوتي، فإن الوعي بدلالة الأصوات في البيئة يأخذ في الاضمحلال، ويبدأ ذلك بأن الأصوات التي تلتقطها أذنا المستمع تتحول كلها إلى نوعين لا ثالث لهما: إما مرتفعة، أو منخفضة. وقد يكون التصنيف في صورة أخرى: أصوات طيبة نحبها، وأصوات منفِّرة نكرهها. إن الناس يتكلمون كثيراً، ولكنهم لا يذكرون الأصوات في كلامهم، فهي لا تمثِّل عند الكثرة الغالبة منهم قضية مهمة، بل هي من المسلَّمات: هناك أصوات تأتي وتذهب، تعلو وتنخفض؛ ولا شيء أكثر. ويقول باري تروا، أستاذ الاتصال بجامعة سيمون فراسر في كولومبيا البريطانية، إنه قضى أكثر من عشرين عاماً يدرِّسُ تكنولوجيا الأصوات لأنواع مختلفة من الطلاب، وقد اشتركوا جميعاً في صعوبة إدراك حقيقة أنهم لا يعطون الأصوات قدراً كبيراً من الاهتمام. فإذا تحدث الناس عن الأصوات، وفكروا فيها، فإن ذلك يكون من باب التبرم من الأصوات المزعجة أو الضوضاء؛ فإن سألتهم أن يحددوا ما يتبرمون منه، اختلفوا فيه.

كان تروا قد بدأ حياته العملية، على عكس ما بدأها شيفر، مؤلفاً موسيقياً في السبعينيات من القرن الماضي، ثم تحول إلى دراسة الاتصالات والصوتيات. وكان أحد الذين رافقوا شيفر وعملوا معه في مشروعه الصوتي. فلما اعتزل شيفر المجال، عمل تروا لتطوير البحث فيه، واستحدث أطراً للدراسة. منها إطار «الاتصال الصوتي»، الذي يدرس الصوت على أنه تبادل للمعلومات، وليس مجرد تحرك لذبذبات في الهواء. كذلك لفت تروا الانتباه إلى ضرورة مراعاة السياق عند محاولة تفهم الرسائل التي يوصلها الصوت؛ فالصوت برأيه يُردُّ، في جزء قليل منه، إلى: من، أو ما، الذي أصدره؟ ولكنه يرتبط أساساً بالملابسات والظروف التي يُسمعُ فيها. وعلى سبيل المثال، فإن الأصوات الحادة التي تسبق الدخول إلى الإنترنت (في النظام الهاتفي العادي) يمكن أن ينظر إليها على أنها مزعجة، ولكن ذلك لا يحدث، لأنها تؤذن بقرب تحقيق الاتصال بشبكة المعلومات الكونية. واستفاد تروا من خبرته القديمة مؤلفاً للموسيقى المعتمدة على برامج الحاسوب، فأنتج ما يطلق عليه اسم «الموسيقى البيئية»، وهي ليست تلك التي تشبه المؤثرات الصوتية في شرائط السينما، ولكنها تنتج من شرائط تسجيلات صوتية طبيعية، تُختار على نحو خاص، ويعالجها تروا بأسلوب يجعل الموجات الصوتية تتمدَّد، كما لو انها تذاع بسرعة بطيئة، وتعطي للمستمع إحساساً بأنه بداخلها، فيتحقق عنصر المشاركة، ويتعلم المستمعون لهذه الموسيقى كيف يصغون؛ وهذا هو هدف تروا من موسيقاه البيئية.

التطبيب بالصوت

في كتاب «الصوت بوابة الكون»، ترى المؤلفة ساميا ساندري أن جسم الإنسان عبارة عن سلم نغمي متآلف مع الكون، وهو التآلف الذي ضاع، أو قد يضيع، نتيجة لسيطرة النموذج الليبرالي الغربي الذي يضع في مقدمة أولوياته الحرص على العقلانية والحرية الفردية، على حساب القيم الأساسية؛ مما جعل الإنسان أسير رغباته، ففقد إنسانيته ونسي جوهره. ولعل تلك الفكرة تجسِّد الأساس الفلسفي للأفكار المتعاقبة التي قالت بإمكان إخضاع الصوت ليكون أداة تساعد في مداواة بعض الأمراض. وكانت البداية، في نهاية القرن التاسع عشر، بصوت الموسيقى، حين تبين أن الموسيقى تزيد تدفق الدم وتساعد صفاء النفس. وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية، تأكد التأثير النفسي والعضوي للموسيقى التي كانت تُعزف لجرحى الحرب بالمستشفيات. وقد أُحرزت درجة كبيرة من النجاح في هذا المجال، حتى أن جامعة ميتشجان أنشأت في العام 1944م برنامجاً يمنح درجة علمية في العلاج بالموسيقى. ثم جاءت فكرة العلاج بالموجات الصوتية، وتنظر لمادة الجسم البشري على أنها، ككل المواد في تركيبها الدقيق، عبارة عن ذرات تنتظم فيها الإلكترونات والجسيمات الذرية الأخرى، في مستويات طاقة محكمة، لا يفسد انتظامها إلا الأمراض والضغوط العصبية؛ فإن نحن وجهنا إليها موجات صوتية ذات تردد محسوب، عادت إلى انتظامها الطبيعي، فتزول العلة. والعلاج بالصوت ضرب من أنواع العلاج البديلة، ويتحمس له بعض الأطباء، ويؤكدون على نجاعته في علاج حالات مرضية، كضغط الدم المرتفع، وإزالة التوتر العضلي، وفي الوقاية من أمراض الدم والشرايين. بل ان الاستعانة بأجهزة إلكترونية متقدمة ساعد في إحراز نجاح في مجالات أمراض الجهاز الحركي للإنسان، كالكسور والكدمات والتهاب المفاصل، وفي تخفيف آلام الانزلاق الغضروفي.

تجربة مدارس أرامكو السعودية

وقد اتسعت دائرة توظيف الإنسان للصوت والموسيقى في أغراض عملية مختلفة أُحرز فيها النجاح. فعلى سبيل المثال، تقول إدارة مدارس أرامكو بالمملكة العربية السعودية إن بعد تدريب التلاميذ على عزف مقطوعات قصيرة من الموسيقى الكلاسيكية، ازدادت قدرتهم على استيعاب الرياضيات والمواد العلمية؛ وهذا ما أكدته دراسات أُجريَت في أكثر من موقع، وانتهت جميعها إلى أن الاستماع للموسيقى الهادئة يؤدي إلى رفع مستوى الذكاء والإبداع والتحصيل الذهني. كذلك ينصح الباحثون في توصياتهم المستمدة من دراسة تأثير الموسيقى في الجهاز العصبي، بإذاعة الموسيقى الكلاسيكية في غرف الانتظار بعيادات الأسنان والمستشفيات والمطارات، وغيرها من الأماكن التي يرتبط المكوث فيها بالقلق والتوتر، إذ ان هذا النوع من الموسيقى يؤدي إلى تقليص الإجهاد، وتحسين الأداء وحالة المزاج العام.

عالم النبات.. أكثر حساسية

واجتذبت الأصوات، والموسيقى على نحو خاص، علماء الحياة النباتية، فكان لهم تطلعهم لاستكشاف آفاق استخدامها في إحداث تغيير مطلوب بالنباتات، وهذه باحثة أمريكية، اسمها دورثي ريتاليك، شغلها هذا الأمر فأوقفت جهدها العلمي عليه، لتحصل على إجابة عن سؤال محدد، هو: هل يتأثر النبات بالموسيقى؟ ونلخص نتائج أبحاثها في النقاط التالية:

1 – تحب النباتات، بشكل عام، الموسيقى الهندية!

2 – الموسيقى الكلاسيكية تأتي في المرتبة الثانية، وبخاصة موسيقى باخ.

3 – لا ينفعل النبات بموسيقى الغرب الأمريكي (موسيقى رعاة البقر).

4 – يستجيب النبات لموسيقى الجاز.

5 - لوحظ أن بعض نباتات الظل المنزلية يميل في اتجاه مصدر صوت الموسيقى أكثر من ميله في اتجاه ضوء النهار، مع ان الضوء ضروري لإنتاج الغذاء في النباتات. فهل يعني هذا أن صوت الموسيقى له تأثير مماثل، وربما أقوى، من تأثير الضوء في إنتاج الغذاء في النباتات؟!

6 - لوحِظَ أن الآلات الوترية، وبخاصة آلة الكمان، هي الأكثر تأثيراً في النباتات.. لقد ازداد ارتفاع نبات الفلفل 90%، وازداد إنتاجه للثمار بنسبة 103% على المعدل الطبيعي، عند استماعه إلى عزف على آلة وترية هندية اسمها (فينا)، لمدة 3 أسابيع!

7 - تبين أن النبات الذي يتعود الاستماع إلى الموسيقى ينقل أثرها فيه إلى سلالته، فالموسيقى تحدث تغييراً في المادة الناقلة للصفات الوراثية في الخلايا النباتية!

النبات بالغ الحساسية تجاه الأصوات، والموسيقى تُضاعف ارتفاع النباتات وتغير صفاتها الوراثية

الصوت للمعرفة

إن للأصوات القدرة على أن تتسلل إلى أعمق مشاعرنا، وتؤطرها، بل تحتلها وتأسرها. فحاول مثلاً أن تراجع ذكرياتك مع أصدقائك وبعض أفراد أسرتك، تجد أنها لا تتكون من مظاهر شخصياتهم الخارجية، فقط؛ فهذه المظاهر، أو دعنا نسميها الذكريات البصرية، لا تكون مستقلة بذاتها، ولكنها تكون مستقرة داخل ذكريات عن أفعال يختزنها الفرد لهؤلاء الأشخاص؛ وتتضمن هذه الأفعال أصواتاً: نبرة مميزة في الصوت، أسلوب خاص في الضحك أو القهقهة، طريقة التعبير عن المفاجأة والدهشة..وغيرها. ألا يجعلنا ذلك ننظر إلى الأصوات، أصوات البشر وأصوات البيئة الطبيعية، على أنها «حاويات» للخبرة البشرية؟ فهل يمكننا مراجعة مخزون هذه الحاويات وتفحص ما بها من خبرة متراكمة على مر العصور؟ أو، بعبارة أخرى، هل يمكن اصطياد أصوات ملأ ترددها أجواء المحيطات الصوتية في عصور خلت؟ هل يمكننا أن نستشعر الماضي بآذاننا كما نستشعره، حين نطالع أخبار القدماء، مكتوبة أو مرسومة أو منحوتة، بعيوننا؟



البحث عن شيء من السكون في المدينة.. عند حافتها

Flickr

ليس لدينا مخزون موروث من الأصوات ندرك به الماضي، بالرغم من أن الأصوات هي جوهره. فأصوات الماضي لم تترك آثاراً لها. حتى أقوى صوت سمعه الإنسان على مر التاريخ، وهو صوت انفجار بركان كاراكاتوا في 26 أغسطس 1883م، لم يترك بين أيدينا أي أثر له. ويبدو نفرٌ من العلماء متفائلاً وهو يرى إمكان إعادة تركيب الماضي الصوتي، تماماً مثل إعادة تركيب ما تخلف عن الماضي من آثار مادية، ولو بطريقة غير مباشرة؛ فيقولون إن أصواتاً طبيعية كهزيم الرعد، وهدير الأمواج المتكسرة على الشاطئ لا تزال باقية على حالها، وكذلك هيقعة الحراب وهي تصطدم بالدروع، وقعقعة المطرقة على السندان، ونشيش اللحم المشوي على السيخ، وهي من أصوات العصر الحجري الحديث، ويمكن استرجاعها بإعادة تمثيل النشاط الآدمي. غير أن التفاؤل يتراجع أمام عناصر صوتية أخرى بعيدة المنال، مثل صرخات الحيوانات التي طواها ظلام الانقراض، والجلبة الصادرة عن الصناعات المعدنية القديمة، ونبرات اللغات المندثرة، وأصداء الحياة اليومية للناس ونشاطهم المنزلي.

وتتردد أحلام العثور على أصوات الماضي في بعض القصص الخيالية التي نجد في واحدة منها شخصية تتنقل على مشارف بحر متجمد، وتذهل حين تسمع ضجيجاً شديداً دون أن ترى شيئاً: طلقات مدافع، أزيز رصاص، صيحات رجال، أنين، جلجلة سلاح، صهيل خيول... وغير هذا. ويتضح لنا أن تلك الأصوات ليست إلا أصداء معركة كبيرة، وقعت في الشتاء الماضي، وقد تجمدت الأصوات في الهواء البارد؛ فلما ذاب الجليد، نشطت واختلط بعضها ببعض، وأصبحت مسموعة!

إنها رغبة كامنة بداخلنا.. أن نسمع التاريخ من جديد، وهي التي دفعت بعض علماء الآثار إلى تخيل إمكان استعادة صوت البنَّائين في الأزمنة البعيدة، الذي حُفِرَ في الحجارة وهم يستخدمونها في تشييد الأسوار والمباني الأثرية، كما تحفر أجهزة تصنيع الأسطوانات الموسيقية النغمات في أخاديد على أسطحها. الأسطوانات الموسيقية والغنائية، وجدت أجهزة الحاكي «الفونوغراف»، الذي يستعيد نغماتها مرات عديدة، أما أصوات البنائين على الحجارة القديمة، فهي بانتظار فونوغرافها!.

1 الطاقة الشمسية إنجاز فريد غير مذهل

في إطار البحث عن مجالات الاستفادة من الطاقة الشمسية شهد العالم أخيراً حدثاً وصف بأنه الأول من نوعه، وهو فعلاً كذلك، ولكنه ليس في حقيقته على قدر الاهتمام به.

فمن دون نقطة وقود واحدة، بل بواسطة ألواح لاقطة للطاقة الشمسية تبلغ مساحتها 60 متراً مربعاً، تمكن الزورق السويسري الصنع المسمى «صن 21» من اجتياز المحيط الأطلسي.

ولكن هذا الإنجاز العلمي يبقى غير قابل للترجمة العلمية والتعميم. لأن الزورق الذي انطلق من مرفأ شيبيونا في إسبانيا في 3 ديسمبر من العام الفائت، لم يصل إلى جزر المارتينيك إلا في 2 فبراير من العام الجاري، وبمتابعة صعوده بمحاذاة السواحل الشرقية الأمريكية، وصل إلى نيويورك في الثامن من مايو، أي بعد خمسة أشهر وخمسة أيام من تاريخ الانطلاق!!



2 إزالة الصدأ أسهل مما نعتقد



Google

تكثر في المتاجر المواد الكيميائية المزيلة للصدأ عن المعادن، والتي تباع على شكل عبوات رذاذة، أو سائلة في قوارير. وغالباً ما تكون هذه المواد كريهة الرائحة، مكلفة، ومضرة بالبيئة..

غير أن أحد الأمريكيين اكتشف بالصدفة أن ورق الألمنيوم المستخدم في تغليف الأطعمة، ولا يخلو منه بيت، يشكِّل مادة فعَّالة لإزالة الصدأ. إذ يكفي طي ورقة بمساحة الكف لتصبح بمساحة علبة الكبريت، وترطيبها بقليل من الماء وفرك الأماكن الصدئة التي سرعان ما تسترد بريقها من دون أن تصاب بخدوش ملحوظة.

المجلات العلمية ومنها مجلة «بوبولار ساينس» رحَّبت بهذا الاكتشاف، وعممته على قرائها في إطار جملة الحلول التي تقدِّمها لمشكلاتهم، معتمدة على تجربة المكتشف الذي أزال الصدأ بالكامل عن دراجته الهوائية القديمة.

3 الأزرق.. أي أزرق

إن وجود كلمة واحدة تشير إلى درجة محددة من لون معين مابين الفاتح والداكن، يحسن فهم الدماغ لحقيقة اللون وتغيراته. هذا ما خلصت إليه دراسة أعدها فريق من الباحثين من الجامعة المشهورة برصانة الأبحاث وهي «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا».

وتقارن الدراسة على سبيل المثال اللغة الإنجليزية التي لا تتضمَّن سوى كلمة واحدة للإشارة إلى اللون الأزرق بمختلف درجاته وهي كلمة «Blue»، باللغة الروسية التي تميِّز الأزرق الفاتح باسم «Goluboy» عن الأزرق الداكن الذي تسميه «Siniy».

وفي اختبار لتمييز الألوان، تبيَّن أن الروس هم أسرع من الإنجليز..

المصادر العلمية التي نشرت هذا الخبر، لم تشر إلى ما إذا كانت الدراسة شملت العربية حيث للون الأزرق ثلاثة أسماء على الأقل هي: الأزرق، النيلي، الكحلي... وربما غير ذلك أيضاً.

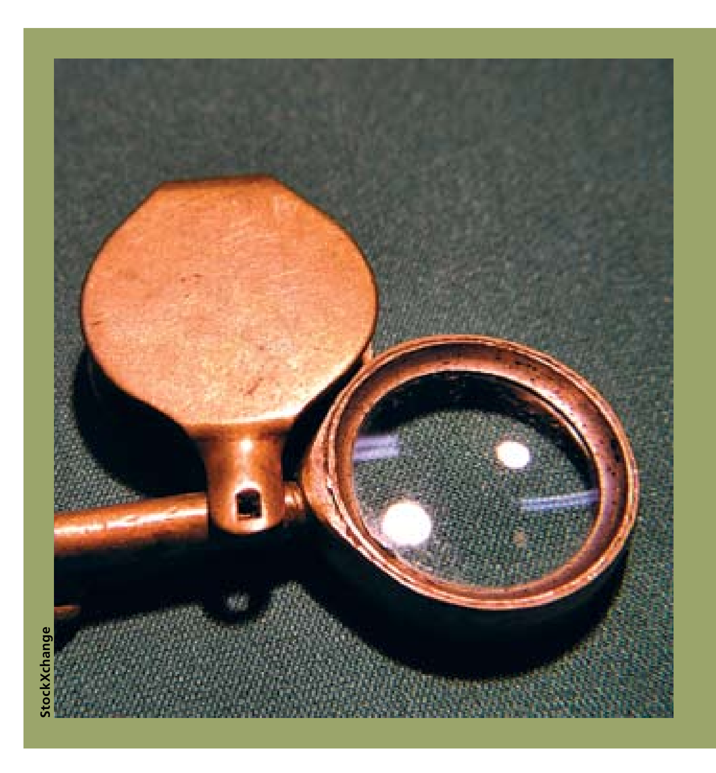


4 الكمبيوتر وعلم الآثار

إضافة إلى أوجه استخدام الحاسوب المتعددة في الحفريات الأثرية التي يجريها العلماء أينما كان في العالم، دفع تطور البرامج في هذا المجال العلماء إلى نبش ملفات المهام التي بدت في الماضي مستحيلة فاستقرت طويلاً في الأدراج وعلى الرفوف. وآخر الإنجازات في هذا المجال ترميم «عمود قلب العالم» الذي يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد.

فقد كان اليونانيون القدماء يعتقدون أن وسط العالم يقع في مدينة دلفي، فأقاموا فيها عموداً طويلاً مزخرفاً ومزيناً بالمنحوتات. ولكن هذا العمود تحطم وضاعت بعض أجزائه، وبقي منه نحو 300 قطعة محفوظة في متحف المدينة.

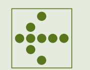
وبالاتكال على برامج متطورة مخصصة لهذا الشأن، عمل فريق من جامعة أثينا على وضع تصور لما كان العمود عند بنائه. وبعدما عالج الحاسوب 200 مليون معلومة مستقاة من هذه البقايا الحجرية، قدَّم صورة واقعية بالغة الدقة والأمانة لما كان، تمهيداً لإعادة بنائه، بأدق تفاصيله.



منذ أن تعرفنا في الوطن العربي إلى الإنترنت قبل عشر سنوات، وكان ذلك بعد ولادة الشبكة العنكبوتية العالمية (world wide web) واستخدامها لدى العامة في أمريكا بأربع سنوات، والاهتمام كان ولا يزال يدور حول التقنية واستكشاف هذه الشبكة وتطوير قدراتها وبرامجها، وذلك أكثر بكثير من الاهتمام الذي كان يُعطى للجانب الاجتماعي والإنساني. ولكن مع بداية الألفية الثالثة، بدأ اهتمام المعنيين بالشبكة ينحرف عن الشؤون التقنية، ليتركَّز أكثر فأكثر على الجانب الاجتماعي والإنساني. وفي إحدى حلقات مناقشة هذا التغيُر، هتف أحدهم: «وجدتها.. إنها الجيل الثاني من الويب». وهذا ما تحدثنا عنه هنا مرام عبدالرحمن مكّاوي*.

الجيل الثاني من الويب

التفاعل والتعليم من أكبر المستفيدين



دعونا ابتداءً نزيل شيئاً من اللبس، ونميِّز بين الإنترنت والشبكة العنكبوتية أو ما يُعرف بالويب. فالإنترنت هي الشبكة الفيزيائية التي تصل الأجهزة والشبكات بعضها ببعض.

وهي شبكة من الشبكات المختلفة، أنشأتها وكالة أبحاث وزارة الدفاع الأمريكية (DARPA) وتعود بداياتها إلى الخمسينيات من القرن الفائت. بينما الويب الذي صُمِّم في أوائل التسعينيات في مركز أبحاث (CERN) بسويسرا، هو محتوى هذه الشبكة وما ينتقل خلالها. فالإنترنت إذن هي سكة الحديد، والويب هو القطار الذي يسير عليها. إلا أن كثيرين يستخدمون كلمتي إنترنت والويب قاصدين هذا الأخير.

أتى الويب فأتاح لنا أول مرة أن نتبادل رسائل البريد الإلكتروني مع أي شخص على ظهر الكوكب، مادام متصلاً مثلنا بالشبكة العنكبوتية. وجعلنا قادرين على أن نتصفح ملايين الصفحات الإلكترونية والمواقع الشبكية بضغط زر. فانفتح أمامنا منجم من المعلومات، بإمكاننا أن نستخرج منه ما نشاء، على شرط أن نكون قادرين على الوصول إليه. فقد كانت مشكلة المعرفة بوجود موقع ما ثم بكيفية الوصول إليه، إن لم نكن نعرف عنوانه بدقة شديدة، مشكلة قائمة. حتى ظهرت محركات البحث التي أعطت تجربتنا في الإبحار والتصفح دفعة إيجابية غير محدودة.

وظلت شبكة الويب طول عقد التسعينيات تقريباً، تميل إلى كونها منجماً للمعلومات. ولكن الاتجاه الذي كانت تتم به هذه العملية، ظل وكأنما هي موجهة من طرف واحد، أو أطراف معدودة (مقارنة بالعدد الكلي للمستخدمين). أي أن كبريات المواقع والشركات، والقادرين فقط من الأفراد هم الذين يصوغون المواد المعروضة على الشبكة بشكل رئيس. فما على المستخدم العادي سوى أن «يقرأ» الخبر من على موقع البي بي سي مثلاً، أو يشاهد لقطة فيديو دعائية على موقع مايكروسوفت، أو يزور الموقع الإلكتروني لفلان من الناس، من دون أن تكون له القدرة على أن يقول رأيه لا في ما قرأ أو شاهد أو تصفَّح، ولا أن يضيف هو بدوره ما يراه مفيداً أو نافعاً للآخرين. لكن كل ذلك تغيَّر مع دخول الويب مرحلة

* كاتبة سعودية، وطالبة دراسات عليا في علوم الحاسبات بالمملكة المتحدة

النضج في الألفية الجديدة. إذ ظهرت أنواع جديدة من أوجه التطبيق التي أخذت تحل محل نظيراتها السابقة، وتشكِّل بخصائصها المشتركة ما اصطُلح على تسميته فيما بعد بالـ Web 2.0.

تعرِّف ويكيبيديا مايسمَّى «Web 2.0»، بأنه الجيل الثاني من المجتمعات والخدمات الإلكترونية على الشبكة، التي تتيح على الخصوص التفاعل والمشاركة بين مختلف المستخدمين. وبالرغم من أن الرقم 2 قد يوحي للبعض بأن هذا يعني ترقية في الخصائص التقنية والتكنولوجية للويب، وتغييراً في البنية البرمجية التي يقوم عليها، فإن الواقع ليس كذلك بالضرورة. فالإنترنت لم تتغير تقنياً بالشكل الذي تطورت به الطائرات مثلاً، فالأخيرة احتفظت بالمهمة الأساسية نفسها (نقل الناس من مكان إلى آخر)، لكن هندستها وبنيتها قد تغيرتا كثيراً، بينما العكس صحيح في حالة الشبكة العنكبوتية. إذ لم تتغير بنية ولا تقانة الشبكة بشكل جذري، وإنما تغيَّرت الطريقة التي بتنا نستخدم بها هذه الشبكة. فالويب أصبح بيئة إبداع وعمل متكاملة، يتفاعل خلالها المستخدمون مع بعضهم من خلال الشبكة. فالقضية لم تعد علاقة مستخدم بشري بآلة هي جهاز الحاسوب، بل علاقة مستخدم بمستخدم آخر. وفي بيئة التواصل هذه تبرز قيم الديمقراطية، وحرية التعبير، وغياب المركزية، وحرية تبادل المعلومات والسلع (ضمن قوانين حقوق الملكية الفكرية الإلكترونية التي لا تزال موضع جدل)، كما أنه يشير إلى التحول الذي طرأ على صفحات ومواقع وقواعد البيانات على الشبكة. فبدلاً من كونها جزراً منعزلة، ومستودعات متباعدة مستقلة ومنفصلة، أصبحت تميل إلى المشاركة، وإلى كونها مصدراً مترابطاً لمعلومات وخدمات تنشأ منها بدورها مواقع وخدمات أخرى.

فمثلاً انتشرت المدوَّنات (Blogs)، بما تتيحه من المرونة والسهولة في إضافة الموضوعات والأخبار والوسائط المتعددة، وإمكان تفاعل الزائر أو المتصفح مع المادة المعروضة، سلباً أو إيجاباً. وحلت هذه المدونات تقريباً محل المواقع الشخصية التقليدية. واستُبدلت المواقع التي كانت تُخزن من خلالها الصور على الشبكة، وإمكان إتاحتها لعدد محدود من الناس، بأخرى تُتبادل فيها الصور أو مقاطع الفيديو بالإضافة إلى وضع تعليقات عليها، بحيث يمكن أن تستخدم هذه التعليقات مفاتيح بحث لأي شخص يزور الموقع. وظهرت المواقع التي تسمح لنا بالبحث ضمن قاعدة بياناتها، عن المواقع التي أضافها الآخرون. وبالتالي فإن قائمة النتائج لن تكون بالاعتماد على ذكاء محرك البحث وحده مثلما هي الحالة في غوغل مثلاً، بل على تقييم بشر مثلنا أيضاً. وهكذا فلو كنت تبحث عن موقع لتعلم لغة جديدة مثل (Ajax)، وهي للمناسبة من اللغات التي جاءت مصاحبة لهذا الجيل الجديد من الويب، فإن الصفحة التي اقترحها مستخدم آخر يبحث عن الشيء ذاته، قد تكون أجدى مما يعرضه محرك البحث.

ومن أوجه التطبيق الأخرى التي تقوم على مفهوم الجيل الثاني من الويب الموسوعات العلمية على الشبكة. ففي البدء كانت الموسوعة البريطانية، والآن صرنا في عصر الويكيبيديا، حيث بإمكاننا جميعاً أن نسهم بما عندنا في بناء المعرفة الإنسانية.

خصائص الجيل الثاني

ظهر مصطلح Web 2.0 لأول مرة خلال جلسة عصف ذهني في مؤتمر نظمته شركتا «O'Reilly» و«MediaLive» في العام 2004م، خصصت لمناقشة أهمية الويب الآن. ومنذ تلك اللحظة، أصبح هذا المصطلح واقعاً يضطر حتى أكثر المعارضين له (لكونه لا يعبر بدقة عما يشير إليه) لاستخدامه، وقد استغلته بتوسع شركات الدعاية والتسويق للترويج للشركات أو المنتجات أو السلع والخدمات، لكونها تستخدم آخر صرعات التكنولوجيا! فما هي أبرز خصائص هذا الويب؟ وما الذي سيجعلنا نصنف تطبيقاً بعينه، أو خدمة بعينها بأنها من الجيل الثاني؟

مرة أخرى سنجد أن هناك جدلاً كبيراً بشأن هذا الموضوع، نظراً لحداثة المصطلح من جهة (أقل من ثلاث سنوات) وعدم وجود جهة مثل اتحاد الشبكة العنكبوتية العالمية (World Wide Web Consortium: W3C)، تتبنى هذا المشروع وتضع الخصائص العامة له، كما فعلت مع مصطلحات وأبواب تطبيق أخرى. لكن الاجتهاد المتفرق المتناثر هنا وهناك يكاد يجمع على جملة ميزات الخصائص الجوهرية للتطبيق (Applications) والخدمات (Services)، التي لو توافرت كلها أو بعضها فيها لصُنِّفت من الجيل الثاني:

- أن تستخدم الويب بيئة ومنصة برمجية تفاعلية لعملها، مستفيدة من الإمكانات الذاتية والخارجية للتفاعل، بديلاً لهيكلة أوجه التطبيق السابقة التي توصف بأنها مستقلة ومنغلقة على نفسها. فبإمكان المطورين مثلاً استخدام ما هو متوافر من مكتبات ومصادر الشبكة لتصميم برامج جديدة. تواصلاً وامتداداً لفكرة وسياسة المصادر المفتوحة والخدمات الإلكترونية. وتقنية هذه الأخيرة تمكن أي برنامجين، حتى وإن كانا مكتوبين بلغتي برمجة مختلفتين، من أن يتبادلا المعلومات أو المتغيرات. وبعض التطبيق مثل محرك البحث غوغل، أتاح للمستخدمين استخدام تقنيته في البحث ضمن نطاق محلي، فأصبح بالإمكان استخدام غوغل للبحث في قاعدة البيانات الخاصة بموقع بعينه فقط.
- أن تكون المعلومات والبيانات والمحتوى هو ما يعطيها قيمتها الأهم.

- أن تقوم هيكلتها على مبادئ المشاركة، التفاعل، الديمقراطية، وحث المستخدمين على أن يكونوا متفاعلين إيجابيين ومساهمين في صناعة المحتوى.
- أن تكمن قيمة الإبداع والقدرة الخلاَّقة فيها في قدرتها على صنع منتج جديد أو خدمات مختلفة، من خلال الدمج، وتعرف القدرة على دمج خدمتين مختلفتين أو أكثر على الشبكة بـ (Mash-ups). ومثالاً عليها، يمكنني أن أنشئ موقعاً لبيع العطلات السياحية، يقوم فيه عميلي الخاص باستخلاص المعلومات من موقع ما يقدم خدمة تأجير السيارات، وآخر لخطوط الطيران، وثالث للفنادق وهكذا، وتجهيزها للعميل على موقعي الذي لن يعرف بأنه في الحقيقة يتعامل مع أكثر من ثلاثة أو أربعة مواقع خدمية وسياحية. طبعاً لا بد أن يكون الطرف المقدم للخدمة قد سمح بذلك قانونياً وتقنياً.
- أن تتميز بسهولة تبنيها واستخدامها.
- قد توفر خدمة السماح بنشر محتواها في موقع آخر مثل ما تفعله المواقع الإخبارية عن طريق إعادة استخدام عناوينها الكبرى، وهو ما يعرف بالتغذية الإخبارية (News Feeds) باستخدام تقنية تتيح للموقع أن يخزن هذه العناوين في ملف من هذا النوع، ومن ثم يسجِّله مع إحدى أدوات النشر الخاصة بهذه التقنية (RSS-Publisher). فيستطيع المستخدم الذي يحدد بدوره المواقع التي يريد أن تصله منها رسائل تحديث دورية، وباستخدام أداة قارئة (RSS-Reader or RSS-Aggregator) فإنها ستعمل كما لو كانت صندوق الوارد.

التغيُّر الذي طرأ على «الويب» ليس جذرياً تقنياً أو هيكلياً، بل هو في نظرتنا إلى الشبكة الوظيفية

ومن الصفات الأخرى التي يوصف بها هذا الجيل الجديد من الويب، ميله إلى التخصص في نوع الخدمة المقدمة. بحيث يلائم المستخدم الفرد أو في حالة أخرى عدة أفراد أو مجموعات (ذوي الحاجات الخاصة، أهل تخصص بعينه، مستخدمي لغة بعينها والثقافة التابعة لها، أهل منطقة جغرافية محددة). سواء أكان اختيارياً (بعلم وتدخل المستخدم)، أو تلقائياً من طريق قيام الموقع بمحاولة التكيف والتخصص استناداً إلى كلمات بعينها أو إلى متابعة ما يقوم المستخدم بفعله على ذلك الموقع. فنلاحظ مثلاً أن مواقع مثل غوغل أو ياهو يمكنها اليوم أن تتخصص بحيث تقدِّم لك الأخبار المهمة، ونشرات الطقس، وآخر أسعار الصرف، وأفضل أماكن الغداء.. وغير ذلك، اعتماداً على موقعك الجغرافي. بل سيلاحظ مستخدمو بريد غوغل مثلاً، كيف أن محتوى الإعلان الذي يعرض في أحد جوانب الصفحة له علاقة بطريقة أو بأخرى بمحتوى الرسالة. فحين أرسل رسالة لصديقتي أخبرها فيها عن دورة في فن التصوير الفوتوغرافي، فيجب ألاَّ أفاجأ حين أجد قائمة جانبية بدورات في هذا الفن. والذين يزورون موقع النيل والفرات أو أمازون باستمرار سيلاحظون أن رسالة إلكترونية تصلهم عادة على بريدهم، أو تظهر لهم دعاية لدى زيارتهم الموقع تخبرهم عن مطبوعات أو منتجات جديدة، لها علاقة أو ارتباط بمنتج سبق واشتروه أو موقع تصفحوه.

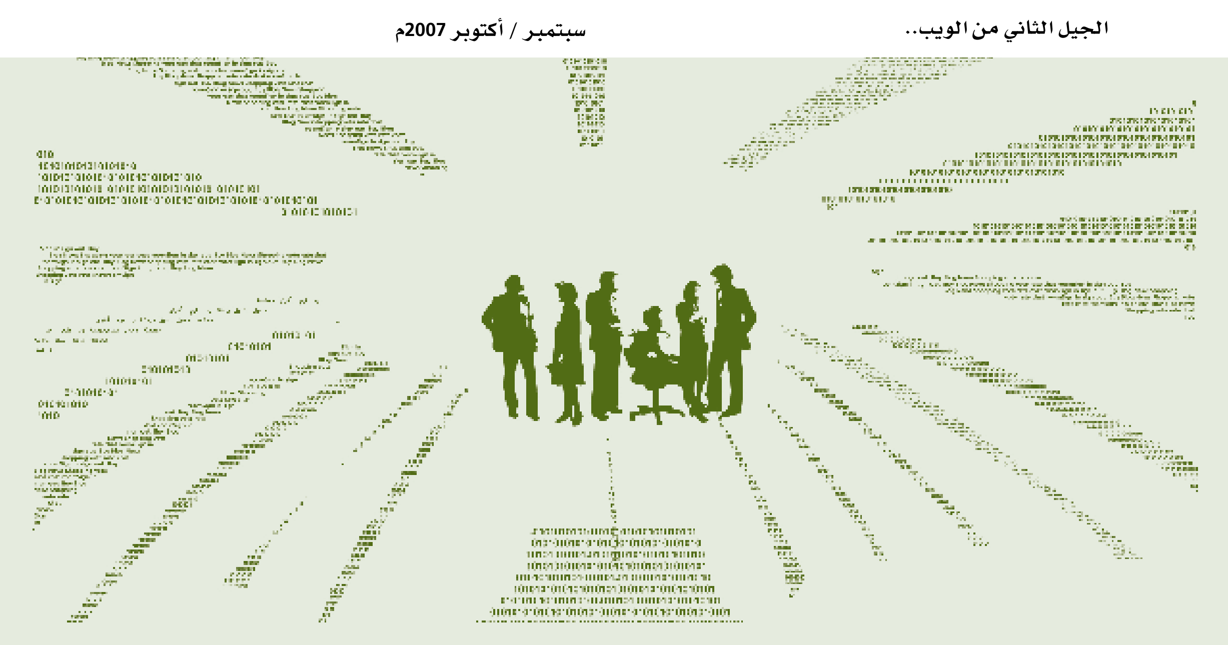
تطبيق الجيلين

الجدول التالي يعقد مقارنة سريعة بين بعض أوجه التطبيق من الجيلين:

Web 2.0	Web 1.0
Google AdSense	DoubleClick
Flickr	Ofoto
BitTorrent	Akamai
Napster	mp3.com
Wikipedia	Britannica Online
blogging	personal websites
upcoming.org and EVDB	evite
search engine optimization	domain name speculation
cost per click	page views
web services	screen scraping
participation	publishing
wikis	content management systems
tagging («folksonomy»)	directories (taxonomy)
syndication	stickiness

في مجال التعلُّم الإلكتروني

التعليم الإلكتروني الذي يعد من أشهر أوجه تطبيق الويب، لم يقف متفرجاً أمام هذا الموجة الجديدة، بل سارع بدوره لركوبها. فظهر لدينا مصطلح (e-Learning 2.0). وفي هذا النوع من التعليم، يصبح المتعلم أو الدارس ذاته هو مركز اهتمام العملية التعليمية بشكل كبير. فهو يتلقى تعليمه ضمن بيئة تعليمية متكاملة. وفي هذه البيئة لا تُعرض المادة التعليمية وحسب كما كان الأمر في الماضي، بل هي توفر أيضاً خيارات تفاعلية، لمساعدة المتعلم الفرد ودعمه من طريق المشاركة مع الآخرين. فتوفر أدواتٍ مثل المنتديات الإلكترونية، وغرف المحادثة، والتعقيب على إسهام طالب ما، وإمكان إضافة معلومة بينها من قبل متعلم ما، والتعديل أو التعقيب عليها من زميله، وإمكان إضافة محتويات ومواد تعليمية من خارج الموقع مثل وصلات لمواقع أخرى، أو أجزاء من دورات أخرى (إن كانت تلك الأخيرة تسمح بذلك قانونياً وتقنياً)، وإمكان تنظيم ورش عمل، والتفاعل مع المعلم، ومتابعة التقدم، وملاحظة كشف الدرجات الخاص، وغيرها. فيعطى الطالب حرية الخيار لأن يشارك في موضوع ما في المنتدى الإلكتروني، ثم يشارك في موضوع آخر مثلاً في إحدى غرف الدردشة، حسب حاجته العلمية والمعرفية. فهذه التجربة التفاعلية مع الأقران والمعلمين قد تعطي ثماراً تعليمية أفضل من المحتوى المعروض نفسه، الذي ربما يمكن الحصول عليه من كتاب



موجود على رف مكتبة ما، بينما وجود من يجيب عن أسئلتك، ويشرح لك، ويبادلك خبرته، أمورٌ يصعب الحصول عليها خارج الصف الدراسي، وهذا ما كان يجعل التعليم الإلكتروني في مرتبة أدنى من ذلك التقليدي، ويعتقد أن أبواب التطبيق الجديدة هذه ربما هي قادرة على أن تسد هذه الفجوة.

انتقادات

يتركز الانتقاد الموجه إلى أوجه تطبيق الجيل الثاني للويب على النقطة نفسها التي أعطته تميزه، وهي إتاحته الفرصة لجميع مستخدميه للإسهام في صنع المعرفة. إذ تثير هذه الحقيقة قلق الكثيرين وخاصة المتخصصين الذين يرون أن هذا الجيل يدعو إلى فكرة تسيّد العوام على أهل الاختصاص، وهو أمر له خطورته برأيهم. وقد نشرت «القافلة» (مارس- أبريل 2006)، تحقيقاً عن صدقية المعلومات على ويكيبيديا، وعرضت رأيين بهذا الخصوص، والأمر نفسه ينطبق على بقية وجوه التطبيق التفاعلية التي يستطيع أن يقوم فيها أي فرد بالتسجيل، وإضافة معلومات تحتمل الصحة أو الخطأ بالدرجة ذاتها. فهناك فريق يرى أن استخدام طالب ما لويكيبيديا مثلاً ليأخذ فكرة سريعة عن معنى مصطلح ما، أو بحثاً عن خيط أولي لفهم معلومة ما أمرٌ لا بأس به، لكن أن تصبح هذه الموسوعة المجانية التطوعية مصدراً أول للمعلومات التي يعد بها بحوثه وواجباته، فهذا أمرٌ خطيرٌ ومرفوض. ويقدِّم هؤلاء أمثلة (وإن كانت قليلة) على معلومات بعينها استخرجت من ويكيبيديا مثلاً وكانت مشوشة، أو غير مكتملة، أو متناقضة أحياناً لكونها من تأليف عدة أشخاص.

لكن الفريق المقابل الذي يدعم مشاركة العامة في صناعة محتوى الويب، لا يريد أن يدفع باتجاه إعطاء المستخدم حرية القراءة والكتابة فقط، وإنما أن يجعله هو شخصياً يتحمل مسؤولية تقييم المادة المعروضة ومدى صدقيتها. ولعل أصحاب هذه النظرة يرون أن القدرة على تقييم صدقية خبر أو معلومة معينة، هي مهارة لا تختلف في العالم الافتراضي عنها في العالم الواقعي. فلو اننا كنا نشكو علة ما ونصحنا شخصٌ ما غير متخصص بتناول دواء غريب أو مبيد حشري، فإن الكثرة منا سترفض ذلك تماماً، وستأخذ برأي المتخصصين في الأمور الخطرة والمهمة. إذن فلو انني وضعت السؤال نفسه على موقع (Yahoo!Answers)، وجاءني الجواب ذاته، فلا أتوقع أنني سأتناول ما اقترحه شخصٌ مجهول على موقع شبكي!

وإلى جانب الانتقاد الموجه إلى أوجه تطبيق الـ Web 2.0، هناك انتقاد آخر يوجه للمصطلح نفسه. وكان أحد الذين طرحوا التساؤل عما إذا كان استخدام مصطلح Web 2.0 مناسباً هو السير تيم بيرنرز لي، مبرمج الويب، ومصمم لغة (HTML)، حين كان يعمل بمعهد أبحاث سيرن للفيزياء بسويسرا. فالمصطلح يوحي،كما سبقت الإشارة في هذا المقال، أن هناك تغيّراً جذرياً تقنياً أو برمجياً أو هيكلياً في الويب، بينما الحقيقة هي أن الذي تغيَّر كثيراً هو نظرتنا للويب، وطريقة استخدامنا له، وتفاعلنا من خلاله. كما أن كثيراً من الأفكار التي صار ينظر إليها على أنها من صفات الجيل الجديد، كانت موجودة عند إنشاء الويب وإطلاقه أول مرة قبل أكثر من عقد من الزمن. ولعل أبرز مثال تذكره عدة مصادر هو ما يتعلق بتمكين الجمهور والمستخدمين من إبداء الرأي، والإسهام في إثراء الموقع أو الخدمة، هو موقع أمازون الشهير لبيع الكتب. فمنذ ظهوره إلى حيز الوجود في العام 1995م، أتاح للقارئ مثلاً أن يضع تقييمه بشأن كتاب ما، بحيث لا يجد الراغب في شراء هذا الكتاب فقط تقييم دور النشر أو الموقع للكتاب، بل تقييم قارئ آخر مثله.

عموماً، يبدو أن هذا المصطلح صار واقعاً، فهناك أوراق بحث علمية عديدة، نُشرت في دوريات علمية رصينة وشهيرة، تستخدم هذا الاسم، وكذلك فإن عدداً من المؤتمرات العلمية المتخصصة استسلمت بدورها له، وصار على جدول أعمالها بهذا الاسم، حتى إشعار آخر على الأقل.

قصة ابتكار

مسّاحة زجاج السيارة

قد تكون بسيطة جداً مقارنة مع غيرها من المخترعات، ولكنها ذات منفعة كبيرة إذ لا بديل لها في إزالة مياه المطر التي تحجب الرؤية الواضحة اللازمة للسائق أثناء القيادة.

وقد لا يخطر ببال الكثيرين أن يكون لهذا الجزء البسيط من السيارة تاريخ عريق. إذ ظهرت مسَّاحة الزجاج منذ السنوات الأولى بعد ظهور السيارة، وكان ذلك في عام 1903م، عندما صمَّم المخترع أبجون مسَّاحة على شكل فرشاتين تتحركان على الزجاج عمودياً.

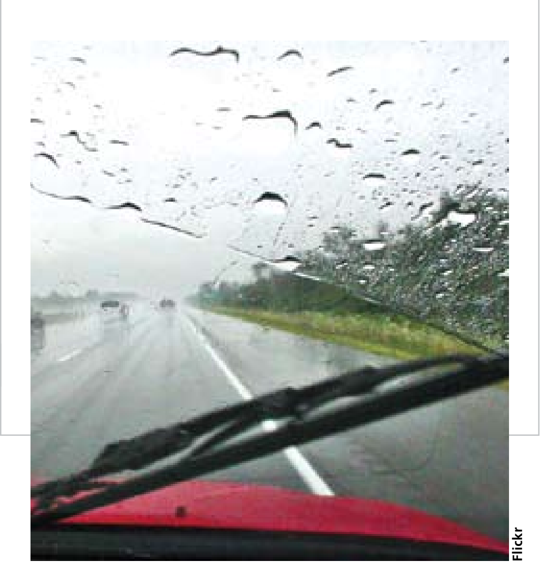
وفي شهر نوفمبر من السنة نفسها، كانت المخترعة ماري أندرسون في رحلة إلى نيويورك حيث لاحظت أن سائقي السيارات يضطرون إلى الخروج من سياراتهم لمسح الثلوج والشوائب الأخرى التي تعلق على الزجاج الأمامي. فاخترعت جهازاً يمكن التحكم به من داخل السيارة لمسح كل الزجاج من جهة الخارج.

كانت مسَّاحة ماري على شكل ذراعين متحركين، زوَّدت كلاً منهما نصلاً مطاطاً يلامس بكل طوله زجاج السيارة. ولكن، لأن السيارات لم تكن منتشرة آنذاك، لم يُعِر أحد اهتماماً لهذا الابتكار. كذلك لاقت المبتكرة الكثير من السخرية بين أصدقائها وكل من عرف بما صنعته. إذ وجد هؤلاء أن هذا الابتكار غير عملي، بل قد يكون مضراً وخطراً طالما أنه سيشغل السائق عن قيادة السيارة بتركيز اهتمامه على هذه المسَّاحات.

ومع انتشار السيارات انتشاراً أوسع، وبعد تجارب عديدة والبحث عن حلول لمواجهة مشكلة حجب الرؤية بفعل مياه الأمطار، تبنت شركة فورد ابتكار ماري أندرسون في كل السيارات التي تنتجها.

وبعد ذلك عملت الأمريكية شارلوت بريدج في تطوير المسّاحة اليدوية لكي تصبح كهربائية. وفي عام 1917م، اخترع طبيب الأسنان أورماند وول جهازاً للتحكم بعمل المسّاحة بواسطة زر داخل السيارة.

وحُسِّنت مسّاحة الزجاج كثيراً لاحقاً. ففي عام 1962م، ابتكر بوب كيرنز جهازاً يسمح للسائق بتحديد سرعة المسّاحة وفق غزارة المطر. وفي التسعينيات، استفادت المسّاحة من التطور التكنولوجي، فزُوِّدت نظام تحسس يكشف من تلقاء نفسه إذا كان هناك مطر على الزجاج، فينشط المسّاحات من تلقاء نفسه.

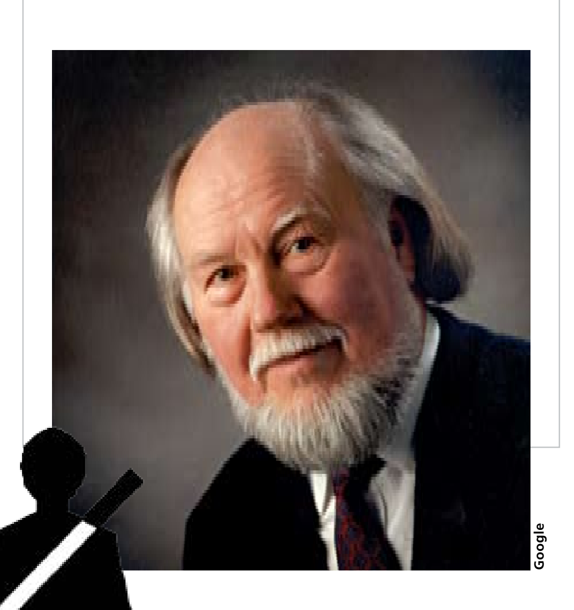

Flickr

وهكذا خلال قرن من الزمن، أصبح الابتكار الذي أثار السخرية وقت ظهوره، أداة لا غنى عنها في أية سيارة في العالم. حتى أن بعض الشركات تبنته لزجاج السيارة الخلفي ومصابيحها أيضاً.

قصة مبتكر

نيلس بوهلين

مبتكر حزام الأمان..


Google

«كثير من المخترعات التي تجعل حياة الإنسان أفضل. وكنت محظوظاً لعملي في مجال الهندسة حيث الاختراع لم يطوِّر حياتنا فحسب بل يحافظ عليها أيضاً». هذا ما يقوله نيلس ايفار بوهلين.

ولد نيلس ايفار بوهلين في هارنوساند بالسويد في 17 يوليو من عام 1920م. حصل على درجة البكالوريس في الهندسة التقنية سنة 1939م. وبدأ العمل في شركة لتصميم الطائرات سنة 1942م. وبعد ست عشرة سنة تقلَّد منصب مهندس السلامة والأمان في شركة فولفو للسيارات في مدينة غوتينبرج السويدية. وفي عام 1959م، تقلَّد منصب مدير قسم السلامة في الشركة نفسها.

في هذه الأثناء، كان بوهلين يهتم بإيجاد طرق عملية لتقليل عدد الجرحى والقتلى أثناء حوادث الطرق في كل من السيارات والشاحنات. ومن أهم ماصممه في هذا المجال حزام الأمان المثبت في ثلاث نقاط، لتثبيت الجزء العلوي والسفلي من جسم الإنسان على المقعد في مكان واحد، فإذا حصل أي حادث لا يرتطم جسم السائق بالسيارة.

وطبعاً، كانت أول سيارة يستخدم فيها هذا الحزام هي سيارة فولفو من طراز بي في 544. ورفض بوهلين استخدام حقه التجاري في هذا الاختراع وسمح لجميع شركات السيارات باستخدامه. ومنذ ستينيات القرن الماضي، بدأت القوانين في بعض دول العالم تفرض على السائق ربط حزام الأمان، وما هي إلا سنوات معدودة، حتى أجمعت على ذلك القوانين في معظم دول العالم.

يعد اختراع بوهلين هذا واحداً من أهم المخترعات في مجال صناعة السيارات، إذ أدى إلى تقليل عدد الجرحى والقتلى الناتج من حوادث المرور. فقد أصدرت شركة فولفو عام 1966م، تقريراً يفيد أن عدد الجرحى والقتلى انخفض بنسبة 75%. كذلك اختير اختراعه واحداً من أهم تسعة مخترعات في حياة البشرية في القرن الفائت.

تقلد بوهلين عدة مناصب في الشركة، منها مدير قسم التطوير والأبحاث المركزي ورئيس المهندسين، وانتخب لينضم إلى «منظمة الأمان العالمية» وغيرها من المناصب المهمة. ونال الكثير من الجوائز على هذا الاختراع، منها جائزة الأكاديمية الملكية السويدية لعلوم الهندسة وجائزة «هندسة أمان المحركات» وغيرها.

تقاعد بوهلين سنة 1995م وقضى بقية حياته في مزرعته براتبول حتى توفي عن 82 سنة بنوبة قلبية مخلفاً وراءه 5 أبناء. ومن أهم أقواله التي كان يرددها دوماً «إن من أهم دواعي سروري أن ألتقي شخصاً يقول لي إن حزام الأمان حافظ على حياة أهم الأشخاص لديه».

اطلب العلم

اعتدت أن أقرأ مجلة علمية محددة تصدر شهرياً في فرنسا، لا لمتابعة قضايا معينة، بل لمجرد الاطلاع على ما يجري حولنا في دنيا العلم والمخترعات. ومثل معظم قرَّاء أية مجلة، أقلب الصفحات وأقرأ العناوين. ولا أغوص في قراءة النصوص إلا تلك التي تثير اهتمامي أكثر من غيرها.

حال العلم في شهر واحد

الدكتورة علياء الزيني*

العدد الأخير من هذه المجلة خصص غلافه لما يجري في عالم الفيزياء، ما اكتُشف حتى اليوم، وما ينتظر الاستكشاف. ولأن الفيزياء تشد اهتمامي كثيراً، فقد اكتفيت بقراءة المقدمات في الموضوعات الطويلة التي شملها ملف العدد. غير أنني وجدت نفسي مدفوعة إلى قراءة المجلة بعين مختلفة، أن أقرأها وكأنها مقال واحد يعبِّر عن حال العلم في العالم خلال هذا الشهر. وكانت النتيجة مدهشة.

أدهشني تنوع المجالات التي شهدت مبتكرات ومخترعات ومكتشفات جديدة خلال شهر واحد (بما أن المجلة شهرية). آلات تصوير رقمية جديدة تتميز بتحسين إضافي على الطرز التي كانت جديدة خلال الشهر الأسبق، نظرية جديدة تربط العواصف فوق القرن الإفريقي بالأعاصير التي تضرب سواحل أمريكا، جوارب جديدة تبرد القدمين وتمنع التعرق، أحذية رياضية موصولة بالقمر الصناعي لطلب النجدة في حال تعرّض المغامرين للخطر أو الضياع، دواء جديد لعلاج تضخم الموثة (البروستاتا)، كيف تخترق حبة القمح سطح التراب عند زراعتها، طرز جديدة من الدراجات الكهربائية، عوازل حرارية للبيوت، معدات لمعالجة الهيدروجين في مياه الشرب لتحسين الدورة الدموية، العربة القمرية التي تبنيها الصين، والعربة المريخية التي تبنيها أمريكا، وصلة جديدة لربط جهاز الحاسوب بساعة يد رقمية جديدة.. والكثير الكثير غير ذلك، على الرغم من أن الشهر الذي سبق صدور المجلة لم يكن استثنائياً في تاريخ العلم بشيء.

في ملف هذا العدد، الفيزياء، تناولت موضوعاته توزع هذا العلم على مجالين، أولهما ذو مقاييس عملاقة: الفضاء الخارجي والكون والمجرات والثقوب السود، والثاني دقيق المقاييس لا يرى إلا بالمكبرات الإلكترونية وهو على مستوى الذرات والجزيئات.

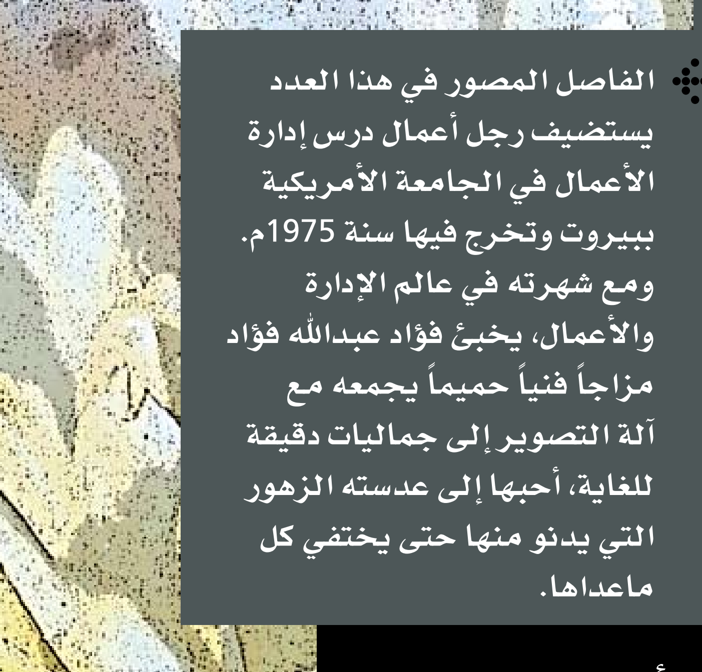
ولكن بين هذين العالمين يبدو أن المجال يتسع تماماً للعلم كي ينشط بصخب وينتج في مجالات الحياة كافة من دون استثناء يذكر. وهو كان كذلك خلال الشهر الذي سبق طباعة المجلة.

الأسئلة التي تثيرها هذه الملاحظة أكثر من أن تحصى، وقد يكون أبسطها هو هل يستطيع العالم أن يستوعب ويستهلك هذا المقدار من المبتكرات؟ وكيف ستكون حياتنا اليومية بعد عشر أو عشرين سنة؟ العلم والخيال العلمي يحاولان رسم الصورة. ما يهمنا هنا هو العلم نفسه وصورته.

العلم الذي يظنه البعض مجرد شهادة جامعية هنا، أو مركز أبحاث هناك، أو جملة قرارات هنالك، هذا العلم في الواقع منظومة متكاملة، أو قل إنه أقرب إلى أن يكون حالة عامة تنجم من تطور زوايا الحياة الاجتماعية والنشاط الذهني في اتجاه مشترك واحد: الحصول على مزيد من المعرفة لجعل حياتنا أفضل.

* كاتبة عربية مقيمة في باريس

الملف المصور
فؤاد عبدالله فؤاد

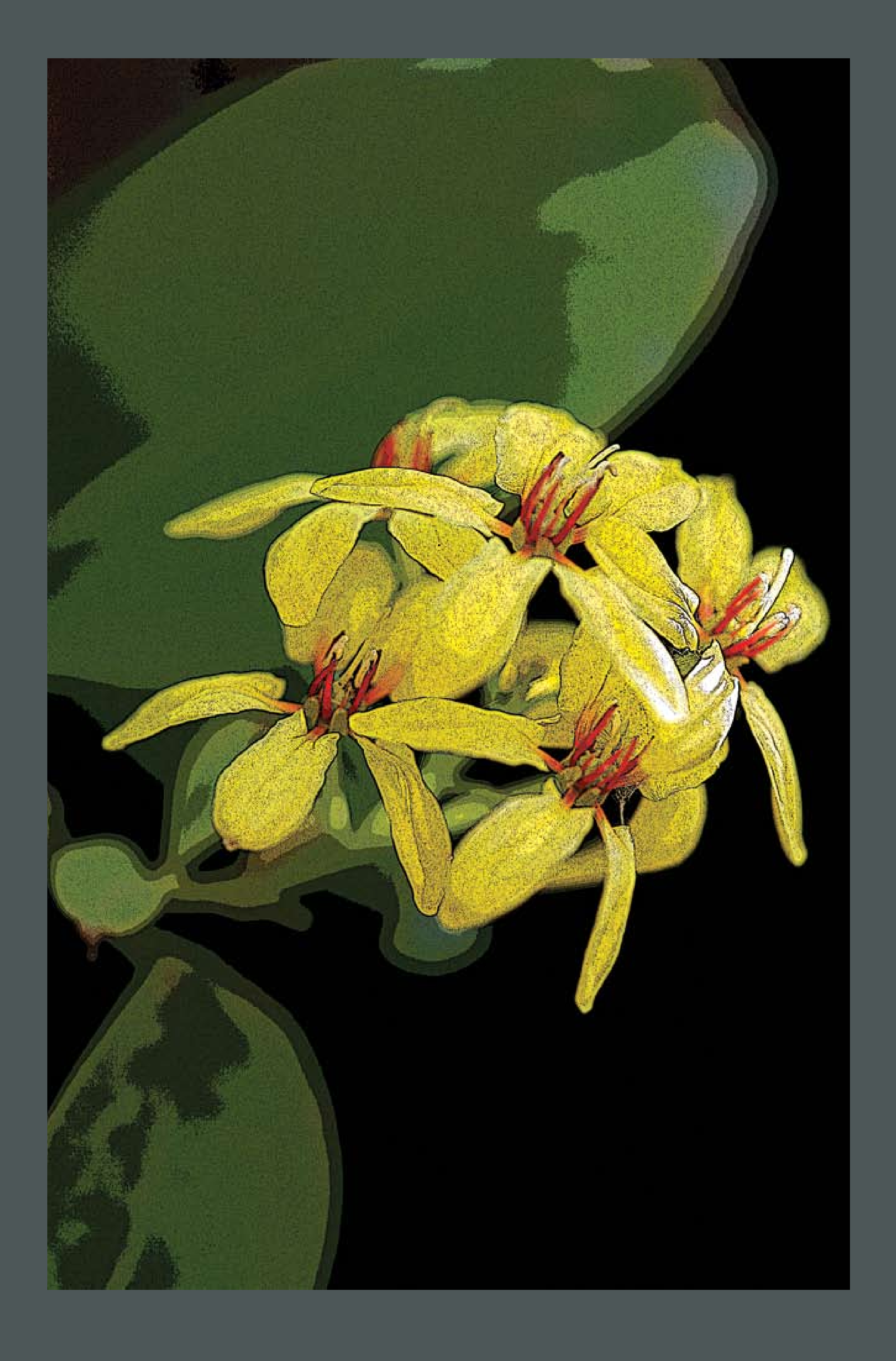


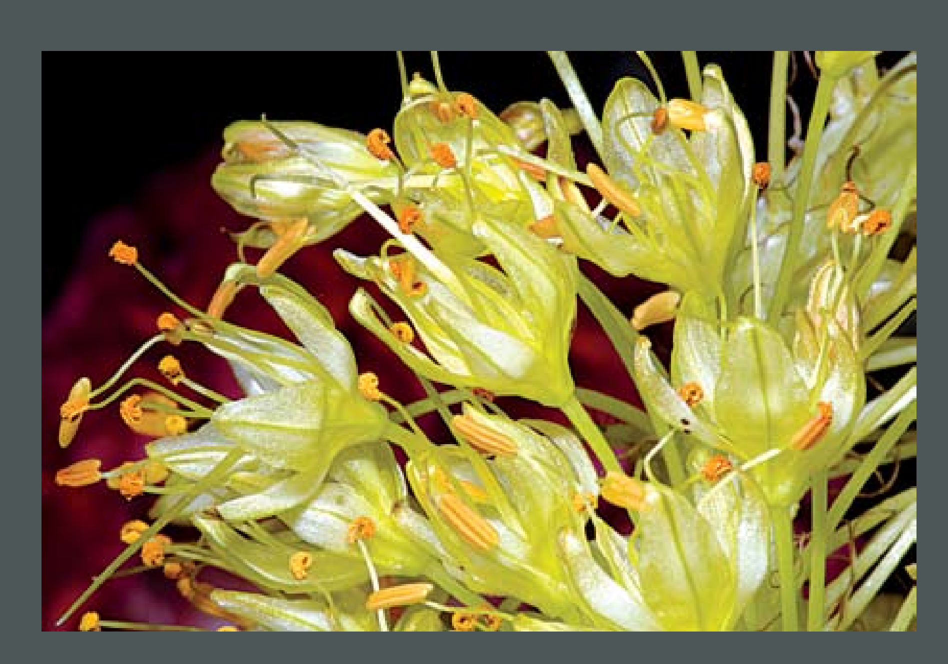
الفاصل المصور في هذا العدد يستضيف رجل أعمال درس إدارة الأعمال في الجامعة الأمريكية ببيروت وتخرج فيها سنة 1975م. ومع شهرته في عالم الإدارة والأعمال، يخبئ فؤاد عبدالله فؤاد مزاجاً فنياً حميماً يجمعه مع آلة التصوير إلى جماليات دقيقة للغاية، أحبها إلى عدسته الزهور التي يدنو منها حتى يختفي كل ماعداها.

ألحان عذبة!
على شاكلة ألوان
واللون لحن..

رأيت زهرة
ولم أر غصنها.
فاقتربتُ واقتَرَبَتْ
فلمستُ رحيقها.

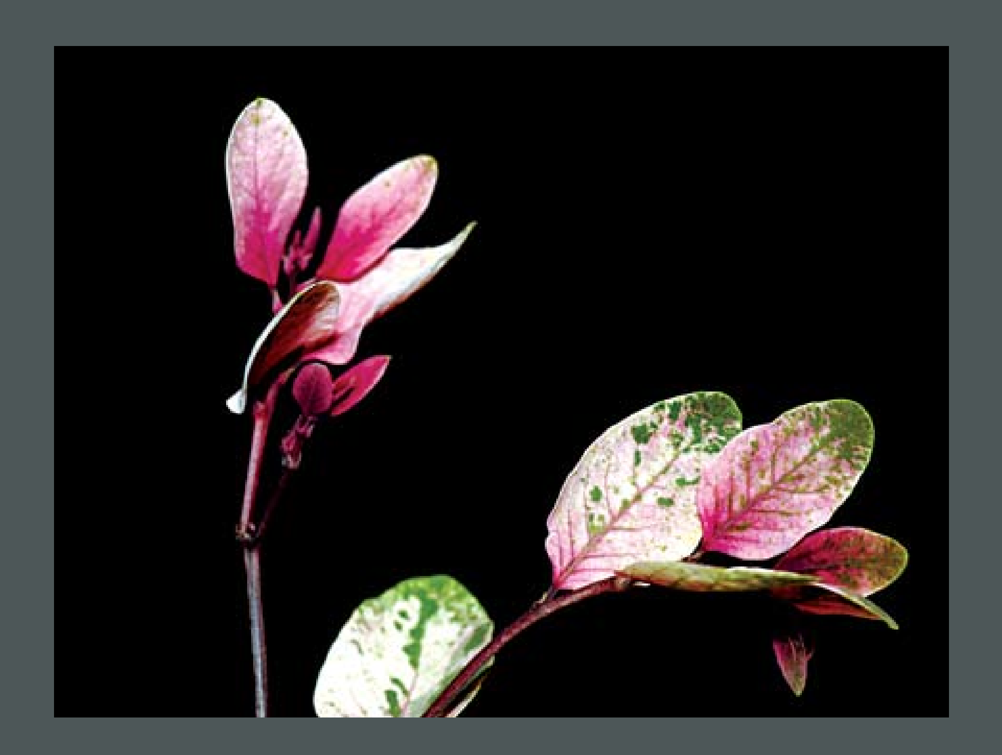
فتضرّعَتْ
وتضرعتُ معها،
ما أجملها.
أنشودة ريحان.









بين لمستين..!

نادراً ما يستوقفنا دور الفن في حياتنا أو حجم حضوره. علماً أن كل ما هو حولنا تقريباً يكاد يكون قد دخله فن ما أو أضيفت إليه «لمسة فنية»، أدركنا ذلك أم لم ندركه، أردناه أم لم نرده.

فاللمسة الفنية بتعريفها الفضفاض تعد في دنيا الصناعة والإنتاج والعمران قيمة مضافة. إما أن تزيد من قيمة المنتج أو تجعله أكثر رواجاً على الأقل، وذلك بحسب تقدير منتجيها. فألوف المنتجات التي تقع عليها أعيننا كل يوم كان يمكن استخدامها بشكلها المجرد البسيط، لكنها خضعت جميعها «لعمليات تجميل»، صغيرة كانت أم كبيرة، موفقةً كانت أم لا: بدءاً من فنجان القهوة والقلم والمعلبات المختلفة مروراً باللباس والمعدات على أنواعها وصولاً إلى المباني والجسور وغيرها.

خضعت كلها لجهد تجميلي يتوَّج بلمسة فنية. لدرجة نستطيع معها أن نعتبر، دون مبالغة كبيرة، أننا محاطون بلمسات فنية بقدر ما نحن محاطون بأشياء.. فانظر حولك تَرَ!

ومع ان التنافس التجاري في أيامنا هذه، هو الذي أطلق حمَّى التصميم وتجديد التصميم المستمر شرطاً أساسياً من شروط السباق لتصريف المنتجات، إلا أن هذا لا يعني أن الرغبة في أن تكون للأشياء لمسات فنية حالة مستحدثة في عصرنا الحاضر. فهي لا تتعدى محاولة بأسلوب عصرنا للاستفادة القصوى من رغبة متجذرة في نفس الإنسان، وقديمة قدم الإنسان نفسه. إذ ان الرغبة في تصريف البضائع كانت عبر العصور تدفع منتجيها إلى تجميلها، أو تحسين مظهرها.

وعوداً على بدء، فلا غرابة في أن نتخيَّل الإنسان القديم وقد خطر له في لحظة تأمل أن يزيِّن عصاً يستخدمها، أو حجراً يقطع به، أو لاحظ أن فروة فريسة ملقاة أمامه أجمل من أخرى فهمَّ بلبسها. وربما كان يدفعه لذلك، إضافة إلى الرغبة التجميلية، السعي إلى إضفاء شيء من الرونق على أدواته ولباسه من باب الاعتزاز والتنافس مع الآخرين.

وفي زحام الأشكال والألوان في حياتنا المعاصرة والتسابق على التفنن في تجميل المنتجات، نجد بما يشبه الصدفة الحسنة أو المفاجأة المفرحة عملاً يحتفظ بنقاء اللمسة الفنية الأصيلة إذا صح التعبير. وعلى الرغم من أن هذه عادة ما نصادفها خارج المنتجات التجارية الواسعة الانتشار، إلا أن أصحاب هذه المنتجات ينجحون أحياناً بصيد «لمسة فنية» عالية الأداء محافظة على عذرية الإبداع الأول. وفي هذه الحالات، على قلتها، تتحوَّل هذه اللمسة الفنية إلى دافع بيع قد يفوق كل توقع.

للمسة الفنية الحقيقية وقع غريب في النفوس ومفاجئ أحياناً!

ويعجب المرء، وخاصة العامل في حقل الفنون، كيف يلاحظ الناس هذه اللمسات الأصيلة ضمن الزحام، وكيف ينفعلون أمامها ويفرحون بها ويسعون إلى امتلاكها بشكل أو بآخر. ويعجب أكثر بقدرتهم العنيدة أحياناً على التمييز بين هذه اللمسة الفنية وأخرى فاقدة لهذه الذروة من الإحساس على الرغم من تشابههما!

وإذا كان الفن حسّاً إنسانياً متنقلاً بإحدى أدواته.. بالشكل أو اللون أو الصوت أو الكلام فإن مشاعر الناس ملتقطة له، متمسكة به، مقدِّرة له دوره بل ومستكثرة بخيره.

ربما لا يستوقف الناس كثيراً دور الفن وحجم حضوره. أما الشركات فعرفت هذا.. واستفادت منه.

وربما هذا سيزيد قيمة «اللمسة الفنية» بمرور الوقت. أوَلَيست اللمسة الفنية في كرة القدم هي صانعة المبالغ الكبيرة تلك؟


كميل حوا

صامدة رغم بعض التحوّل

العادات الرمضانية في مواجهة الحياة العصرية

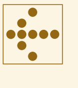




في ظل الصوم خلال شهر رمضان المبارك، هناك عادات وتقاليد تزخرف الحياة اليومية للصائمين وتضفي عليها نكهتها الخاصة المميزة. منها ما هو موغل في القِدَم. ومنها ما يتجاوز الألف سنة. والكثير منها مشترك ما بين معظم أصقاع العالم الإسلامي، وإن كان لبعضها مكانة أكبر هنا مما هي هنالك. ولكن بعض هذه العادات والتقاليد واجه في العصر الحديث ظروفاً جديدة، كان معظمها ناشئاً من نمو المدينة الحديثة وتضخمها، واقتحام التكنولوجيا لحياتنا اليومية، وبداية تسللها منها إلى عادات وتقاليد عريقة. حول مظاهر هذا التحوّل يحدثنا إبراهيم السحيباني[1] وياسين سراي الصويلح[2].

GettyImages

1 كاتب سعودي
2 باحث سوري



يمكن لكل من بلغ الأربعين أو الخمسين من العمر أن يلحظ اليوم بعض التبدل الذي طرأ على العادات والتقاليد وبعض الطقوس الاجتماعية التي تميِّز الحياة اليومية خلال شهر رمضان المبارك.

ويمكن للائحة المتغيرات هذه أن تطول بنسب مختلفة بين مكان وآخر. سواء أكانت هذه التقاليد عريقة أم مستجدة استنبتتها الحياة العصرية، فإنها تنبع كلها من مصدر واحد: الرغبة في التعبير عن البهجة بحلول الشهر الفضيل، وتمييز محطات الحياة اليومية خلاله، التي تبقى قبل كل شيء أيام صوم وتعبد تقرباً إلى الله عز وجل.

اللافت في مظاهر هذا التحوّل هو أنها تطال في بعض الأحيان تقاليد قديمة جداً صمدت عصوراً وعصوراً، وهي تتضمَّن ظهور بعض التقاليد الجديدة، بعضها جيد وجميل، وبعضها الآخر يمكنه أن يكون أفضل.

ويروي المستشرق الإنجليزي إدوارد لين مشاهد رؤية الهلال في مصر عندما زارها سنة 1240هـ فيقول: إن العادة جرت في مصر ليلة الرؤية أن يسير موكب المحتسب ومعه أصحاب الحِرَف كالطَّحانين والخبَّازين والجزَّارين، تصحبهم فرق الموسيقى وجماعة من الجند. وعند سماع خبر الرؤية، يعود بعض الجند إلى القلعة ويطوف الباقون في أحياء القاهرة وهم ينادون بأعلى أصواتهم: «يا أمة خير الأنام.. صيام.. صيام.. صيام». وقد ظلت عادة الاحتفال بالمواكب منتظمة في مصر حتى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، ثم تلاشت تحت وطأة الضغوط المختلفة.

فاليوم يَرصد الهلال في جميع البلدان الإسلامية جماعة من الناس الموثوق بهم، وتعلن نتيجة الرصد رسمياً دار الإفتاء عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية بالدرجة الأولى.



GettyImages



Corbis

GettyImages

شربات، فوانيس، حلويات.. ليست مجرد سلع بل تعبير عن المزاج الخاص

الميل إلى التبسيط

لو شئنا اختصار الكثير من مظاهر التحوّل التي طرأت على العادات الرمضانية لقلنا إنها تميل إلى التبسيط أكثر فأكثر. ولو بدأنا بأولى هذه التقاليد، ونقصد تلك المتعلقة برؤية الهلال مطلع شهر رمضان لوجدنا أنها كانت تتم في الماضي من خلال مواكب رسمية وشعبية يرأسها القضاة، يعود تقليدها إلى عام 155هـ، عندما خرج قاضي مصر بنفسه لرؤية الهلال بفعل اضطراب وقع الناس فيه إذ أكد بعضهم رؤية الهلال، والبعض نفاها.

مدفع رمضان.. لم يعد مدوياً

تعد مكة المكرمة من المدن القليلة المتمسكة بمدفع رمضان عادة ورمزاً. ويمكن لسكان المنطقةالواقعة شمالي الحرم سماعه وقت الإفطار. أما الأحياء والمناطق البعيدة نسبياً، فعليها أن تعتمد على الأذان لمعرفة وقت الإفطار والإمساك. فنمو المدينة في العصر الحديث واتساع رقعتها بات يتجاوز مدى صوت المدفع، وهذا شأن معظم المدن الكبيرة في العالم الإسلامي.

وتتضارب الحكايات حول نشوء عادة إطلاق المدفع عند الإفطار والإمساك. فهناك من يردها إلى عام 859هـ عندما كان الأمير خوشقدم يتولى حكم مصر، وأهدي إليه مدفع جديد وشاء تجربته. وصادفت التجربة وقت الإفطار، فظن الناس أنها إيذان لهم بذلك. ولما رأى السلطان سرورهم قرر اعتمادها عادة يومية، وزاد على طلقة الإفطار طلقة أخرى للإمساك.

المصابيح الكهربائية التي عمَّت المدن، أفقدت الفانوس وظيفته، ولكنه صمد وتحوَّل إلى رمز ولو من دون ضوء

وهناك من يرد الحكاية نفسها تقريباً إلى عهد محمد علي باشا في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي. ولكن المؤكد خلال الحملة المصرية على بيروت في مطلع القرن التاسع عشر، أن إبراهيم باشا أمر بوضع مدفع فيها، وخصص له جندياً لإطلاق طلقة عند وقت الإفطار ووقت الإمساك والأوقات الخمسة، وكذلك إطلاقه أيام عيدي الفطر والأضحى. أما عشية العيد، فكان المدفع يطلق 21 طلقة إعلاناً لرؤية هلال شهر شوال.

انتشرت فكرة المدفع في معظم مدن العالم الإسلامي.. ولكن النصف الثاني من القرن العشرين لم يرحم المدفع في الكثير من هذه المدن. ففي القاهرة مثلاً حيث نشأ هذا التقليد، توقَّف إطلاق المدفع سنوات عديدة في الستينيات والسبعينيات لأسباب أمنية. وفي عام 1981م صدر قرار عن وزارة الداخلية المصرية يقضي إطلاق مدفع الإفطار من مكانه القديم في قلعة صلاح الدين الأثرية. غير أن الهيئة العامة للآثار اعترضت على ذلك بدعوى أن الطلقات المستمرة تؤدي إلى إحداث اهتزاز عنيف في أساس القلعة وجدرانها، فأمرت الوزارة بنقل مدفعين من المدافع الثلاثة إلى أحد المرتفعات القريبة من المكان، وأبقت الثالث أمام القلعة للذكرى.

وقبل ذلك بسنوات قليلة، كان مدفع الإفطار في المدن اللبنانية قد صمت تماماً بفعل اندلاع الحرب الأهلية، التي حرمت الناس أن يميزوا بين طلقة المدفع الرمضاني وطلقات مدافع الاقتتال. وبعدما انتهت هذه الحرب، عاد المدفع الرمضاني إلى الظهور. ولكن الكثيرين ماعادوا يعتمدون عليه للإفطار والإمساك لأنهم بكل بساطة لا يسمعونه. إذ نمت المدن واتسعت ضواحيها السكنية فلم يعد صوت المدفع يصل إلى جميع أرجائها.



Google

الفانوس..
من الوظيفة إلى الرمز

ظلَّ الفانوس عصوراً طويلة وسيلة الإضاءة الأساسية في المدن الإسلامية وغيرها من مدن العالم. ولكنه تحول تدرجاً إلى رمز من رموز شهر رمضان المبارك. وكانت بداية التحوّل حسبما يروى في رمضان العام 358هـ عندما دخل المعز لدين الله الفاطمي القاهرة ليلاً فاستقبله أهلها بالمشاعل والفوانيس. ثم درجت العادة أن تضاء الشوارع بالفوانيس تسهيلاً لتحرك الناس والنشاط التجاري في الأسواق الذي كان يمتد خلال شهر رمضان إلى وقت متأخر. وبقيت الفوانيس تضيء الشوارع بين الغروب والفجر أيام الشهر الفضيل، حتى ظهور الكهرباء والاعتماد على الإضاءة الكهربائية.

جرَّدت المصابيح الكهربائية الفوانيس من وظيفتها تدريجاً، في الأحياء الغنية من المدن أولاً ثم من الأحياء الشعبية التي وصلتها الكهرباء متأخرة. وما هي إلا سنوات قليلة من القرن العشرين، حتى كانت الإضاءة الكهربائية قد عمَّت كل الأماكن وقضت نهائياً على وظيفة الفانوس. ولكن الفانوس عوّض خسارته هذه بتحوله إلى رمز. أصبح بدوره كهربائياً وبقي يضيء بعض الأماكن مثل المطاعم والمقاهي ومداخل المباني. حتى أن بعض أصحاب هذه

الأماكن العامة يستبدلون مصابيحهم العصرية بالفوانيس خلال ليالي رمضان.

وفي هذا الصدد يروي أحد المسؤولين عن استيراد السلع لسلسلة متاجر كبيرة في المملكة أن عدد الفوانيس الكهربائية التي يستوردها لمتاجر السلسلة يتضاعف كل سنة. فالناس يحبونها ويعدونها أداة جميلة تميِّز حياتهم اليومية ولياليهم خلال هذا الشهر عما يعيشونه خلال باقي أيام السنة.

المسحراتي أقل حظاً من الفانوس، فتضخم المدن تحدَّاه وهزمه، وبات دوره مقتصراً على بعض الحارات المعدودة

وباختصار، لا تحتاج رمزية الفانوس إلى الكثير من الإثبات. إذ يكفي أن نلحظ المجسمات التي تمثله والتي تنتشر في معظم الأماكن العامة خلال شهر رمضان، وظهوره في إعلانات المعايدة في الصحف، وعلى البطاقات وقوائم الطعام وشاشات التلفزيون، لنتيقَّن من أن هذه الأداة التقليدية انتصرت على متغيرات الحياة العصرية، وفرضت نفسها رمزاً دائماً يعزِّز مكانته سنة بعد سنة.

المسحراتي.. أقل حظاً من الفانوس

مرَّ التسحير خلال التاريخ بمراحل عدة كان لكل منها طابعها المتميز. وقبل أن تظهر شخصية المسحراتي التقليدية، كان لكل بلد إسلامي طريقته الخاصة في إيقاظ الناس لتناول السحور.

ففي مكة المكرمة، كان التسحير يتولاه المنادون، يصعدون أعلى جبل أبي قبيس وينادون بالسحور، ويستمرون في قراءة القرآن الكريم حتى يحل وقت الإمساك. كذلك كان التسحير في مكة المكرمة يتولاه المؤذنون، إذ كان مؤذن الحرم المكي يتولى هذه المهمة من أعلى المئذنة الموجودة في الركن الشرقي من الحرم، لقربها من دار أمير مكة، ومعه أخوان يجاوبانه ويقاولانه، ويرد عليهم المؤذنون من سائر المآذن مذكرين ومحرضين على السحور. وظهر لاحقاً في مكة المكرمة «الزمزمي» الذي كان يقوم بعمل مشابه لما يقوم به المسحراتي، وإن كانت تفاصيل عمله تختلف بعض الشيء.

وإذا ما انتقلنا إلى بغداد، نجد أنه شاع في العصر العباسي تغني الناس بنوع من الشعر يدعى «القوما». وقيل إنه سمي كذلك بسبب قول البعض «نياما.. قوما قوما للسحور». أنشأ هذا اللون من الشعر الرمضاني رجل بغدادي يدعى أبو نقطة. وكان الخليفة الناصر لدين الله العباسي قد أعجب بصوت هذا الرجل ورصانة عباراته، فكافأه على ذلك



StockXchange

الهاتف الجوال دخل على خط تبادل التهاني بالصوم والعيد


Flickr

الفانوس.. صناعة لن تنقرض


GettyImages

بأن كلَّفه بوظيفة سنوية هي إيقاظ الناس عند السحور. أما في الجزائر والمغرب وتونس فقد كان التسحير من طريق الأذان ثلاث مرات: مرة لإيقاظ الناس، وأخرى للتنبيه، والثالثة إيذاناً بالإمساك.

وبمرور الوقت، تطور التسحير، وظهرت شخصية المسحراتي التقليدية، الذي يوقظ الناس لتناول السحور من خلال التجول في الشوارع والحارات، والمرور أمام البيوت وهو يحمل طبلته التي يدق عليها بين الحين والآخر، مردداً بعض الأناشيد التي تحمل في طياتها النصح والإرشاد والتذكير بفضائل الشهر الكريم.

وبلغت مكانة المسحراتي في بلاد الشام شأناً لم تبلغه في أي مكان آخر. ففي دمشق مثلاً، تزايد عدد المسحراتية مع اتساع المدينة، حتى أصبح لكل حي المسحراتي الخاص به. وأصبح التسحير مهنة لها أعراف وتقاليد. فجميع العاملين فيها ينضوون في تنظيم على غرار ما كان لسائر الحِرف والصناعة الدمشقية. فهناك شيخ الكار، وهو الشخصية الأولى في التنظيم ويحتل قمة الهرم من حيث التسلسل الوظيفي، ومنصبه وراثي، وهو المسؤول عن كل ما يخص مهنة التسحير. وهناك النقيب، وهو الذي ينوب عن شيخ الكار في حال غيابه، بالإضافة إلى قيامه بالدوريات على مناطق المسحراتية للتيقن من عدم تقصيرهم في عملهم. بعد ذلك يأتي الشاويش والعضوات (الأعضاء) الذين يحلّون المشكلات التي قد تنشب بين المسحراتية، أو ينوبون عمن يتغيب عن عمله لسبب أو لآخر.

وفي القدس، كان المسحراتي يطوف في الشوارع والأزقة والحواري، ضارباً طبلته، ومردداً كلماته المعتادة، شأنه شأن أقرانه في المدن العربية. وقد أصبح بعض المسحراتية في فلسطين من تراث المدن والقرى، والتصقت أسماؤهم بذاكرة الناس، يذكرونهم كلما استطاعوا الحديث عن الماضي وتقاليده. وكثيراً ما كان لبعض المسحراتية نشاط آخر. فقد كان بعضهم يجيد تغيير صوته وسحنته أثناء الكلام، ويلعب دوراً مهماً في نقل الرسائل بين القادة الفلسطينيين أثناء ثورة 1936-1939م. وكذلك بين القادة في الداخل، وبعض القادة الهاربين من بطش الإنجليز إلى دمشق وبيروت وبغداد.

استمر المسحراتي في أداء مهمته حيثما وجد حتى العقود الأخيرة من القرن العشرين، حينما اصطدم بتوسع المدن إلى ما يفوق قدرته على أن يجوب شوارعها. حاول بعضهم أن يستنجد ببعض معالم الحياة العصرية لمواجهة بعضها الآخر. ففي طرابلس لبنان المعروفة بمحافظتها على



القطايف.. حلوى خاصة بشهر الصوم

التقاليد، لجأ المسحراتي إلى ركوب سيارة مكشوفة تعينه في أن يجوب أكبر قدر ممكن من شوارع المدينة الحديثة، وهو يقرع على طبلته ويردِّد أناشيده. وبقيت أزقة المدينة القديمة وحدها تستيقظ على إيقاع موكب السحور الذي يضم أكثر من طبل ومجموعة من الرايات يحملها الصبية المرافقون للمسحراتية. ولا تعرف أحياء كثيرة من المدينة الحديثة شيئاً لا عن الموكب ولا عن ذاك الذي يستقل السيارة. بل تعتمد مثل سكان معظم المدن على المنبه في الساعة الإلكترونية أو في الهاتف الجوَّال.

المائدة في رمضان

يفرض الصوم إعطاء وجبة الإفطار (والسحور) اهتماماً خاصاً لتعويض الجسم مما افتقده طول النهار من أطعمة صلبة مغذِّية وسوائل. فظهرت خلال مئات السنين شخصية مميزة للمائدة خلال شهر رمضان، تختلف اختلافاً ملحوظاً عن المائدة اليومية خلال الأيام الأخرى.

وتختلف شخصية هذه المائدة اختلافاً كبيراً بين بلد وآخر، وأيضاً تقاليدها. ففي شبه الجزيرة العربية اعتاد الناس أن يفطروا على حفنة من التمر مع قليل من الماء أو الشاي. ومن ثم يتوجهون إلى أداء الصلاة على أن يعودوا لاحقاً



والملابس المميزة كذلك

لتناول وجبة الإفطار. أما في بلاد الشام مثلاً، فالإفطار يبدأ بنوع من الحساء، ويؤخذ كله دفعة واحدة. ولكل بلد أطباقه الرمضانية الخاصة: الفول المدمس، والسمبوسة، وسلطة الفتوش، والعصائر وأشهرها قمر الدين والعرقسوس والخشاف وغيرها.

أما الحلويات، فحدِّث عنها ولا حرج. إذ يروى أن معاوية ابن أبي سفيان كان أول من صنع الكنافة من العرب. فقد شكا إلى طبيبه ما يلقاه من آلام في جسمه خلال الصوم، فوصف له الطبيب الكنافة وتناولها عند السحور. ومنذ ذلك الوقت صارت الحلوى من أساس المائدة الرمضانية. فهناك أنواع من الحلوى يكثر استهلاكها في شهر رمضان مثل اللقيمات، والقطايف، والمهلبية.

وفي بلاد الشام حلوى لا تصنع إلا خلال شهر رمضان، مثل الكلاج، وهو عبارة عن رقائق من العجين محشوة بالمهلبية (الصلبة نسبياً) تُقلى بالزيت ثم تُنقع في السكر. كما أن هناك مصنعاً شهيراً للحلوى في طرابلس لبنان يصر على أن يبتكر نوعاً جديداً من الحلوى في كل عام لمناسبة شهر رمضان.

ولكن الاهتمام بالمائدة الرمضانية وإن لم يتزعزع تحت وطأة الحياة المعاصرة، فإنه لم يكن بمنأى عن تأثيرها السلبي والإيجابي.



..وهنأنا الكل

من التأثير الإيجابي للحياة المعاصرة على هذا الصعيد، أن تطور المواصلات وكثرة الأسفار والمسافرين، أغنت الموائد الرمضانية أينما كان بألوان لم تكن تعرفها سابقاً. فكما حمل الشاميون معهم إلى الخليج أطباق الكبة والفتوش والبقلاوة، اكتشف الشاميون أهمية الإفطار على حبة تمر، وروّجوا لهذه العادة في ديارهم بعد عودتهم إليها.

وباتت كثرة المطاعم ومصانع الحلوى ومتاجرها في المدينة الحديثة، توفر للمستهلك أنواعاً لا تعد ولا تحصى من الأطباق والحلويات. ولكن ذلك أفقد الحلوى بعضاً من مكانتها في النفس، فما عادت تضاهي تلك الحلوى التي كانت تنهمك البيوت بتحضيرها للعيد وتشغل البيوت يومين أو ثلاثة في آخر شهر الصوم.

التهنئة برمضان، تحديد الكل.. إرسال

قد تكون التهنئة بحلول شهر رمضان المبارك من أجمل تقاليده الاجتماعية، وأعرقها، وأكثرها تعرضاً لتأثير الحياة المعاصرة. فتبادل التهاني فرصة لتوطيد أواصر العلاقات الاجتماعية بين ذوي القربى والأصدقاء والمعارف. ولهذه العادة المستحبة، وهي في الواقع واجب اجتماعي، صيغ عديدة تختلف باختلاف المجتمعات.

قديماً كانت التهنئة تقضي أن يزور الفرد من هو أكبر منه سناً أو مقاماً لتقديم التهنئة. ومع ظهور البريد، ظهرت البطاقات البريدية لتحمل عبارات التهنئة إلى أناس يقطنون في أماكن بعيدة عن المرسل. ثم «تشوهت» البطاقة، فصارت تحمل نصاً جاهزاً تجعل مرسلها يكتفي بالتوقيع عليها. ومع ظهور الهاتف، صارت التهنئة عبر مكالمة هاتفية، إلى أن ظهر الهاتف الجوال.

البطاقة ذات النص الجاهز، والمكالمة الهاتفية، رغم أنهما تلغيان شيئاً من أهمية اللقاء، وتفقدان التواصل بعض زخمه، تبقيان أفضل من رسائل التهنئة على الجوال.

«رمضان كريم.. كل عام وأنتم بخير»، يكتبها صاحب الهاتف على شاشة جواله، ومن ثم بكبسة زر واحدة «يحدد الكل»، ثم يضغط زر إرسال.. وكأنه قام بواجبه تجاه كل من يعرفه في أقل من دقيقة.

والأسوأ من كل ذلك أن الشقيق يتسلم من شقيقه مثل هذه الرسالة، بدليل أن التوقيع يتضمن اسم العائلة وأحياناً المنصب الوظيفي!! وأحياناً ترد إلى الشخص رسالتان تحملان الخطأ الإملائي نفسه، الأمر الذي يدل على أن المرسل لم يكلف نفسه عناء قراءة رسالة تسلمها ولا كتابة واحدة جديدة، بل اكتفى بتغيير التوقيع وإرسال الرسالة نفسها إلى الكل.

أهو ضرب من الذكاء في استخدام التكنولوجيا؟ أم تصرف يكشف عن لا مبالاة ويكاد يعلن صراحة: «أنا لست مهتماً بتهنئتكم»، أو «إن تهنئتكم لا تستأهل أكثر من هذه الثواني من وقتي الثمين»؟ كثيرون بدأوا يمتعضون من هذه العادة المستجدة، وكثيرون باتوا يرفضون الرد عليها وكأنها لم تكن.

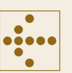
ختاماً، تبقى الإشارة إلى أن كل ما يجمع التقاليد والعادات الرمضانية التي أوردناها آنفاً، يعود في بعضه إلى ضرورات الحياة اليومية خلال أيام هذا الشهر الفضيل، وبعضها يرمي إلى تجميلها وتمييزها عن باقي أيام السنة. ولعل ما يلخص كل المتغيرات التي طرأت عليها في السنوات الأخيرة، يُعزى إلى الرغبة في الحفاظ عليها وتكييفها حيثما أمكن مع معطيات الحياة المعاصرة. والنتيجة شيء من الاختلاف هنا، ومبادرة موفقة هناك، وأقل توفيقاً في أماكن أخرى.

صورة شخصية

قصة عم محمد الفوَّال كقصة الكثيرين ممن لم يعتادوا تسليط الضوء عليهم. يعملون في المهن البسيطة ولكن بجد وإخلاص وتفانٍ لتوفير الحياة الكريمة لأسرهم التي قد لا يرونها سوى أيام قليلة كل عام أو أكثر. ومع حلول شهر رمضان المبارك، الذي ينشط فيه الفوَّالون أيضاً، تعرَّفنا بسمة محمد* على شخصية عم محمد، آملة أن نرى من خلاله الكثيرين ممن لم ينالوا منَّا الاهتمام الذي يستحقون.

عم محمد..

الفوّال الذي لا ييأس من المحاولة.. «ولكن بغير طريقة»



فـي البداية، لم يرغب عم محمد في إجراء الحديث معنا، قال إنه لم يجرِ لقاءً من قبل ولا يعرف ماذا يقول. ولكن بعد إلحاح وافق بتحفظ شـديد بدأ يتلاشـى تدرجـاً بتقدم الحديث.

في شـمير بتعز، إحدى محافظـات اليمن، وفي عام 1950م، ولد محمد لأسـرة مكونة من الوالدين وثلاثة أبنـاء. كان والده بائعاً فـي بقالـة، أما إخوتـه فقد تخـرج أحدهم فـي الجامعة ويعمـل الآخر بائعـاً في محل أحذية بباب مكة. أما محمد فقد دخل عالم المطاعم منذ أن كان في السادسـة عشـرة مـن عمره، بعدما درس الابتدائية في اليمن وأكملها في السـعودية لانتقال أسرته للعيش بها.

تزوج عـم محمد في الثامنة عشـرة، ولديه الآن أربـع بنات وولد واحـد، يتحدث عنهم بفخر قائلاً: «الكبرى في الثانية والعشـرين وهي ذكية ولكنها توقفت عن إتمام دراستها. أمـا الثانيـة فتنـوي دخـول الجامعـة وهي متفوقـة ودوماً يكون ترتيبها ضـمن العشـر الأوائل. وذكية جداً أيضـاً، والبقية ما زالوا يدرسون بمدارس شـمير بمحافظة تعز..». يزورهم والدهم كل عامين شهراً أو شهرين ثم يعود. وهو يفكر في إحضـارهم ليعيشوا معه في جدة.

بداية مبكرة..

قضـى عـم محمـد 35 عامـاً فـوَّالاً بدأها مباشـراً فـي مطعم. ثم تحوَّل إلى مسـاعد خبَّاز وفوَّال حتى يكتسـب الخبـرة اللازمة التي تؤهله لأن يصبح معلم فول وتميس.

في البداية كانت مهنة الفوالة هواية، ولأنها كـانت ذات سـاعات عمل محـدودة مقارنة بالأعمال الأخـرى كالبيع في متاجر البقالة أو العمـل فـي المطاعـم الأخـرى، فإنهـا جذبت محمد إليها. ثم تطورت الهواية لدى عـم محمد، فبدأ بتحسـين صـناعته الفول والتميس لينتج الأفضـل والأحسـن. وهكذا إلى أن أصبح الناس يقصدون محله لجودة الفول الذي يصنعه..

يعمل عم محمد الآن في محل للفول يقع في أحـد المجمعات التجارية الشـهيرة بمدينة جـدة. قـدم إلـى هـذا المحل قبـل عامين

* صحافية سعودية

تقريباً خبَّازاً للتميس، مع وجود فوَّال آخر يدعى علي أحمد صالح. كانت خبرة عم علي تصل إلى 40 سنة أو أكثر، لذا كان عم محمد يساعده في حمل القدور وفي صنع السلطة. وكانا يتحدثان عن الفول وعن أسرار صناعته وعم محمد يسمع منه ويسجِّل كل ما يسمعه في ذاكرته.

كان المحل تابعاً لمحل فول معروف بالهنداوية. وبعد ثمانية أشهر تقريباً تغيَّر صاحب المحل كما تغيَّر اسمه، وغادر عم علي المحل ليصبح محمد وحيداً، يخبز التميس ويصنع الفول، وهنا بدأ في تطبيق كل ما تعلمه من الحاج علي. «يجب ألا يغتر الإنسان بنفسه ولا يكتفي بما يعرفه. بل يأخذ من غيره ويضع لمسته من خلال التطوير والتحسين المطلوب ليصبح العمل أجود من السابق».

وفعلاً فقد بقيت جودة العمل كما هي بعد مغادرة عم علي، بدليل قول الزبائن لعم محمد: «سلمت يداك ولكن لم غيرتم الاسم؟؟».

ذهبت وانتهت...

أول مرة عمل بها عم محمد معلم فول كانت في الثمانينيات الميلادية، بسوق اليمنى ناحية برحة الجيلاني قبل أن يبنى الجسر، وكان في السابعة والعشرين من عمره آنذاك.

وتنقل من باب مكة إلى سوق اليمنى إلى الرويس إلى شارع الميناء وهكذا حيثما وجد معاشاً أعلى. يقول بعزم بعد إلحاحي عليه لمعرفة التفاصيل: «تلك الأيام راحت، وأنا الآن لا أتذكرها. ولو ذهبت بنفسي إلى هناك فلن أعرفها، فقد هدمت محلات وشقت طرق وبنيت جسور. ذهبت كلها!! ذهبت وانتهت، لا أفكر بها ولا أريد أن أتذكرها، والحمد لله فمن الطبيعي أن يمر الإنسان في عسر وفي يسر، وقد يلتقي مصاعب وما يسره وينسيه الهموم. والآن أنا مرتاح في عملي ولا أفكر في الماضي».

حاول.. وستنجح

الملاحظ في عم محمد هو محاولته الدائمة في البحث عن طرق جديدة لتطوير العمل وتوفير الوقت والجهد إضافة إلى رفع مستوى الجودة. «حاول.. ولكن بغير طريقة» شعار عم محمد الذي يؤمن به ويتبعه في عمله. ففي يوم ما قرر البحث عن طريقة أسرع لينضج الفول في ساعة بدلاً من ثلاث ساعات أو أربع. غطى جرة الفول بطبقتين من القصدير، وضع غطاء الجرة ثم طوبتين. بعد مدة من وضعها على النار لم يتحمل هذا الغطاء الضغط فانفجر القدر وتطاير الفول في أرجاء المحل. يقول بانفعال «هذا موقف صعب جداً ومخيف، ولو كنت جالساً بجوار الجرة لاحترقت، ولكن ربنا لطف». ولكن عم محمد أصر على تطبيق فكرته، وهي زيادة الضغط لتقليل مدة الطهو. ولم يجد بداً من التجربة مرة أخرى. فأحكم لف القصدير على الفوهة، وأحضر غطاءً حديدياً ثقيلاً وضعه على الفوهة، ثم أربع طوبات. فنجحت التجربة، التي لا يزال يستخدمها حتى الآن، وهو «مرتاااااح».

خطوة مهمة...

عمله في المركز التجاري خطوة مهمة في حياته. فهو يعد كل الأماكن التي عمل بها متعبة بسبب شدة الحر. أما الآن فالتكييف المركزي يلطف الجو. فتراه يتحدث برضا قائلاً: «إذا أحسست بالتعب وأردت أن أستريح، أجد الجو البارد فأستمر في العمل وكأني لم أعمل. أما في الخارج فمهما حاولت أن أرتاح أبقى متعباً بسبب الحر».

أما من ناحية الفول فيقول بثقة: «هنا أطبخ فولاً ممتازاً غير الفول الذي يطبخ في الخارج. أنا فوَّال، أعرف الفول وآكل فول. لكن فول عن فول يختلف، ومعلم عن معلم أيضاً يختلف». وكل هذا بشهادة الزبائن. «الفول ده ما تلاقيه برّا»، ويعقِّب قائلاً: «هذا المكان على مستوى، لذا يجب أن يكون الفول مميزاً أيضاً. وأحب عندما يراني المعلم أن يشكرني. وفعلاً، عندما يأتي إلى هنا لتناول الفول يقول لي: مية مية».

وكمعظم المراكز التجارية الكبيرة، يوجد بجوار عم محمد عدد هائل من مطاعم الوجبات السريعة، ولكن عشاق الفول لا يجدون له منافساً. وقد تضحك عندما تسمع عم محمد يقول: «الزبون فاهم الفول، لا يستعجل بل يقول آكل فول أحسن من الهمبرجة والبمبرجة والمسحب والمكعب». فتجد عشاق الفول يقفون مصطفين كل بانتظار دوره خاصة في شهر رمضان الذي يعد موسم الفوالين، إذ يصبح الفول من الأطعمة في وجبة الإفطار. وبعد العصر لا يجد عم محمد الوقت لالتقاط نفسه حتى يؤذن المؤذن المغرب.

المهنة غالية

وذات يوم أراد شخص استئجار المحل. فطلب من عم محمد تعليم صبي مهنته، فرفض عم محمد وقال: أنا لا أعطي مهنتي لأحد. وقال الرجل: سأزيد راتبك. فأجابه: مهنتي لا أعطيها لأحد، وأنا الأولى بالمحل، مهنتي بيدي، وأنا الأقدم، فلم تستأجر أنت وأعمل أنا لديك عاملاً؟ ثم يحدثنا قائلاً: «سر المهنة مصدر رزق، وليست لعبة. هذه مهنة والمهنة غالية، مستحيل أن أعطي أي شخص هذا السر وهذه الخبرة إلا لابني».

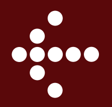
يعمل عم محمد من التاسعة صباحاً حتى يغلق المركز أبوابه، أما إن كان لديه تجهيز أو عجن فيستمر بالعمل حتى صلاة الفجر، التي يؤديها أحياناً في مسجد المركز، ثم يرتاح حتى موعد العمل عند التاسعة صباحاً.

لم يندم عم محمد يوماً على اختياره الفوالة مهنة. فهو لا يتطلع إلى الوظيفة، والمهم عنده هو أنه متعلم يستطيع الكتابة وقراءة القرآن والحساب. وهذا يكفي في نظره. لديه طموحات وآمال كبيرة ولكن لم يأت موعدها بعد، وآخر كلمة قالها كانت: المستقبل يبشِّر بخير، إن شاء الله.



المقاهي الأدبية

من «القرأة خان» إلى الانقراض



كثيراً ما لعبت المقاهي أدواراً تجاوزت إلى حد بعيد وظيفتها الأولى وهي استقبال الروَّاد الراغبين في تمضية بعض الوقت حول فنجان قهوة أو كوب من الشاي. ولعل دور المقهى الثقافي للمقهى كان من أبرز هذه الأدوار المضافة على الوظيفة الأساس. حتى أن بعض المقاهي دخل عالم الأدب والثقافة بفعل روّاده الذين من خلال طغيان حضورهم على حضور غيرهم، حوَّلوا هذا المقهى أو ذاك إلى مكان أقرب إلى المنتدى أو المكتبة العامة، منه إلى المقهى. ماهر شرف الدين* يستعرض هنا صفحات من تاريخ المقاهي الأدبية التي لمع نجمها خلال العقود الماضية في بغداد والقاهرة وبيروت، والتحوّل الذي طرأ عليها في السنوات الأخيرة.

Flickr

* باحث متخصص في الأدب المعاصر

«الطاحونة» هو اسم المقهى الذي بدأ فيه غابرييل غارسيا ماركيز حياته الأدبية، المقهى الذي لم يكن له فيه مكان محجوز، لكنه كان يتدبّر أمره بمساعدة النادل الذي كان يُجلسه أقرب ما يكون إلى طاولة «المعلّم الكبير» ليون دي غريف. «الطاحونة» اسم مقهى، لكنه يصلح أيضاً اسماً لقصة: قصة الأدباء مع المقاهي وقصة الأدب مع فنجان القهوة.



Flickr
مقهى النوفرة في دمشق.. آخر «قرأة خان» في العالم

من دون الخوض فيما إذا كان أصلها شرقياً أم غربياً، كانت المقاهي الثقافية تعبيراً أميناً لأهم مرحلة من مراحل التحول السياسي والاجتماعي في الوطن العربي في مرحلة الستينيات، وغيرها من المراحل المفصلية. وإذا صحَّت فرضية أن فكرة إقامة بيت للقهوة ولدت في اليمن السعيد، فإن تكريس هذه الظاهرة بدأ فعلاً في الإمبراطورية العثمانية، حيث كانت تعرف تلك المقاهي بـ «القَرْأة خان»، أي المكان الذي تُقرأ فيه الكتب والصحف.


Corbis



المقهى، هذا المكان للاجتماع والتواصل الشفوي، كان مكاناً للعزلة أيضاً، أي «استخدام» بعض الكتَّاب له مكاناً للكتابة والتأليف. أن تكتب في مقهى يعني أن تكون وحيداً في مكان مزدحم، ويعني أن عيون الآخرين معطَّلة عندك، ويعني أن تكتب. لذلك أنجز الكثير من الكتَّاب والشعراء كتبهم ودواوينهم في مقاهٍ اعتادوا اللجوء إليها في أوقات التأليف والفراغ.

دساتير وأحزاب

أيام مقهى «المودكا» الشهير في شارع «الحمراء» البيروتي، كانت تشيع النكتة التي تقول إن الكاتب الراحل عصام محفوظ كان يتذمَّر دوماً لأن بيته بعيد عن «المودكا»، وكان يعلن أمنية مفادها أنه لو ربح جائزة مالية كبيرة، فإنه سيشتري الطابق الذي يقع فوق المقهى، كي يتسنّى له النزول بلباس النوم إليه. لكن بعض المقاهي ليس متسامحاً إلى هذه الدرجة: مقهى «الصعاليك»، وهو أقدم مقاهي فلسطين الثقافية، إذ تأسس في العام 1917م في مدينة القدس، وضع دستوراً سماه «دستور الصعاليك»، حدّد بموجبه شروط العضوية في هذا المقهى، ومنها: منع استضافة الآخرين، أو قبول ضيافتهم. وأيضاً، لزوم تدخين الشيشة!!

وعكس لزوم تدخين الشيشة في «الصعاليك» المقدسي، كان مقهى «ريش» القاهري (تأسس عام 1908م)، يمنع تدخينها، أو لعب الكوتشينة (ورق اللعب)، أو طاولة الزهر، معللاً ذلك بالطبيعة الثقافية للمقهى وروَّاده. هؤلاء الرواد الذين عاشوا قصص حبهم فيه، مكللين بعضها بالزواج: الشاعر أمل دنقل والصحافية عبلة الرويني، الشاعر أحمد فؤاد نجم والكاتبة صافيناز كاظم، الفنان محمد عبدالقدوس وروزاليوسف (فاطمة اليوسف).. حتى أن دواوين عدَّة صدرت تتغزل بهذا المقهى، كديوان «بروتوكولات ريش» لنجيب سرور، والقصيدة الشهيرة لأحمد فؤاد نجم، التي طالما تغنَّى بها الشيخ إمام عيسى في السبعينيات. في هذا المقهى، الذي ارتاده جمال عبدالناصر، وصدام حسين، وعبدالفتاح إسماعيل رئيس جمهورية اليمن الشعبية الأسبق. كان لنجيب محفوظ

قصائد (عن) و(في) المقهى



موعداً سيدتي! وابتسمت
وأشارت لي إلى عنوانها
فتطلّعتُ فلم ألمح سوى
طبعة الحمرة في فنجانها

(«في المقهى» لنزار قباني)

ستلقي نظرة عجلى وتمضي نحو
زاوية تراقب
أنت لا تستعجل الأشياء
والناس الذين رأيتهم في غرفة
البليارد لا يستعجلون
الساعات تمضي
أنت تراقب:
ما أغرب المقهى على باب الزبير.

(«مقهى على باب الزبير»
لسعدي يوسف)

أيها المقهى (...) كلانا لم يعد يعرف
هل تحمله الصخرة أم يحملها
وأنا مثلك
مرفوع على أجنحة الحبر التي شاخت
ولا أدري متى أسقط
عن ظهر السماوات التي تسندني.

(«مقهى الدبيبو» لشوقي بزيع)


Flickr
مقهى ريش.. حصن المثقفين في القاهرة



Flickr

(الزبون المشترك في كل المقاهي الشهيرة في مصر) ندوة كل يوم جمعة من السادسة مساءً إلى الثامنة والنصف، استمر في إلقائها حتى منتصف الستينيات. وفيه عُقد اجتماع ضمَّ أبرز فناني مصر، على رأسهم أم كلثوم وفريد الأطرش ومحمد عبدالوهاب، في الأربعينيات من القرن المنصرم، أسفر عن إنشاء أول نقابة للموسيقيين في مصر والعالم العربي.

وإذ لم يكتف بعض تلك المقاهي الثقافية بصوغ دستوره الخاص، فإن بعضها الآخر أنشأ أحزاباً فكاهية: مقهى «البرازيلي» الدمشقي، الذي اكتسب شهرة واسعة في الخمسينيات والستينيات، وكان لا يقدِّم لزبائنه سوى القهوة، كان مقراً لـ «حزب يصطفلو»، الذي يدعو إلى اللامبالاة، وعدم الاكتراث بما يحدث. أما شعار أعضائه فيقول: «نحن إخوان الصفا، وخلان الوفا، والحكي بالقفا».

وعندما أقفل هذا المقهى رثاه أحد الشعراء بقوله:

«قف بالطلول، وقل يا دمعتي سيلي
أخنى الزمان على مقهى البرازيلي
كأن أيامه لم تحو لندوتنا
ولا تضارب فيه القَال بالقيل
تحاربُ الظلمَ والطغيانَ ألسنَنا
إذا تقاعس كتّاب الجرانيل».

وكان شارع الرشيد في بغداد الذي افتتحه الوالي العثماني خليل باشا 1916م، أشبه ما يكون بميناء لتجميع المقاهي الأدبية الشهيرة: مقهى «الزهاوي» الذي كان ملتقى المثقفين والأدباء من أمثال جميل صدقي الزهاوي وعلي الوردي ومعروف الرصافي.. ومقهى «حسن عجمي» الذي كان يجلس فيه محمد مهدي الجواهري قبل أن يبدأ إلقاء قصائده الحماسية كقصيدته الشهيرة «أخي جعفر»، ومطلعها: «أتعلم أم أنتَ لا تعلمُ/ بأن جراح الضحايا فمُ»، والتي دفعت الجماهير إلى الخروج من جامع «الحيدر خانة» والطواف في شارع الرشيد مندّدةً بالاحتلال، ومقهى «الواق واق» الذي يعود تأسيسه إلى العام 1946م بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبدء تجلّي نهضة جديدة تتطلّع إلى المعطيات الثقافية الغربية من الوجودية والسوريالية والدادائية. وقد أطلق الأدباء روّاد المقهى على أنفسهم اسم «جماعة الوقت الضائع»، وأصدروا صحيفة «الوقت الضائع». ومقهى «البرلمان» الذي اتخذ تقليداً أسبوعياً قوامه التقاء الأدباء في كل يوم جمعة للنقاش والتحاور في مختلف القضايا الثقافية. ومقهى «المعقّدين» الذي ظهر في بداية الستينيات وضمّ مجموعة من الأدباء المتمرّدين على السائد والمتطلّعين إلى الاتجاهات الحديثة في الأدب العالمي كالمسرح الفقير والمسرح الأسود والتغريب، وبسبب ذلك، إضافة إلى سلوكهم الانطوائي وتحفّظهم تجاه المجموعات الأدبية الأخرى، سُمِّي هذا المقهى بـ «المعقّدين».

وعن سؤال طرحه عليه موقع «المجلس العراقي للثقافة» إذا كانت المقاهي الأدبية طقساً أصيلاً أم بديلاً من غياب المؤسسات الثقافية؟ أجاب الأديب والمترجم أحمد الباقري بالقول: على مدى عقود مختلفة عُدَّت المقاهي الأدبية ظاهرة صحية للأدب والأدباء. ولا أتصور أن وجود هذه الظاهرة مرتبط بغياب المؤسسات الثقافية أو غيرها، بقدر خضوعها لتقليد شائع ومعتاد في أغلب مدن العالم وعواصمه الثقافية.



Flickr

للقراءة والتفكير.. والكلام

Corbis

فوجود المقاهي في مدينة الناصرية كان مزدهراً منذ فترات سابقة حتى مع وجود دور الثقافة الجماهيرية بمختلف صورها آنذاك. وفي الناصرية كان مقهى «أبو أحمد» مكتظاً بروَّاده من الأدباء والفنانين الذين يملأون فضاءه الرحب بالحوار والعلاقات والنقاش الساخن. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك جمعية تدعى «جمعية رعاية الأدب والفنون»، وقد أسست في السبعينيات، لكنها لم تؤثر كثيراً في جمهور المقاهي الأدبية.

ويضيف الباقري: أتذكر أن مقهى «أبو أحمد» كان رافداً من روافد إنعاش الظاهرة الأدبية، إذ كُتبت فيه عشرات القصائد والقصص ووضعت الأفكار الأساسية لبحوث ومقالات ثقافية أخذت جميعها طريقها إلى النشر فيما بعد. ناهيك بطقوس تبادل الأدباء لنصوصهم الإبداعية ومتابعة آرائهم النقدية حول ما يكتبون ويفكرون أو يتحدّثون به. وفي الخمسينيات كان مقهى «عزران» المرتع الذي يلجأ إليه الأدباء ليناقشوا هموم الأدب والسياسة والدين والتاريخ والحياة اليومية.

مراكز بريد

في كتابه الصادر عام 1975م، تحت عنوان «جماعة تحت السور»، يروي رشيد الذوادي كيف خرجت، من مقهى «تحت السور» الشعبي، الصحافة الهزلية وجميع الصحف التونسية التي رصدت في الثلاثينيات والأربعينيات، كجريدة «السرور» التي أصدرها علي الدعاجي، وجريدة «الشباب» التي أصدرها بيرم التونسي، بعد زيارته الثانية لتونس حيث التحق بجماعة «تحت السور»، وأصبح عضواً من أعضائها.

وكان للسيد جمال الدين الأفغاني، الذي أقام في مصر من سنة 1871 إلى سنة 1879م، مقهاه المختار، وهو مقهى «متاتيا»، الذي كان يلتقي فيه وتلاميذه بانتظام، من أمثال محمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين، وغيرهم من رواد النهضة.

ومثلما كانت المقاهي أشبه ما تكون بدور نشر شعبية، أو جامعات غير رسمية، كانت أيضاً في بعض المراحل، مراكز بريد بين الريف والمدينة، بسبب اشتهارها على أنها معالم معروفة في المدن. وكان بعضها ملتقى للسياسيين في سبيل التقرّب من الشعب وأبناء المناطق البعيدة، حتى أن الحاج متري، صاحب مقهى «متري» البيروتي، كان يُطلب رضاه في الانتخابات.

أما اليوم...

في بيروت، كما في بقية المدن العربية، يتناقص عدد المقاهي الثقافية يوماً بعد يوم، حتى «انحشر» مثقفو لبنان وأدباؤه في اثنين أو ثلاثة منها. لذلك لا يتوانى الكثير منهم عن الذهاب إلى الشعور بوجود «مؤامرة ما». وفي ظلّ هذا الانحسار «المقهويّ»، المرتبط لزاماً بالوضع الثقافي، يستذكر أحد أدبائنا من المخضرمين مقهيي «النجار» و «الفتوح»، حيث كان يجلس الأخطل الصغير يحيط به الأدباء والشعراء، مستمتعاً بصوت محمد عبدالوهاب يغني من شعره: «جفنه علّم الغزل».

في جدة..
لكل حرفة مقهاها.. وكذلك الثقافة

على الرغم من أن المخضرمين يذكرون الدور الذي لعبه مقهى «الطوال» ومقهى «المحكمة» في جدة على صعيد جمع الأدباء والمثقفين والصحافيين في عصر النهضة الأدبية، فإن الأديب السعودي حسين علي حسين يضيف إلى الحديث عنهما تجربته مع المقاهي منذ أيام الطفولة وصولاً إلى المقاهي الحديثة في الرياض.

ماذا يعني لي المقهى؟ سألت نفسي هذا السؤال، فوجدت علاقتي بالمقهى متجذرة، طويلة وعريضة. بدأت منذ زمن سحيق، من ذلك الوقت الذي كان فيه لوالدي بقالة صغيرة يتخذها مركزاً لمقابلة أصدقائه من المقاولين وأصحاب الأعمال.

كان في ظهر البقالة مقهى يبدأ العمل فيه بعد صلاة الفجر مباشرةً، ولا يقفل أبوابه إلا بعد صلاة العشاء. هذا المقهى، كما هي مقاهي المدينة في ذلك الوقت، كان خالياً من السكَّر والشاي والقهوة والجراك والتنباك، فمهمة المقهى كانت التجهيز فقط. الزبون يأتي بالشاي أو الدخان والمقهى يتولَّى بالتجهيز. وكنا نطلب الشاي والشيشة من ذلك المقهى ويجلس والدي في مقدمة الدكان وأمامه الشيشة وبجانبه براد الشاي!

لكن علية القوم من أهل المدينة كانت لهم مقاهٍ خاصة. وهم بطبيعة الحال الطبقة المثقفة أو المتعلمة، بمقاييس ذلك الوقت، ومقابل ذلك، كانت هناك مقاهٍ لأصحاب الحِرف أو المهن، فمقهى «الحاوي» (وأنا أنقل هنا عن علي حسون) كان مخصصاً لأصحاب مهن الفرانة والحبابة والمنجدين، ومقهى «النقاوي» عند مدخل شارع العينية كان مخصصاً للبنائين المعماريين، ومقهى «الحريقة» على الجهة المقابلة لمقهى «النقاوي» كان مخصصاً للطباخين والقرارية وهم طبقة أعلى مرتبة من العمال العاديين تنحصر مهمتهم في نقش الحجارة لتكون مناسبة للبناء، ومقهى «الربو» أمام مسجد الغمامة كان مخصصاً للأفندية والموظفين، ومقهى «علي خبر» في درب الجنائز كان يستقبل خليطاً من الناس.

ويقول علي حسون إن المثقفين والأدباء والشعراء كانوا يلتقون في مقهى «الطوال» بمنطقة عروة وأيضاً في مقاهي قباء وسلطانة، وهي مناطق تتميز بهوائها اللطيف في فصل الصيف. وطالما بدأت بنفسي، فإنني سأبقى معها، مع ما في ذلك من أنانية أرى الآن أنها مناسبة لهذا المقام.

فقد كنت ولا أزال محباً للمقاهي، ففي جدة كنا نجلس في مقهى يطلقون عليه اسم «مقهى المحكمة»، هذا المقهى ليست له أبواب على الإطلاق، كان مفتوحاً 24 ساعة في اليوم وطول العام. وكان رواده في المساء المتأخر تحديداً من الأدباء والكتَّاب والصحافيين، الذين يفدون عليه بعد تجهيز الصحيفة للطبع. يجلسون هناك حتى ترسل الشمس نورها، حيث يحتل الأماكن رواد المحكمة وسوق الخضار المقابل!

أما في الرياض فإن لي ثلاث زيارات أسبوعية للمقهى وكلها مع أدباء وكتَّاب وصحافيين. يحدث هذا والشيشة والشاي في المنزل. لكنه البحث عن الفضاء وحركة الناس. وفي المملكة تحديداً، لا أعتقد بوجود مقاهٍ مخصصة للمثقفين خصوصاً الهامشيين منهم، إلا إذا كانت تلك المقاهي الحديثة التي يطلق عليها اسم «الكافي شوب». هذه المقاهي موجودة الآن بكثرة، وقد قيل إن اللجوء إليها كان لتقديم صورة راقية ونظيفة وخالية من التلوث، الذي تنشره المقاهي الشعبية، بكراسيها الخشنة ودخان مرتاديها، خصوصاً مدخني الشيشة (الجراك والتنباك والمعسل). هذه المقاهي الحديثة، تضم الآن الشباب، وبعضها يضم الشريحة التي تعلَّمت في الخارج، تلك التي تستعيض عن الشيشة بالغليون والسيجارة، بل ان بعض هذه المقاهي يخصص أماكن لغير المدخنين، وهي تقدم عشرات الأنواع من المشروبات الباردة والساخنة، بينما تقدم المقاهي العادية الشاي الأحمر والأخضر ودلة القهوة والشيشة. لقد نُقلت المقاهي الشعبية الآن من وسط المدينة إلى خارجها ومع ذلك فإن روَّادها يقطعون الكيلومترات بحثاً عنها!

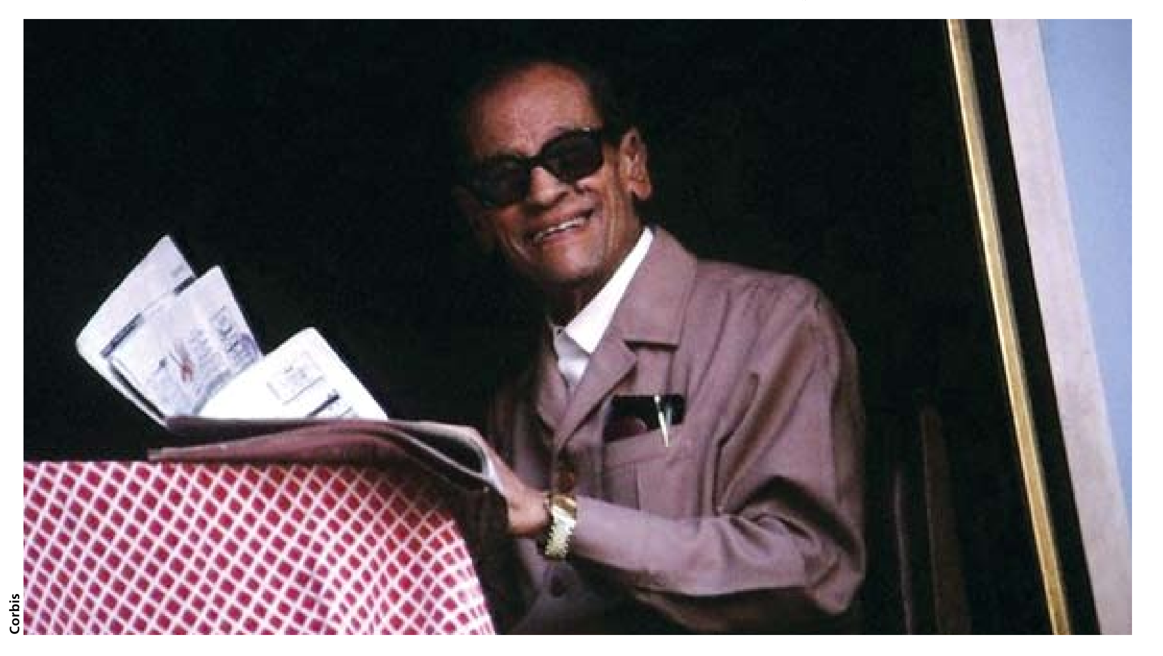


«مكتب» المقهى

بالطبع، لم يزل ثمة كتَّاب يتخذون المقهى «مكتباً» لهم، يقرأون فيه ويكتبون. لكن، عند الكاتب، غالباً ما يحفّ معنيان متناقضان بكلمة المقهى: مفتوح وحميم. فكيف تصح الكتابة، التي هي أشبه بفعل الولادة لجهة احتجابها، في أجواء مفتوحة إلى هذا الحدّ؟ لا بد أن الكتابة في المقهى تفترض شرطين إذن: الزاوية والوحدة.

لكن... زاوية في مقهى؟ لماذا يأتي إلى المقهى من يطلب زاوية لجلوسه؟ ثم لماذا يأتي من يطلب الوحدة والعزلة أصلاً؟ وحيداً في مقهى، كأنك تقول: وحيداً في عرس.

البعض يؤثر السلامة في عدم ارتياده المقهى، وقبل ذلك، عدم الكتابة فيه. أمر مردّه الشعور بالانتهاك. فكيف يمكن الكتابة وسط هذه الأعين، ووسط هذا الانكشاف الجسدي والمعنوي، طالما أن الأساس في طقوس الكتابة كلها هو تخفيف حدة الانكشاف؟ هذا ما تقوله شاعرة عربية ترفض فكرة الكتابة في المقهى. «أعتقد أن فكرة الكتابة في المقهى، ذات الأصل الفرنسي، جاءت من كون الفرنسيين أناساً يحيون في المقهى، ويستغرقون نهارهم فيه. أنا أتضايق حتى من فكرة الاضطرار إلى الالتقاء بأحدهم في مقهى. القضية عندي مجرد مزاج، وليست موقفاً بالطبع. أعتقد بأن الكتابة في المقهى تتضمن شيئاً من الاستعراض والفوقية... «ما شفتك، كنت أكتب...» هكذا يعتذر أحدهم من أحدهم. ببساطة مربكة أقول: المقاهي لا تصلح حتى للاستفتاء».



Corbis

نجيب محفوظ.. ما من مقهى أدبي في القاهرة عَتَبَ عليه

شاعر آخر شاب مرّ بمراحل أمضى فيها معظم نهاره في المقهى، يقول إنه كفّ عن عادة الكتابة في المقهى: «ربما أحمل قلماً، وأسجّل بعض الأفكار الشعرية، لكني أنتظر العودة إلى البيت من أجل كتابتها». وعن حكايته مع المقهى يقول: «في صباي، حين كنت أمرّ من أمام المقهى، أثناء زيارتي لبيروت، كنت أحسبه مكاناً للأجانب والسيّاح، وكان يراودني الظن أنه مخصص لغير اللبنانيين. بالطبع، تغيّرت فكرتي عنه حين دخلته أول مرّة. وأذكر أني يومذاك حرصتُ على أن أدخله على هيئة الشعراء: شعر طويل، لحية نابتة، كتاب ضخم في اليد اليمنى...».

شاعر آخر يناصر مقهى «الستاربكس» نكاية بمقهى «الكافيه دو باريه»، ولا يذكر أن أحداً ضيَّفه فنجان قهوة، يميِّز زمنين للمقهى، وعلى طريقته: «زمن ما قبل اتفاق الطائف وزمن ما بعده. إثر انتهاء الحرب الأهلية في لبنان، طردونا من مقهى «الويمبي»، قالوا إن السيّاح راجعون. يا لطيف. لكنهم رجّعونا فيما بعد، عندما اكتشفوا أننا السياح».

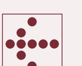
«إسطبل الروح» هو التعبير الذي استخدمه شاعر لبناني من جيل الثمانينيات لتعريف المقهى: «إنه الإسطبل الذي ألتقي فيه رفاق الصدفة، شبه اليومية، حيث القراءة والعمل، وقبل ذلك التلصص. دعني أصف علاقة من يكتب في مقهى بالآخرين من حوله، وذلك الاقتراب المحسوب من الآخرين على الشكل الآتي: كما قنفذان يُدفئ واحدهما الآخر، لكن من غير أن تنغرز إبر أحدهما في جسد الآخر».

أخيراً، لمحبّي التعريفات الشعرية نسوق منها الآتي: المقهى طاولة كتابة جماعية، صالون أدبي شعبي، ملجأ كتابي، قابلة أدبية عمومية، برج عاجي من الدرجة الثالثة... هكذا يتحوّل كاتب المقهى وورقته العذراء أشبه بعاشقَين تحت المراقبة.



«أعز مفقود وأهون موجود»، هذا ما يقوله أشهر تعريف بالماء، هذا السائل العجيب الجميل الذي لا حياة من دونه، والحاضر دوماً حيثما عاش إنسان أو حيوان أو نبات. الشاعر والأديب السعودي **محمد الجلواح** اختار التجوال بنا في ديوان الأمس على عدد من صور الماء عند الشعراء العرب قديماً وحتى بدايات القرن العشرين.

من صور الماء في الشعر



كثيرة هي الأبيات الشعرية الواردة في التراث العربي التي تناولت الماء عبر مدلولات متباينة ومؤتلفة.. هاكم هذه الباقة المُختارة من الأبيات المائية المشهورة..

- 1 -

أُقَسِّمُ جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء، والماء باردُ

لقد عبَّر شاعر الصعاليك عروة بن الورد (67 - 30 ق.هـ/ 560 - 593م) في هذا البيت أحسن تعبير عن حال الإنسان المعاصر الذي يكون منشغلاً بعدد من الأعمال في وقت واحد.. والقراح في اللغة: الماء الصافي.

- 2 -

والهجر أقتَل لي مما أراقبه
أنا الغريق فما خوفي من البلل!

هذا البيت لشاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبي (303 - 354هـ / 915 - 965م)، وبلغتنا المعاصرة يتمثل به الشخص حين يكون غارقاً في أمر ما، فيخيل له أنه يخاف من جانب معين مما هو فيه فيقول هذا البيت أو كما نقول في الخليج (أنا بايع ومخلص)، أو ما يقترب من ذلك.

- 3 -

يقول الحسين بن منصور الحلاج (244 - 309هـ / 858 - 922م):



ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له
إيـاك إيـاك أن تبتل بالماء..

أي عذاب هذا؟ وأي امتحان؟ وأي عقاب، ومن بوسعه، عاقلاً كان أم مجنوناً، أن يهرب من البلل في وسط الماء؟ إنها أبعد من أن يضع أحدهم طعاماً لجائع ويمنعه منه، أو يسلب حرية من إنسان هي مخلوقة معه.

- 4 -

قالت الضفدع قولا رددتـــه الحكماء
في فمي مـاء وهل ينطق من في فيه ماء؟

هذان البيتان في غاية الحكمة للتعبير عمَّن لا يستطيع أن يقول ما في نفسه لسبب ما.

- 5 -

ترجو النجاة ولم تسلكْ مسالكها
إن السفينة لا تَجْري على اليَبَس

هذا البيت/الحكمة.. منسوب للإمام علي بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه، ومنسوب للشاعر الكبير أبي العتاهية أيضاً، وقد ذهب عجز البيت مثلاً يردده الناس ويتمثلون به لواقعيته وبساطته، وهو يشير إلى أن الإنسان لا يمكنه الحصول على ما يريد من دون أن يهيئ الظروف المحيطة لذلك الشيء المراد.

- 6 -

أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

أجزم أن الكثير يعرف قائل هذا البيت الذي وظَّف المصدر الأكبر للماء وهو البحر، ليكون اللغة العربية. رحم الله الشاعر الكبير حافظ إبراهيم (1288 - 1351هـ / 1871 - 1932م).

- 7 -

إذا قَلَّ ماء الوجه قَلَّ حياؤه
ولا خير في وجه إذا قل ماؤه

رحم الله العبد الصالح / صالح بن عبدالقدوس (96 - 160هـ / 712 - 776م)، والناس لا تزال تستخدم هذا البيت الجميل، بل انك تجد من يتمثل به أو يقول باللهجة الشعبية (ليش أريق ماي وجهي على شي ما يسوى). أي أن لماء الوجه رمز خاص مرتبطاً بالحياء والكرامة.

- 8 -

كـأننـا والمـاء من حولنا
قوم جلوس حولهم ماء

هذا البيت مجهول القائل، هو تهكم شعري مائي. أي لا جديد في التعبير أو العمل، أو الصورة. وفوراً يقفز البيت الآخر المشابه له في التوظيف المعنوي، والطريف أيضاً. وهو للشاعر المعروف ابن الرومي (221 - 283هـ / 836 - 896م):

- 9 -

أقـام يجهد أيامـاً قريحته
وفسَّر الماء بعد الجهد... بالماء!

والبيت لا يحتاج لتعقيب أو شرح.

- 10 -

إلى الماء يسعى من يغص بلقمة
إلى أين يسعى من يغص بماء؟

وقد يقال، ويكتب هكذا:

من غص بالزاد ساغ الماء غصته
فكيف يصنع من قد غص بالماء

لكن البيت الأول.. أشهر، وأقرب للقلب والأذن والمعنى. وهذا أيضاً لا حاجة لشرحه.

- 11 -

أدبٌ كمثل الماء لو أفرغتَهُ
يوماً لسال كما يسيل الماء

هذا البيت الجميل للشاعر الأديب أحمد بن عبد ربه الأندلسي صاحب كتاب العقد الفريد (246 - 328هـ/ 860 - 939م)، وهو يحمل معنيين ما زالا يضجان حيوية وواقعاً حتى اللحظة. المعنى الأول أن الممدوح بهذا البيت له أدب سيال كالماء لا يصعب عليه قلم، ولا تعيقه عبارة ولا يتوقف عند معنى عويص فهو كثير الإنتاج، غزير الأدب والمعرفة والثقافة، وفي الوقت نفسه، أدبه نافع وحيوي للناس كالماء. والمعنى الآخر عكسه تماماً. أي أن الأدب السائر والمنتشر بين الناس ليس له ذلك العمق أو الطعم أو اللون أو الرائحة فهو من سهولة تناوله كالماء المبذول لكل الناس، فيما الأدب الحقيقي الإبداعي يجب أن يكون عزيزاً غير مبتذل.

- 12 -

يقول شاعر الجمال والتفاؤل إيليا أبو ماضي (1306 - 1377هـ / 1889 - 1957م) في إحدى روائعه:

والمـاء حولك فضة رقراقة
والشمس فوقك عسجد يتضرم

هذا بيت من قصيدته الشهيرة: كم تشتكي وتقول إنك معدم والأرض ملكك والسما والأنجم.



المحترف السعودي - ب.ر.

غمزة..

«غمزة» هي قصيدة للشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي، كتبها من منفاه في بودابست. ويصف فيها مشهداً كان قد رآه وهو فتى لا يزال يعيش في قريته دير غسانة بفلسطين.

الكاتب محمد العمودي* يصر على أن في هذه القصيدة من الجمال والحياة والحركة ما لم ير مثله في قصيدة معاصرة من قبل، ويقدِّم هنا قراءته لها وهي تصف رقصة الدبكة التي يقودها أبو زكي خلال عرس شقيقه في تلك القرية الفلسطينية الوديعة.

* كاتب سعودي

تبدأ القصيدة بداية قاطعة، وكأنها تنهي الحكاية بأهم ما فيها قبل أن تشرع في نقل تفاصيلها. أو كأنها تطلب من القارئ أو المستمع أن يقف لحظة، ليستوعب ما حدث. وجمال عبارة «انجن الولد!» ليس في قطعيتها فقط، وإنما في انتقاء المفردتين التي تنقل لنا صورة بصرية لامرئ يضرب كفاً بكف في تعجبٍ واستسلام لأمر واقع.

غمزة من عينها في العرس
و «انجن الولد!»
وكأن الأهل والليل
وأكتاف الشباب المستعيذين من الأحزان بالدبكة
والعمات والخالات والمختار
صاروا لا أحد.

في هذه الأسطر تظهر الحساسية الذكية التي تعامل بها الشاعر مع فكرة أن ينشغل الشباب الفلسطيني ولو لحظات، وسط الأزمة السياسية الخانقة، بالدبكة الغارقة في الفرح. وبدلاً من أن يعتذر، أو أن يدافع عن حق هؤلاء الشباب في الاحتفال، مكَّن القارئ من أن يكون وسط الحدث، وأخبره من دون تصنّع أن في دبكة الشباب، استعاذةً من الأحزان المحيطة. لا أكثر. ولا أقل. وفي هذه الأسطر القليلة أيضاً، يشعر القارئ بكل عناصر الفرح في القرية الفلسطينية، الليل، والأهل والعمات والخالات، وأكتاف الشباب في الدبكة.. ثم توقفت الحركة، لتركز على اللحظة الخاطفة بين البطل اللوّيح، والفتاة التي خصته بالنور.

وحده اللويح،
في منديله يرتج كل الليل
والبنت التي خصته بالضوء المصفى
أصبحت كل البلد.

وفي منديل اللَويح، يرتج كل الليل، وكأنما أصبح للنسمات أنفاس تترقب حركة منديله في اليد، ثم يأتي التناقض الجميل بين الليل والنور من البنت التي تخصه بالضوء المصفى. وبعدما كانت الحركة في القصيدة بطيئة وإن كانت قاطعة، تتسارع بشكلٍ مفاجئ وجميل في رقصة اللوَيح:

مد يمناه على آخرها
نفض المنديل مثنى وثلاثاً
قدم ثبتها في الأرض لمحاً
ورمى الأخرى إلى الأعلى كشاكوش وأرساها وتد.
كلما أوشك أن يهوي على سحجة كف
جاءه من سحبة الناي سند.
يلقف العتمة كالشهوة من أعلى بروج الليل
حتى ضوء عينيها تماماً
يعرق الصدر وشعر الصدر من ميلانه يمنى ويسرى
ثم يسري عرق الظهر عمودياً تماماً
وحياء القلب خلى كل ما في القلب يخفى
والقميص الأبيض المبتل من أكتافه حتى حزام الجلد
خلى فقرات الظهر تحصى بالعدد.

لم أر أبياتاً تصف حركة، بذلك الجمال الذي رأيته في هذه الأبيات، لقطة حية نشعر معها بأننا نرى، ولا نقرأ. ومع كل فعل من أفعال الحركة، تنتقل العين لتلتقط التغير الدرامي في الصورة. ثم تأتي الخاتمة، لاهثة الأنفاس لتبدأ لا لتنهي، حكاية العشق.

غمزة أخرى ولو مت هنا
غمزة أخرى ولو طال انتظاري للأبد!

واختلاف الأبيات وحلاوتها ليس فقط لجمالها اللغوي، ولكن لبساطة الحركة التي تصفها. مجرد رقصة في عرس. ليست الحركة عملاً عظيماً، يكتب الشاعر عنه لأهمية تدوينه، ولا حتى لها عمق أو أبعاد أخرى سيجد فيها الشاعر أشياءً تفسح له مجالاً للكتابة عنها بعد ذلك، ولا تحمل معاني إنسانية معقدة. ليست حركة الأطفال الفقراء الذين يلعبون في حارة ضيقة، أو حركة العاملة العجوز التي تكافح من أجل لقمة العيش. رقصة فقط. مجرد رقصة، وإن كانت رقصة تنبض رجولة وجمالاً.



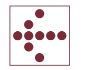
المحترف السعودي - ب.ر.

جوخة الحارثي كاتبة عُمانية مميزة، لأعمالها صبغة فنية وفكرية شديدة الخصوصية.
تنوعت مؤلفاتها ما بين الرواية والقصة القصيرة والقصة القصيرة جداً، لكنها ظلت تحمل الطروحات الوجدانية للأديبة، تلك الطروحات الممثلة دائماً في الذكرى والفراق.
الناقد علاء الدين رمضان*، يقدِّم قراءاته للمجموعة القصصية التي نشرتها الحارثي أخيراً بعنوان «صبي على السطح».

جوخة الحارثي في «صبي على السطح»

الهروب من الانكسار إلى الرمز

* كاتب وناقد من مصر



تعد مجموعة: صبي على السطح، للأديبة جوخة الحارثي، من المجموعات القصصية المميَّزة، التي صدرت أخيراً، لتضيف إلى ثقافتنا العربية المعاصرة بعداً إبداعياً جديراً بالاهتمام والتقدير، لأسباب منها: الصدق وفطرية الطرح وبراءة الرؤية، إلى جانب قدرة الكاتبة على الصوغ الفني البارع وأسلوبها في تسجيل التجربة وإدارة الواقع الجمالي للنص ووقائعه بطريقة تدفع القارئ إلى التفاعل الوجداني من دون روية أو اختيار، وكأنه صاحب التجربة الأم أو طرفها الفاعل.

وعلى مدار ثماني عشرة قصة قصيرة وخمس قصص قصيرة جداً، كانت الكاتبة قادرة على طرح رؤى متزنة في نفسيتها، حتى وإن كانت تلك التجربة تعبِّر عن طبيعة منحرفة أو غير متوازنة بذاتها، وهذا بدوره يكشف عما يمكن تسميته بالجانب الاحترافي لدى الكاتبة العُمَانية جوخة الحارثي.

أساليبها المستخدمة

ولعل من أبرز السمات الفنية لدى المؤلفة، تنوع أساليبها المستخدمة. إذ استخدمت في مجموعتها «صبي على السطح» أسلوب الرؤية من الخارج، وهو أسلوب نادر نسبياً، في بعض قصصها حيث اكتفت بوصف ما يُرى وما يُسمع من دون تجاوز ذلك إلى وعي الشخصية مثل «العرس»، و«مشوار لسيتي سنتر».

تقول في قصة العرس: «سلومة جالسة على كرسيها، ظهرها مستند بكامله على المسند، ورأسها لا بالمرفوع ولا بالمطأطئ، يداها على حجرها بالخواتم الذهبية والفضية والأساور والخرز، وقدماها ثابتتان على الأرض بخلاخيلهما، وعلى فمها شبه ابتسامة، كأن فيها من الرضا والمباركة شيئاً، أما نظرتها فثابتة، ممتدة على مدى أفقي، لا تكاد ترمش، في رنو مسترخٍ على العروس».

كذلك استخدمت أسلوب الرؤية المرافقة لتعرض بوساطته عالم النص وبيئته من منظور ذاتي لشخصية بعينها، قد تكون الكاتبة نفسها، من دون أن يكون لها وجود موضوعي محايد خارج وعيها، (مثل جُل قصص المجموعة وفي رأسها قصة «صبي على السطح» التي احتشدت بالشحنات الانفعالية.

هذا الأسلوب في معالجة التجربة هو ما تسميه الناقدة البلجيكية فرانسواز كيون: واقعية الظاهرات، حيث يعرف السارد أكثر مما تعرفه الشخصيات، لكنه لا يطرح هذه المعرفة أو يفسِّر بوساطتها خط الأحداث أو الأحداث نفسها أو يسوِّغ بها أفعال الشخصيات أو اتجاه المواقف، قبل أن تصل الشخصيات نفسها إلى ذلك، مثل قصة «الخيول الراكضة». ويدلنا على هذه المعرفة المثالية، وربما المطلقة للراوي، عدد من المظاهر أبرزها عند جوخة الحارثي الجمل الاعتراضية والتعليق أو التفسير الخارجي وإضاءة السياق والاستطراد والملاحظة وهي كلها من المميزات اللغوية عند الكاتبة؛ تقول في قصة «العرس»: «كأنها قد خلقت لذلك الكرسي، وطوال حياتها لم تعش في غير هذا المكان، كأن سلومة قد وجدت هناك منذ الأزل فوجودها متصل وسيتصل أبداً». وفي قصة «على الكرسي الخشبي في الحديقة... جلسنا» تقول: «كأن الكرسي لن يتوازن إلا بجلوسنا هكذا».

إذ تعد الملاحظة والاستطراد والجمل الاعتراضية نقاط كشف وإضاءة وتنوير تضيف إلى النص ولأبعاده الدلالية والأدائية.

أما الأسلوب الثالث الذي استخدمته الكاتبة بسعة، فهو أسلوب الرؤية الشمولية (أو السارد ذو الخلفية المتكاملة الواضحة)، وهو نمط كلاسيكي، يملك السارد فيه معرفة مطلقة لا يعوقها عائق عن التدفق خلال الصوغ، ويستخدم هذا الأسلوب ضمير الغائب؛ تقول الكاتبة في قصة التيمينة: «سيقيم أبوها مأدبة ضخمة، ويذبح خرافاً كثيرة من المزرعة، وستوزع أمها الحلوى على الجميع بعد أن يرجعوا من التيمينة، ويمروا بهتافاتهم على كل أنحاء البلد، سيلتهمون الحلويات بلا حساب، وستلعب البنات بالزعفران الذي تضعه أم نورة على وجوههن، ويدعكنه في خدود بعضهن البعض كما فعلن في تيمينة بلال، ولن تنتبه أمها إلى جانب من تجلس نورة، ضحكت نورة بحبور وهي تدندن: هذه تيمينة



مبينة فائقة رائعة حسينة..»؛ فالكاتبة هنا ذات وعي كلي متكامل داخلياً وخارجياً، فهي تعرف تفاصيل الأحداث الخارجية أكثر من الشخصيات كما تعلم ببواطن ما يدور في وجدانهم. وفي قصة الخيول الراكضة كانت الراوية على وعي مطلق بشخصية ناصر العبد الذي لم يعد يفهم المتغيرات المتلاحقة من حوله: «ناصر العبد لم يعد يفهم، كان يرى الحياة ساكنة، كان يلمس الحياة ساكنة، ولكنه عرف، بطريقة ما، غامضة، أنها ليست ساكنة كما تبدو».

والكاتبة بذلك استطاعت أن تستغرق ثلاثة أساليب مميزة في نتاج نصها: ما بين السارد الملاحظ أو الراصد للأحداث، والراوي المشارك فيها، والراوي العاكس لها؛ من خلال مراتب، توزعت بين المستويات الأدائية للسارد ومرتبته في النص، ما بين سارد كلي المعرفة أو سارد ذي وجهة نظر، وسارد موضوعي محايد.

شعرية السرد

يتميز أسلوب الكاتبة بسمات شعرية مميزة وواضحة، ربما تتجلى عندما تحاول الكشف عن نفسيات شخصياتها، لأن ذلك يكون في الغالب بوساطة لغة شفافة ذات بعد شعري وحضور لغوي واعٍ، قد يجنح إلى الغنائية، تقول مثلاً: «كانت ضحكتها موجة مشاكسة لم ترجع للبحر».

وقد تطور هذا الأسلوب الشاعري في بعض القصص ليصل إلى دور المحرك الأول للنص كما الحال في قصة «ماء غير آسن» حيث ترى عائشة الكلمات عندما تهجر الشفاه المنهكة متصاعدة، ولا يراها سواها، وكذلك في قصة «الأشياء»، حيث تقول الكاتبة في منولوج خارجي على لسان الشخصية الرئيسة للنص: «آه أيتها السعادة.. عرفتك من رنين صوتك حينما رحلت..»؛ فالكاتبة تنظر إلى اللغة على أنها كيان مستقل أحياناً. وفي سبيل ذلك تسبغ عليها قيماً تجسيدية، وقد تصفها بصفات توحي بأنسنتها، كما أنها تنظر أحياناً إلى اللغة بوصفها بنية مجردة؛ لكنها أيضاً تسبغ عليها استقلال الوجود، وتسند إليها الأفعال والتحول، تقول في «ماء غير آسن»: «وترتعش عودي أمام عيني عائشة، ثم تضطرب بقوة، فتركض لتلحق بها، فتفر، فتركض، حتى إذا ما سقطت إعياء كانت عودي عوداً خشنَ الأوتار، قد اختبأ في الفضاء»، فبين لفظتي «عودي» و«عود» تناسب جناسي في الدلالة، ومظهري في التجسيد.

والكلمات تسهم عندها في تحويل بنية النص واتجاه الدلالة. في «ماء غير آسن»، تنفي البنية ما يحاول النص طرحه من قيم سلبية تشين سيرة أم عائشة، وكذلك تعبير «الكلمات البيضاء»، يدرأ عنها سوء الظن الذي حاول النص إثباته بقوة، فيظل الغموض عالقاً بذهن المتلقي الذي لا تسعفه أية دلالات لتكوين حكم قاطع على شخصية أم عائشة، وربما سبب ذلك أسلوب استخدام الكلمات، وإحساس المؤلفة بها.

ومـن أبرز أنماط الاستخـدام الدلالي للغة لدى الكاتبة، الارتقـاء بالغرائـز عنـد الحاجـة إلـى الإحالـة عليها، فالكاتبة ذات لغة وأسلـوب على درجة عالية من الرقي، تحتـرم الفكرة التـي يلوح بها النـص وتسبغ عليها ذلك الوقـار، حتـى وإن كانت إحالـة على غريزة تصل بين يـدي كُتَّاب آخريـن إلى الابتذال والإسفاف، والأمثلة على ذلك كثيرة. فمثلاً قصة «المحبـوب» من المجموعـة، تحتشد بالإيحـاء والإحالة الجنسية التي تشي بعدم تحقـق العلاقة الزوجيـة، ترسخها عبارات مـن قبيـل: «إلا أن قبضته قـد صدئت على المفتـاح دون أن تهتـدي إلى موضع القفل»، و«العجز عن امتلاك المحبوب».

استخدام الأبعاد النفسية والوجدانية بقدرة تماثل البراعة في صوغ التجارب بأساليب متعددة

ومـن ذلك أيضاً قولهـا في قصة «صبي علـى السطح»: «توتـر جسد الصبـي وتصلبت كل عضلة فيـه وهو يرى خصلاتها تلتصـق بجبينها ورقبتها». وهو إيحاء جنسي واضـح لكنـه غير مبتـذل ولا مخـل، يرتكز علـى البعد الإشـاري والطاقـة الإيحائيـة الكامنة في لغـة المؤلفة وقدرتهـا على توظيف مفرداتها مـن ناحية، ومن ناحية أخـرى عمـق الإحسـاس بالتجربـة الفنيـة وأساليب نتاجها.

والتكرار من سمات الأسلوب

أما التكرار فيعد من سمات الأسلوب لدى الكاتبـة، وهـي سمـات ذات بعد نفسـي بالدرجـة الأولى؛ لأن اللفـظ لن يحمل دلالتـه عند تكراره المـرة الثانية؛ إنما سيحمل ظـلاً إشارياً، بينما يقـل المعنى المحمول بوساطتـه بوصفه معرفـة، لكنه عندئذ يفتـح سيلاً من الدلالات الوجدانية والنفسية، ويلعب أدواراً في مجالات بلاغيـة ونحوية أخرى كالتأكيـد، تقول الكاتبة في قصة «المحبوب»: «وهمست.. همست لي»؛ فالتكرار هنا يوحي بالانفعال، وتأكيد اتجاه الهمس إليه يزيد الانفعال أهمية لتخصيصه وقصره على نفسه.

ومـن أوجـه استخـدام التكـرار عنـد الكاتبـة، التكرار ذو المعطيـات الدلاليـة الضمنيـة التي تسهـم في دعم التصاعـد الدرامي للحدث داخل القصة، ولا يقوم دونه البناء النسقي والدلالي للتجربة الفنية، مثل جملة «ندف الغيم الأبيض»، التـي كررتها الكاتبة في القصة الرابعة «في الساعـة الأولى» من قصصها القصيرة جداً، حيث وردت الجملة في درج النص وآخره.

التصوير النفسي للواقع

وللمؤلفـة قدرة مؤكدة علـى استخدام الأبعـاد النفسية والوجدانية، تضاهي قدرتها على صوغ تجاربها بأساليب لغويـة وفنية بارعة. ومن وسائلهـا لتحقيق هذه البراعة التصوير وتجسيد الحالات الوجدانية داخل صورة مؤثرة، تراوح بين الرومانسي والدرامي، فتحمل في رومانسيتها المتلقـي إلى آفاق مـن المتعة والتأثـر الوجداني، بينما تضعه دراميتها في بوتقـة ساخنة من التطهير النفسي. فالمؤلفة تكتب بعض نصوصهـا وكأنها أغنية رومانسية حالمـة وزاخـرة بالمشاعـر والشحنـات النفسية، ومن تلـك النصـوص: «بستـان الزيتـون»، و«جنـان»، و«حبة الفاصوليـا»..، كما تكتب قصصـاً أخرى بمنطق درامي يشتعل واقعـه بالانكسار والضغـوط والإحساس بالعجز لحـد التحول والتنـازل عن السمـات الشخصية المهمة كما في «فراشة البحر»، حيث تغرق الشخصية الرئيسة فـي الهروب النفسـي الذي تولد منه تحـول مادي كناية عن الإغراق في الهروب الوجداني أيضاً، والتقوقع داخل عالمهـا الخاص؛ بعيداً عـن صراعات الحيـاة والحب والمادة والاختلاس والعوز.

وقد كرَّسـت الكاتبة بنية النقيض لتجعل منها مدار الرؤية في قصتها «نقط خضراء



فـي فستان أبلـة فتحيـة»، إذ تعتمـد القصة علـى بنية التناقض التي شاعت في كل تفاصيلها، فالمدرِّسة التي يجـب أن تكون أماً رؤومـاً، تتحول إلى شخصية متسلطة ونفعيـة، واللـون الأخضـر المسالم يتحوَّل إلـى نوع من التلويـح بالعقـاب والقهـر وحامـل الرهبة، ثـم فيما بعد العقاب نفسـه يمثله الخرطوم الأخضر.

نصوص الحارثي ذات أبعاد زمنية شديدة الخصوصية والحساسية، وتحتشد برؤى فنية جديرة بالتوقف أمامها

زمن النص

تجيـد الكاتبـة اللعب علـى وتـر مستويات الماضي. فهذا الماضي الذي تنظم الكاتبة عقـده ماض مضـيء، متداخـل، لكنه يظل حاضراً في نفسها لوضوح أثره فيها وضوحاً سافراً حتى لحظة القص، مما جعل لزمن النص أبعاداً غايـة في الثـراء والعمق؛ فللتجربة زمـن، ولمطروحات النص زمـن ولدلالته بُعـد زمني ثالث، مغايـر للبعدين الأولين .

ومـن أبـرز طبقـات الاسترجاع مـا عالجت بـه المؤلفة قصتها «بستان الزيتون»، حيث أبرزت نمطين من أنماط الاسترجاع، هما:

- أولاً: الاسترجاع القريب؛ من خلال الحلم: «في الحلم الـذي لم يتوقف عن الهبوط فـي نومي / كان الورد لا يلون قدميها».
- ثانيـاً الاسترجاع البعيد؛ مثل استرجـاع مشهد طعام الإخوة.

وكذلـك تعتمد قصـة «سأصلـح القطار» علـى الموقف الاستدعائي الاسترجاعـي، الذي يختلط برغبة جامحة في الامتزاج بالماضي والحرص على استبقائه والتفاعل معه. لكن هيهات، فما الذي ستجنيه سارة بعد موتها من إصلاح القطار؟؟

والانفصال عن الماضي في مجموعة «صبي على السطح» بعامـة، يصيـب الشخصيـات بالتوتر ويصيـب التجربة بالانفعـال وعدم الاتـزان النفسي؛ فتحـول رجب العالي كانت له علاقة مباشرة بذاكرته، وبنية الماضي داخلها؛ إذ اكتشـف أن المرأة التي تزوجهـا وعاش معها كل هذه السنـوات، منفصلـة انفصـالاً كليـاً عن الماضـي الذي يعيش فيـه، أسيراً له؛ إذ «لا علاقة لكل ذلك بهذه المرأة المستسلمة له لأسباب تتعلق بطبيعة البشر الغريبة، التي لم تحـاول الهرب إلى بيت أهلها ولـم تحرمه من الطفلة التي أصبحت في المدرسة»، إنما له علاقة بعدم إحساسه بامتـلاك النمط القديم الـذي أسره، وظـل يبحث عنه، لكنه لم يكن له واقع إلا في وهمه.

فنصوص جوخـة الحارثـي ذات أبعـاد زمنيـة شديدة الخصوصيـة والحساسيـة، إذ تتعامل مـع أنماط زمنية غير أنماط التجربة في الواقع، ولذا نشأ افتراق فني بين زمن النص وزمن الواقع، كما في قصة «نقط خضراء في فستان أبلة فتحية»، وقصة «فراشة البحر»، وغيرهما.

وأخيراً، تحتشـد المجموعة برؤى فنية وصوغية، جديرة بالتوقـف أمامهـا وملاحظة دورها فـي النص من قبيل: المـكان والزمن واستخدام الضمائر وبناء الشخصيات، وأنماطهـا السالبة والموجبة، وعناية الكاتبة بالشخصية النموذج، وبناء العالـم الخاص، واختلاق الواقع البديل، واستخـدام المعادلات الخارجيـة الموضوعية والداخلية النفسيـة. والبنيـة الوجدانيـة والبعـد النفسـي للنص، ذو حضـور فاعـل في بناء جـل القصـص، وفاعليته في السـرد، وانعكـاس ذلـك حتـى علـى الصوغ مـن خلال إبـراز الشحنـات النفسيـة التـي تظهـر فـي النصوص بوساطة الجمل القصيرة، على مستوى اللغة، والأوصاف ذات الأبعـاد الإيحائيـة نفسيـاً. وكذلك الصـور البيئية والتناص والاستعانـة بالمأثـورات والحكايـات الشعبية المحلية والقوميـة والعالمية؛ واستخدام الألوان والرمز، والتلاحق الوصفي في النصوص، وشيوع التوزع النفسي، والإحساس المفرط بالفقد وانتهاء الـدور في كتاباتها. ثـم أشير على نحو بارز إلى الاستخـدام اللغوي والقصة اللغوية، وعتبات النص: العنوان والاستهلال والنهاية، ثم الناتج الدلالي.

وإجمـالاً، تعـد أعمـال جوخـة الحارثـي بيئـة نموذجية للتناول النقـدي، ولا أتصور أن دراسة واحدة قادرة على استغـراق توصيف أبعـاد هذا العالم وسبـر أغواره، إنما تظـل لبنة في بناء لا يدعـم النص إلا كما يدعم الإطراءُ نجاحَ المجتهد.

من قصص المجموعة:



1 - صبي على السطح

تلفَّت الصبي فلم ير أحداً وراءه، انسرب من سكة لأخرى، سلمته الأزقة المظلمة للأشد إظلاماً، اقترب من بيت العرس فدار حول نفسه فرحاً بالأصوات والأنوار، التصق بالجدار سائراً على أطراف أصابعه مبتعداً عن مجلس الرجال المنفصل حيث فاحت روائح القهوة والحلوى الساخنة، اجتاز الممر المترب بين المجلس والحوش، تناهت إلى سمعه أصوات ضحك النساء وغنائهن، فتأكد أن الحفلة تقام في الهواء الطلق، وبدأ في تسلق الجدار.

جسمه الضئيل لا يشي بأعوامه الثلاثة عشر، أمسك طرف دشداشته بفمه وهو يتسلَّق الجدار بخفة، زحف بهدوء حتى سطح المخزن، دعس شيئاً من الليمون المجفَّف هناك فلعن أصحاب الدار، ظل منبطحاً على بطنه في حين أطل برأسه على حذر فلم ير غير منظر جزئي للحوش المضاء بمصابيح النيون، والمراوح المثبتة على الأرض بقواعد طويلة، وبعض النساء يخطرن حاملات صواني الطعام أو مجامر البخور أو مراش ماء الورد. الأغاني تملؤه، يعرف أنهن يرقصن الآن ولكنه لا يتمكن من الرؤية، تأفف، تلفت، ثم زحف بتهور من سطح المخزن إلى سطح المطبخ الأوطى، ضاعت ضجة قفزته في الأصوات المختلطة، أصبحت حلقة الرقص على بعد أمتار قليلة، عيناه الضيقتان تتنقلان بحرية بين أجسام البنات الراقصة ووجوههن الفرحة، يهز رقبته وكتفيه، ويدندن بصوت خافت، يرسل بصره إلى صواني العيش واللحم، يتلمظ، ثم يعود ليتابع الخصور المهتزة في الفساتين المطرزة، ينظر إلى الجهة المقابلة فلا يرى شيئاً من العروس المغطاة بالكامل، يهز رأسه مع الصوت الشجي: «عند العصر يا الكوس هبي، والزين روح عني مغرب، ومن بعده ما صفا لي محب..»، يرقصن فرادى ومجموعات، كلما تعبت واحدة عادت لتقعد وقامت أخرى غيرها، الصبي يصفر بمرح تصفيراً خافتاً متقطعاً، ويطأطئ رأسه بين الفينة والأخرى حذراً من ضبطه في هذا الكون الجميل المحظور.

اتجهت إحدى البنات بخطوات راقصة إلى امرأة تجلس في طرف الحلقة وسحبتها من يدها، فألفت المرأة التي على حافة الثلاثين نفسها وسط الأجسام النحيلة الراقصة، أخذت تضبط إيقاعات جسمها الطويل المائل للامتلاء شيئاً فشيئاً، أبصرها الصبي في الحلقة بغتة فلم يبصر ما عداها، بهذا الفستان الفيروزي الطويل الأكمام، واللحاف اللامع، لم يرها وهي تنهض، لم يرها وهي تحاول ضبط إيقاعها، رآها وسط الحلقة، ترقص، مستغرقة في ذاتها، يداها مطوحتان في الهواء، وكل ذرة في جسمها منقادة بلا حول لإيقاع الغناء، أبصرها الصبي فحاول أن يتملاها، زحف على يديه وركبتيه غير آبه بأية عين طائشة قد تلمحه، أطل برأسه الصغير من فوق الحلقة تماماً، بحث عن عينيها ولكنه لم يرهما، كانتا غائبتين، وكانت نهشة العشق الصاعقة قد أطبقت أنيابها على روح الصبي، وحدها كانت هناك، وحدها تهز كتفيها بهذا التناغم المدهش، وحدها يتمايل جذعها بلمح البصر، ووحدها دقت بقدميها الأرض ففتت أصابعهما الحافية قلب الصبي، وحدها كانت، ووحدها ستظل إلى الأبد، والعالم كله قد تلاشى واضمحل ليبعث بين أصابع قدميها، مد الصبي جذعه للأمام، جف حلقه واللحاف يتزحزح عن رأسها شيئاً فشيئاً، انساب العرق من مفرق شعرها إلى رقبتها، تفلتت الخصلات السوداء وتبعثرت، توتر جسم الصبي وتصلبت كل عضلة فيه وهو يرى خصلاتها تلتصق بجبينها ورقبتها، الرقبة الحليب، الرقبة الفضة، يلمع فيها العرق حتى يغسل حبة الخال أسفلها منحدراً إلى النحر، إلى النهر، تدور حول نفسها، تهبط متمايلة إلى الأرض، وترتفع مرتعشة إلى السماء، وحبة الخال تغتسل مراراً بخط العرق المتصل، الذهول يغيب الصبي كما يغيب عينيها، هتفت بنت بشجن: «شفت غزيل شارد بين الغزلان..»، حمل الغزال الصبي على ظهره وشردا معاً، تسارعت إيقاعات المرأة وتثنت، كاد الصبي أن يبكي لمخالب الألم الصاعق من تموج جسمها، جسمها الماء، جسمها الموسيقى، جسمها النُّبل والنِّبال، جسمها الملتوي حول عنق الغزال، محكم الالتفاف عليه، خانقه، حتى ترنح متهاوياً مسقطاً الصبي عن ظهره محشوراً بين جدارين موثقاً بحبال العشق الغليظة.

2 - التيمينة

منذ تلك اللحظة التي أوقفتها أمها بمواجهتها عرفت البنت الصغيرة أنها لم تعد طفلة، وكان هذا أهم حدث في حياتها على الإطلاق.

وضعت الأم يدها اليسرى على كتف نورة النحيل، وناولتها باليمنى مصحفاً أخضر اللون. تلقت نورة المصحف بكلتا يديها، حدقت في نقوشه البديعة المتداخلة، وتتبعت حروف «القرآن الكريم» على غلافه، أسرها الخط الفاتن الذي كُتبت به الكلمتان، تحسست الغلاف الصلب القوي، وارتعش بدنها بنشوة الفرح.

منذ هذه اللحظة ستحمل نورة معها إلى الكتَّاب هذا المصحف الكبير الذي جلبه عمها من الحج، كُتب عليه: «طبع

بالمدينــة المنورة»، ونورة تحفظ نشيد «طلع البدر علينا»، وتهتز لذكرى المبعوث المهاجر إلى المدينة، وحين تصفَّحت المصحف مرتجفة كانت زخارفه الداخلية ملونة، وعظيمة، واجتاح الشوق نــورة لتدخلها، وتعانقهــا، وتلتحف بتعريجاتهــا المدهشة، هذا المصحف الأخضر المهيب به كل السور، كل السور التي يعرفها الكبــار ويحفظها المعلم «سرور»، وكل أسمائها موجودة في آخر المصحــف: «البقــرة.. آل عمران.. النســاء.. المائدة..»، حتى الســور الطــوال التي تفتح بــاب الجنة يحويها هــذا المصحف، وكل هــذا لنــورة، لها وحدها، وهي وحدها –من بين كل إخوتها وأترابها– ستحمل اليوم إلى الكُتَّاب هذا المصحف العظيم، في حيــن سيظل الباقون يحملون مصاحــف خفيفة الوزن، بها جزء عــم والحــروف الأبجدية فقــط، أغلفتها باهتــة، ولا نقوش بها، ولا يكتب على غلافهــا «القرآن الكريم»، يُكتب «جزء عم» فقط. احتضنت نورة مصحفها الجديد، ومضت إلى الكُتَّاب.

الطريــق طويلــة ومتربة، ونــورة تشد المصحــف بقوة إلى صدرهــا، لم تركض لئلا يصل الغبــار إلى المصحف، لم تدلع لسانها لحسون المجنــون، لم تتوقف لتغمس رجليها في الفليج وتلعب بالماء، لم تمر على بيت زينة العمياء لتقودها إلى الكُتَّاب وتــأكل الملبس من يــد جدها، لم تتأمل دكــة دكان عامر حيث اصطفــت الحلويات المترفعــة بالأغلفة الزاهيــة، كانت تمشي كأنها لا تمشي، كأن موجاً هيناً تحتها يدفعها، وشيء واحد على هذا العالم يشغلها: «التيمينة».

بــلال ابن الجيران كان عنده مصحــف كبير –لم يكن من الحــج ولا مزخرفاً كمصحف نورة– ولكنه ختمه، فأعلن المعلم سرور ذلك على الملأ، وأقاموا التيمينة لبلال.

دخلت نــورة إلى الكُتَّــاب، تلفتت حولها مزهــوة لكن أحداً لــم يلاحظ مصحفهــا الجديــد، على يميــن القاعــة الواسعة المفروشة بالحصــر تحلقت البنات في حلقات يقرأن بأصوات رفيعة وهن يهززن رؤوسهــن وأبدانهن الصغيرة، وعلى اليسار تبعثر الصبيان بين قارئ وصانع نبل، والمعلم سرور في الوسط منكفئ الرأس لم ينتظم شخيره بعد.

ظلــت نورة واقفة لبرهة تنقل بصرها فيهم، تخيلت كل هؤلاء الصبية والبنات يخرجن من الكُتَّاب، جماعات متماسكة الأيدي، وتسير هي والمعلم سرور في المقدمة، في حين يهتف أكبرهم:

«هـــذا أخــوكــم قــد كــتــب وقــد قــرا
وفـــاق فـــي الــخــط عــلــى كــل الـورى»

فيهتــف الصبيــة والبنات: «آميــن.. آميــن..» وينطلقون في جميع الحــواري وتحت كل النوافذ مرددين هتافاتهم فرحاً بها.. جلست نورة متربعة علــى الأرض، وضعت المصحف الجديد في حجرهــا، وأسنــدت رأسهــا إلى الجــدار، مجموعة مــن الصبية أرسلهم المعلم ســرور إلى بيت حمد يدخلون الآن منتشين بالانتصار وهم يجرونه من يديــه ورجليه، ضحكت نــورة، كلما هرب حمــد من الكُتَّاب أرســل المعلــم الصبيــة خلفــه، وسقاه من خيزرانته الرفيعة.

تخيلت نــورة دشداشتهــا الجديدة يوم تيمينتها، وشعرها المسرح في ضفائر كثيــرة، ويد المعلم سرور الكبيرة تقبض على يدها، والصبي يهتف:

«يا ربنـــا يا قاســـم الأرزاق الواحد الفرد العزيز البــاقي
هذا الصبي ارزقه علم الأثر وهب له حفظ جميع الســـور
وهـــب له الفقـــه والفصاحة والزهد والعفة والسماحة..»

فيرتفع الهدير من خلفهم: «آمين.. آمين» ويمطُّون كلمة آمين حتى يحدجهــم المعلم ســرور بنظراته، فيتضاحكــون ويعبرون بوابة القلعة الخشبية، ويمرقون بين الضواحي، ويغافلون المعلم ليتراشــوا بماء الفليج، وينعطفون بعــد مركاض الخيل متجهين إلى بيت نورة.. دقت نورة رأسها في الجدار جذلاً، ولكنها رغبت أن تغير كلمة «هذا الصبي» إلى «هذه البنت»، وتحسست شعرها حيث ستنساب الضفائر، فانتبهت فجأة إلى أن شمسة بجانبها، حذرتهــا أمها مراراً من الجلوس بجانب شمسة لأن رأسها مليئة بالقمل، وسيسحبها في النهاية إلى البحر، ويغرقها.

لم تكن نورة قد رأت البحر، وتخيلت أن تذهب إليه مسحوبة من القمر كما يسحب الصبيان حمد، فضحكت.

سيقيــم أبوهــا مأدبــة ضخمــة، ويذبــح خرافــاً كثيرة من المزرعــة، وستــوزع أمها الحلــوى على الجميع بعــد أن يرجعوا من التيمينة، ويمروا بهتافاتهم على كل أنحاء البلد، سيلتهمون الحلويات بلا حســاب، وستلعب البنات بالزعفران الذي تضعه أم نــورة على وجوههن، ولــن تنتبه أمها إلــى جانب من تجلس نورة، ضحكت نورة بحبور وهي تدندن:

«هذه تيمينة مبينة فائقة رائعة حسينة..»

« أنت.. يا من تضحكين»

رأت المعلم سرور واقفاً أمامها، بكامل يقظته وغضبه..

أشــار لها بخيزرانته: «والمصحف مقفل أيضاً؟.. أنت هنا للعــب والضحك؟.. لــم لا تفتحي المصحف وتقــرأي؟..» وبيد قوية أبعد ظهرها عن الجــدار، فسقط المصحف الجديد من حجرها، وأحست بلسعات الخيزرانة المتتابعة.

(من مجموعة صبي على السطح ، للأديبة العمانية جوخة الحارثي، نشر دار أزمنة، الأردن، 2007م).

قول آخر

الشعر قبضة نثرية

زياد بن عبدالعزيز آل الشيخ*

القصيدة في سجن الرجعية عندما تفتح الأغنية على مصراعيها للناس؟ إن الأدب العربي الحديث تحوَّل من حديقة مبللة إلى بادية صفراء، تقطنها قبائل وعشائر تتقاتل فيما بينها، قبائل يسكن خيامها اليوم، لا ترى بعر الآرام في عرصاتها ولا قيعانها. فحملة تسير إلى كتاب نثري تدثر ببرنسٍ شعري أحمر، وغزوة تشن على قافية نافقة، وأسرى وسبايا وجرحى يتداوون بالشعر الشعبي وأطفال مشردون.

هكذا هي الحال من خمسين سنة. ففي كل مرة يدخل النثر إلى إيوان الشعر، تسل السيوف، وتنتصب الرماح، والسكاكين والخناجر تحت الطنافس الحريرية. رغم كل ذلك، ظل الشعر والنثر محافظين على الود الذي بينهما، يلتقيان نهاية الأسبوع في مقهى مفتوح على شارع التحلية، ويقضيان نهار الخميس سوياً في ممارسة هواية صيد السمك. يحدث ذلك منذ سنين، والثقافة العربية مشغولة بمعارك داحس والغبراء بين الشعري والنثري في الصحافة وفي الأمسيات والصالونات الأدبية. ليس من الطبيعي أن يستمر الجدل حول قصيدة النثر طيلة خمسين سنة دون حل لهذا النزاع، ولا يمكن أن تظل القصيدة العمودية خاضعة للأحكام العرفية دون أمل في أن تعود هذه المدينة إلى خريطة الثقافة العربية كما كانت.

1

النثر منطقة رعوية خالية من السلاح، والشعر قبضة زهر وعشب من ذلك الحقل عشوائي الإيقاع ربما هكذا عرف أول راعٍ أغنيته الخضراء تحت شجرة بلوط، وهو ينظِّف نايه المصنوع من سيقان قصب السكر، كما ينظِّف جندي بارودته آخر الليل. قد يكون هذا التعريف غير صالح في نظر فيلسوف علم اللسانيات وهو يشرح نصاً بمشفر النقد المسنون فوق طاولة الفرضية الخضراء. وقد يكون غير جديد أيضاً، أن يلتقطه طالب في الثانوية، لا يحب الرياضيات، ليكتبه على قماشة من كتان ويعلقه على دراجته ليقول: هذا علمي المعرفي.

إلا أن هذا التعريف يعبِّر عن التباس ضروري في دورة الإبداع الدموية، بين قاصٍ اكتشف أن ما ينقصه لكتابة رواية تاريخية بيتان من شعر الغزل، وشاعرٌ اكتشف أن ما ينقصه ليكمل ديوانه الأخير فصل من رواية بوليسية. ولا يفك هذا الالتباس تدخل جراحي في غرفة العملية الإبداعية، أو إضافة متغير ضروري لمعادلته التفاضلية، أو الذهاب في نزهة في حديقة وطنية، في منهاتن مثلاً.

2

هل يغضب أحدٌ عندما يمشي النثر حافياً ويحني أنامله المشققة بتوت الشعر؟ وهل من حق أحد أن يحبس

3

إن اغتيال الأجناس الأدبية ليس من اختصاص النقد الأدبي، بل من اختصاص المخابرات السرية، والادعاء بأن أوزان القصيدة العربية قد ماتت بالسكتة القلبية ليس من اختصاص ناقد ألسني، بل من اختصاص الطبيب الشرعي. فالنقد العربي اليوم يقسم وقته بين نقد الأدب والمقبرة، بين دراسة النظريات النقدية ومجالس العزاء، فالنقد الأدبي مات، والقارئ العربي مات، والشعر العربي مات. لذلك ليس على القارئ أن يشكل محكمة مستعجلة للنظر في النصوص، شعرية أو نثرية، ولا أن ينساق خلف دعوات حضور تنفيذ الأحكام الغيابية على مرتكبي هذه النصوص.

4

أعتقد أن القارئ العربي ما زال قادراً على فرز المشهد المشتبك كالأسلاك الشائكة دون أن تدمي يديه أطرافها المدببة، ومن دون أن يطلق رصاصة واحدة في الهواء. وهو قادر أيضاً على محاذاة الساحل النقدي المتعرج دون أن يتقاطع معه أو يتبلل بمياهه المالحة أو تعلق في شسع نعله طحالبه الطفيلية. فما عليه إلا أن يحتكم إلى ذوقه الشخصي، فإن كان ذوقه كافياً لاختيار لون قميصه الأزرق كسماء ربيعية بعد ديمة سكوب، فذوقه إذاً يكفي لاختيار قصيدة غزل يضعها على جيد زوجته في يوم ميلادهما المجازي. وإن كان ذوقها كافياً لاختيار شال حرير يفيض بأوراق الخريف تغطي به استدارة قمرها المورد، فذوقها يكفي لاختيار ديوان شعر يتساقط من صفحاته الكرز وحبيبات التوت البري.

* شاعر سعودي

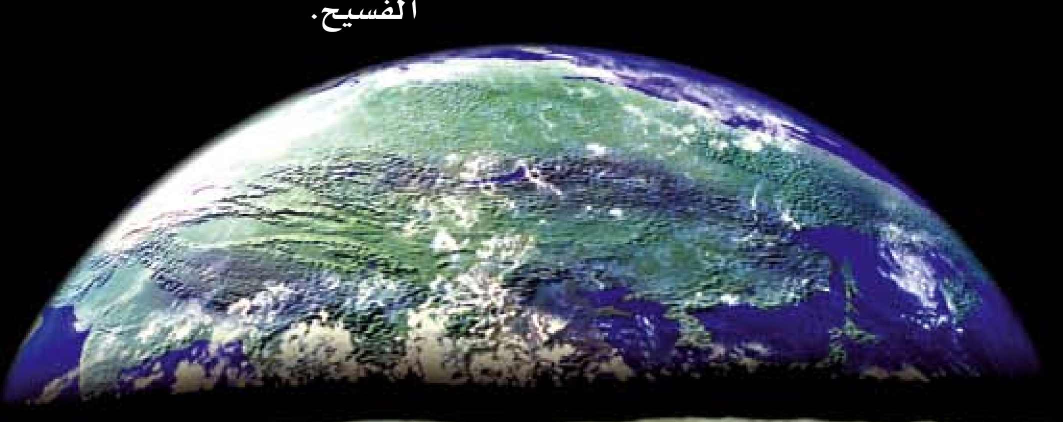
كانت الأرض صغيرة،
زرقاء زرقة فاتحة،
ووحيدة على نحو مؤثر،
وطننا الذي يجب أن نحميه
مثل تحفة مقدسة.
كانت مستديرة استدارة تامة.
أظن أنني لم أفهم يوماً
كلمة مستدير،
حتى شاهدت الأرض من الفضاء.

أليكسي ليونوف الرائد الروسي،
لدى مشاهدته الأرض من قمرته الفضائية أول مرة

الكرة الجميلة

شاءت الصدف أن يُعدّ فريق القافلة هذا الملف للنشر في الذكرى الخمسين لانطلاقة أول مركبة تحمل قمراً صناعياً للفضاء الخارجي. وهذا الحدث الذي أطلق بدوره سباق ارتياد الفضاء بين الدول الكبرى، أطلق أيضاً أحلاماً لا حصر لها حول مستقبلٍ يغادر الإنسان فيه كوكبنا هذا وتقام مُستعمرات بشرية في كواكب أخرى.

إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث، وعادت الأنظار ومنها أنظار روَّاد الفضاء تحيط كرتنا الصغيرة التي نكرِّس لها هذا الملف فيما يزداد القلق حول مصيرها وسلامة بيئتها، دون أن يتوقف البحث عن كواكب بديلة في مكان ما من الفضاء الفسيح.



صور هذا الملف من كوربيس Corbis

كيف ظنوها في الزمان الغابر؟
الأرض البسيطة!
نسأل: هل انبسطت الأرض؟
الجواب: لا. إن الأرض ما انبسطت، لكنها بسيطة لكل من سار ويسير وسوف يسير عليها...
إنها بنظر كل عالم أرض مكورة، لكن تكوّرها لا يحسه السائر عليها أبداً...
كيف تخيّل الإنسان صورة هذه الأرض التي أمضى عليها القرون الطوال؟

الأرض..
كرة أم قرص مسطح؟

الأرض عند البابليين

خال البابليون الأرض قرصاً مفرطحاً منبسطاً طافياً فوق الماء. وأحاط الماء القرص الأرضي، فتلك هي البحار. ومن وراء البحار قامت جبال تحمل قبة السماء هذه من أطرافها. ونجوم السماء كيف تظهر وتختفي إذن؟ إنها تدخل من ثقوب في القبة السماوية، ومنها تخرج. وخارج القبة السماوية كان ماء، ودليله المطر الهابط من السماء.

وبمثل هذا الرأي أخذت شعوب تلك الأعصر. وقد رصد البابليون الشمس والكواكب والنجوم في حركتها رصداً مرضياً، لكنهم لم يذكروا سبب تحرك هذه النجوم. ورأوا حول القمر شيئاً كالضباب فسموه الهالة. وكانت عندهم هالة حول القمر نفسه، فهي ظاهرة سماء، ونحن اليوم نعلم أنها ظاهرة جو أرضي. والمذنّب، رأسه وذيله، ظنوه ظاهرة جو. وهكذا خالوا الشهب، ونحن نعلم اليوم أنهما آتيان من الفضاء، فيما وراء الجو الأرضي.

... وعند قدماء المصريين

لم تختلف الأرض عند قدماء المصريين في البدء كثيراً عما كانت عند البابليين، وكان بينهم تجارة واتصال. ذلك على الرغم من سبق المصريين في الصناعة والفن والهندسة والحساب. وقد خال المصريون الأرض قرصاً بيضوياً مبسوطاً، ومن فوقه قبة حملت الشمس والقمر والنجوم، وزركشوا هذا الخيال بأن أدخلوا إلى الصورة شيئاً من عقائدهم الدينية، وصوراً سماوية وأرضية. ففسَّروا بها القوة التي تحمل السماء، والقدرة التي تثبت الأرض.

لكن الفراعنة اكتشفوا فيما بعد أن الأرض كروية، حين قاسوا المسافة بين أسوان والإسكندرية، وحسبوا قطر الأرض بدقة تثير الإعجاب. وقد عرفوا أن السنة الشمسية 365 يوماً، وقسموها اثني عشر شهراً، كل شهر 30 يوماً، وزادوا خمسة أيام يستتم بها العام. وأدركوا كذلك أن العام لا يكتمل بغروب النجم «سوثيس» إلا إذا أضافوا إلى 365 يوماً ربع يوم. وفوق ذلك أيقنوا أن دورة الفلك لا تعاود سيرتها الأولى، فتطلع النجوم ساعة أن كانت تطلع، وتغرب ساعة أن كانت تغرب، إلا بعد دورة كاملة تستغرق 1460 عاماً. وسموها الدورة السوثيسية، أي التي في آخرها يغرب النجم «سوثيس» في الوقت نفسه الذي كان يغرب فيه في أول الدورة.

.. وعند اليونان

بدأ اليونان، في العهد الهومري (Homer) نحو القرن التاسع قبل الميلاد، يتصوّرون الأرض والكون كما تصورهما المصريون والبابليون أولاً قبل خمسة آلاف سنة، قرصاً استقر فوق ماء، ومن فوقه قبة السماء. ولكن، كان من عُمُد الجمال عند اليونان تماثل الأشكال، والكون لا بد جميل، ولذا تراءى لهم أن مثل القبة فوق قرص الأرض، فلا بد من قبة تحتها مثل



الأولى تماماً، وإليها تذهب أرواح البشر عند الموت. وعلى هذا النحو، بدأت فكرة الأرض التي تتوسط كوناً مكوّراً، هي مركز الكرة منه.

وجاء فيلسوفهم الأول طاليس (Thales) وتبعه الفيلسوف أناكسيمندر (Anaximander) فلم يغيرا هذه الصورة كثيراً: أرض مبسوطة كالقرص، من فوقها قبة، ومن تحتها قبة. وكان الفيلسوف فيثاغورس (Pythagoras) في القرن السادس قبل الميلاد، أول من قال في اليونان، إن الأرض نفسها كرة. وكان هذا على الأرجح تلبية للحاجة إلى رؤية جميلة للكون، فكون مكوّر يستدعي أن تكون في وسطه أرض مكورة. وهي كرة ثابتة حولها تتحرك الأجرام جميعاً. وقد تسربت فكرة كروية الأرض إلى اليونان من الفراعنة، مثلما يؤكد العالِمُ الفرنسي غيوم أندريه فيوتو. إذ قال أراستوثينيس في سنة 240 قبل الميلاد تقريباً، إن الأرض كروية، واستند في ذلك إلى رأي العلماء الفراعنة، الذين قاسوا المسافة بين أسوان والإسكندرية، واحتسبوا محيط الكرة الأرضية بدقة، بوضع النسب الحسابية للظل في كل من المدينتين. لكن الفراعنة كانوا يعرفون هذا قبل زمن طويل، إذ بنوا الأهرام، استناداً إلى معرفتهم الدقيقة لعلم الفلك.

لم تكن معرفة اليونان بالفلك على حقيقته، صحيحة، فكيف فسروا تحرك الأجرام السيارة حول كرة الأرض الثابتة، وهي تختلف في دورانها السنوي عن سائر نجوم السماء الثابتة مداراً؟

قال فيثاغورس إنها تتحرك في أكثر من مدار، فالشمس تدور في دائرة حول الأرض تقطعها في عام. في الدائرة الأولى اختلاف الليل والنهار، وفي الثانية اختلاف الفصول. وسيطرت هذه الصورة على خيال الأوروبيين، منذ فيثاغورس، وامتدت 16 قرناً بعد الميلاد، مع قليل من التغير. لكن أفلاطون رأى في شأن منطقة البروج أنها كانت دائرة واحدة، ثم انقسمت إلى دوائر سبع، في الأولى دار القمر، وفي الثانية دارت الشمس، وفي الثالثة عطارد، فالزهرة، فالمريخ، فالمشتري، وأخيراً زحل، كل في دائرة له (مدار) خاصة.

ورأى أرسطو بعد أفلاطون، أن من الفلاسفة، وهم علماء ذلك الزمان، من شك في صورة الأرض وأنها مكورة، كما خالها فيثاغورس وأفلاطون. فطلب أرسطو لتكور الأرض البراهين. وهي براهين معروفة مشهورة اليوم، منها اختفاء سفينة الشراع التي تخرج إلى البحر، إذ تختفي عن البصر ويظل شراعها مرئياً. ثم يختفي الشراع رويداً رويداً بسبب انحناء الأرض. ومن البراهين التي جاء بها أرسطو أيضاً بناء على ملاحظته، أن السائر في الأرض إلى مصر مثلاً، يرى من النجوم في الجنوب، ما لم يكن يراه وهو في اليونان، واتخذ ذلك دليلاً آخر على تكوّر الأرض.

.. وعند العرب

ومثلما أخذ اليونان عن الفراعنة، أخذ العرب عن اليونان، لكنهم طوروا

كثيــراً علم الفلك، ليبلغوا بــه مرحلة متقدِّمة، واستقــر الرأي عندهم على أن الأرض كرة، وقالوا إن الشمس مركز النظام الشمسي. وكان هذا تقدماً كبيراً في هذا العلم. لكن علوم العرب لم تنتشر في أوروبة، وظلت قروناً في بطـون الكتب العربية، وفي خرائط الجغرافييــن والرحالة. ونُسي كل هذا، وســاد أن الأرض هي الأصــل الذي يدور حوله الكون كلـه. حتى جاء القرن السادســ عشر واقتنع علمـاء الأوروبيين، ومنهم كوبرنيكوســ، وجيوردانو برونـو بأن الشمس هي المركـز الذي تدور حوله الكواكـب، والأرض معها، ولم تزد القرون التي جاءت بعد ذلك إلى اليوم إلا تثبيتاً لهذه الحقيقة.

الاستكشاف العربي

فحين ظهر الإســلام، وبدأ الفاتحون العرب يجولون في البلاد البعيدة، لم يكـن لديهم شك في استدارة الأرض. فاخترعـوا الأسطرلاب، للاسترشاد في سفرهم، ولا سيما في البحار. ورسموا صورة الكون مثلما تصوروه، على أحد جانبي الأسطرلاب.

وفــي عهد الخليفة العباسي المأمــون، نحو سنة 830م، أمر الخليفة بقياس المسافـة بين تدمر والرقة، وبناءً على هذا القياس، احتُسب محيط الأرض على أنه 24 ألف ميل، أي 38616 كيلومتراً.

قــال أبو علي أحمــد بن عمر، المعروف بابن رستــة، صاحب كتاب الأعلاق النفيسة، المتوفى سنة 897م: «أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائهــا من البر والبحر، على مثال الكــرة ... قائمة في الهواء يحيط بها الفلـك، من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها تدور على قطبين، قطب في الشمال وقطب في الجنوب، بين القطبين مائة وثمانون درجة، لأن الفلك ثلاثمائة وستون درجة، مستديرة تعود آخرها على أولها، وهي تدور في كل يوم وليلة على القطبين دورة واحدة».

وفــي القرن الميــلادي الحادي عشر تعلَّــم الأوروبيون مــن العرب أن الأرضــ كانــت مستديرة، لكن المــزاج الشعبي هنــاك كان مناهضاً لهــذه الفكرة. وحتــى أواخر القــرن الخامس عشــر الميلادي، كان الأوروبيــون يجادلون كريستوفر كولمبــس، الرحالة الجنوي المولد، البرتغالــي النشأة، أنــه إذا مضــى بسفينته إلى «طــرف» المحيط، فسيسقــط في الفراغ، لأنهم كانوا يظنون حتى ذلك الوقت، أن الأرض قرص مسطح تحيط به البحار من كل جانب، وتسقط مياهها في الفراغ، ويعود المطر ليملأها.

وجــاء في كتــاب الإدريسي الجغرافــي العربي البارز: نزهــة المشتاق، قبل كولمبــس بنحو أربعمائة سنة: «الأرض مــدورة كتدوير الكرة، والماء لاصق بهــا وراكد عليها ركوداً طبيعياً، لا يفارقها... والنسيم محيط بها من جميع جهاتهــا وهو جاذب». بل انه يضيف أن استــدارة الأرض «غير صادقة»، أي انها بيضوية. وبذلك كان ينفي احتمال «السقوط من طرف الأرض».

وقد أكد الجغرافي العربي المعروف الآخر، أبو عبيد البكري، أن الذهاب غربــاً يصل بالسفن إلى مشــارق الأرض، حين قــال: «وأوقيانوس البحر

بطاقة هوية

الاسم الأرض

العمر 4.6 مليارات سنة

العائلة النظام الشمسي

محل الإقامة درب التبانة

الأم الشمس

الإخوة والأخوات عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، بلوتو

الابن القمر

المسافة إلى الشمس
149.60 مليون كيلومتر (وحدة فضائية)

زمن الدوران حول الشمس
365.242 يوماً

سرعة الدوران حول الشمس
29.78 كيلومتر في الثانية

زمن الدوران حول نفسها
24 ساعة

تسارع الجاذبية
9,81 أمتار بالثانية

سرعة الانفلات من الجاذبية
3107 أمتار في الثانية

الوزن
5,973,600,000 تريليون طن

الحجم
1,083,210 مليون كيلومتر مكَعَّب

القطر عند خط الاستواء
12756 كيلومتراً

القطر عند القطبين
12712 كيلومتراً

قطر النواة
6970 كيلومترا

المساحة
510,066,000 كيلومتر مربع

مساحة اليابسة
148,647,000 كيلومتر مربع (29,1%)

مساحة المحيطات
335,258,000 كيلومتر مربع (70,1%)

معدل درجة الحرارة
15 درجة مئوية

عدد السكان
6,446 مليون نسمة





خريطة محمود بن حسين القشغري في كتابه: ديوان لغة الترك، سنة 1072م ... وخريطة العالم وضعها الإدريسي لملك صقلية روجر

المحيط لا يُدرَى ما وراءه غرباً، إلى أقصى عمران الصين شرقاً». وأضاف قوله: «والشمس إذا غابت في أقصى الصين، طلعت في الجزائر الخالدات، وبالضد». أي ان الليل في الصين يتفق وقته، مع النهار في غرب المغرب العربي. وإن دل هذا، فعلى أن العرب عرفوا تماماً قياس كرة الأرض، لأن خط الطول في الجزر الخالدات، يقابل خطاً في الصين.

كان البكري يقيم في مدينة ولبة الأندلسية، على مقربة من الدير الذي وسّط كولمبس نساكه مع الملكين فردنند وإيزابيلا، ليقتنعا بمشروعه. بل ان كولمبس أقام سنوات في إشبيلية وتعلم الكثير فيها، وهي المدينة الأندلسية التي كتب فيها البكري ما كتبه من قبل.

وثمة علماء يؤكدون أن الفينيقيين خاضوا المحيط الأطلسي، الذي سمي بحر الظلمات (في معنى الأطلس: الظلمة)، وأن العرب سبقوا الأوروبيين إلى العالم الجديد، ويستدلون لذلك بالتقدم الذي أحرزه الجغرافيون العرب في علم الفلك، وبالكثير من الكتابات الموحية بقوة بهذا الأمر. بل ان بعضهم يقول إن جزيرة جُوَنا هاني (Juana Hani) وهي إحدى جزر سان سلفادور، وقد «اكتشفها» كولمبس قبل كل الجزر الأخرى، ليست سوى جون هانئ، التي ذكرها الجغرافيون العرب. والجون بالعربية هو الخليج. ويتفق هذا مع رواية فينيقية، مفادها أن هاني الفينيقي، قطع المحيط الأطلسي، مع جماعة كبيرة، في عدد من السفن، حتى بلغ هذه الجزر سنة 475 قبل الميلاد. وقد نشرت مجلة «هربرز ويكلي» في 4 من شهر نيسان/أبريل 1869م، عن اكتشاف تمثال في مقاطعة أونونداجا بولاية نيويورك، عليه نقوش فينيقية، وحجر كتبت عليه رسالة من هاني الفينيقي.

كذلك يعتقد الإدريسي في نزهة المشتاق، أن أسعد أبو كرِب الحميري، هو ذو القرنين الذي ذكر في الأشعار العربية الجاهلية، والذي «بلغ مشارق الأرض ومغاربها». وعلى اسمه سمي بحر الأنتيل: البحر الكَرِبي (Caraibe). ويظن العلاّمة العربي نجيب البهبيتي، في كتابه: المعلقة العربية الأولى، أن شبه جزيرة يوكاتان، في المكسيك سميت على اسم يقطان، أحد أجداد بني قحطان، إلى آخر ما هنالك من إشارات وأدلة.

المهم في الأمر أن كولمبس، لم يكتشف أمريكا، بل كشفها للأوروبيين وحسب. لا لأن غيره سبقه إليها فقط، بل لأن ملايين البشر، وحضارات زاهرة جداً استوطنتها، حين كانت أوروبة غافلة عن هذا العالم، الذي سُمّي جديداً، وهو عالم يغالب عالمنا القديم قدماً. ولم يكن حساب كولمبس صحيحاً، فقد ظن أنه ذاهب إلى الصين، ولم يبلغها، بل اصطدم من غير قصد بشيء آخر.

وبعد إنجاز كولمبس رحلته الأولى سنة 1492م بسبع وعشرين سنة، أي في 20 أيلول/سبتمبر 1519م، انطلق فرننـد دي ماجيلان البرتغالي، بخمس سفن عليها 239 رجلاً، من إشبيلية نفسها التي أقام فيها كولمبس، ليدور حول العالم، ويثبت أن الأرض كروية، بعدما أيقن الأوروبيون أن ما بلغه كولمبس لم يكن الهند ولا الصين.

وقد عادت بعثة ماجيلان من دونه، إلى إشبيلية، في 8 أيلول/سبتمبر 1522م، بسفينة وحيدة، بعدما عبرت البعثة مضيق ماجيلان، جنوب الأرجنتين، من الأطلسي إلى المحيط الهادئ، في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1520م. وغرقت السفن واحدة بعد الأخرى، بل مات ماجيلان نفسه في قتال في إحدى جزر الفلبين، قبل أن تكمل السفينة الوحيدة الباقية فكتوريا، وعليها 18 رجلاً فقط، الرحلة إلى إشبيلية. وهكذا أيقن العالم، بكل من عليه، بلا نقاش، أن الأرض كروية.

ولم يرَ الإنسان كرة الأرض، حتى جاء عهد الصواريخ، وعصر الفضاء فرآها. وأول صورة في تاريخ البشر للأرض مكورة، صورتها مركبة فضاء أمريكية في يوم الثلاثاء 25 أغسطس/ آب 1966م.

شاهدوها من الفضاء

مشاهدة الأرض من الفضاء غير مشاهدتها من على سطحها. لا لأسباب تتعلق بالبصر، بل لأن البصيرة ترى من هناك فيها شيئاً، قد لا يخطر في البال، ونحن مشدودون إلى ترابها. كل رواد الفضاء الذين عادوا إلى كوكبنا، بعد رحلات شاهدوا فيها الأرض من بعيد، رجعوا وقد تبدلت رؤيتهم وتقديرهم لها. تهافتت من مشاعرهم الحدود السياسية، والفواصل بين الأمم. وصاروا كمن اتبع لتوه درساً موحداً، يقولون بعدما تلقنوه، إننا شعب واحد، وكل منا مسؤول عن حماية التوازن الدقيق والهش في الكرة الأرضية. نحن خدم هذه الأرض، وعلينا أن نعتني بها من أجل أجيالنا المقبلة.

فيما يلي مجموعة من أقوال هؤلاء الرواد، بعد عودتهم إلى الوطن ... الأرض.

«فجأة، من خلف حافة القمر، ظهرت، في لحظات بطيئة جليلة جلالا عظيما، جوهرة زرقاء وبيضاء مشعشعة، كرة خفيفة رقيقة بزرقة سماوية، متشحة بوشاح شفاف أبيض يدور، تخرج من خبائها شيئا فشيئا، مثل لؤلؤة صغيرة، إلى بحر غامض حالك السواد. وتمر أكثر من لحظات قبل أن تتيقن حقا من أن تلك هي الأرض... الوطن. لقد رأيت في مشهد الأرض، رفّة عين إلهية.»

إدغار متشل رائد فضاء أميركي

«أول ما شاهدت كان مشهداً عريضاً لمحيط أزرق برّاق عميق، مع مشحات خضر ورمادية وبيض، وجزر مرجانية وسحب. بالقرب من الشباك، كنت أرى أن هذا المشهد الهادئ المتحرك بسلام، ينتهي عند حافة الكرة الأرضية المستديرة، وقد أحاط بها طوق مضيء رقيق أزرق، وما عداه فسواد الفضاء الشاسع. كتمت نفَسَي حيال المشهد. لكن شيئاً ما كان ناقصاً. شعرت شعوراً غريباً بعدم اكتمال الاحتفال. كان أمامي منظر بديع، لكن الصمت كان يحيطه. لم تكن ثمة مصاحبة موسيقية فخمة، لا سوناتا ملهَمة تُعزَف احتفالا، ولا سنفونية تصدح. كان على كل منا أن يضع لنفسه موسيقى لهذه الكرة الجميلة.»

تشارلز ووكر رائد فضاء أمريكي

«تشرق الشمس حقاً «مثل الرعد»، وتغيب بالسرعة ذاتها. ويدوم كل شروق وغروب بضع ثوانٍ فقط. لكنك تستطيع في هذا الزمن الوجيز، أن ترى طيف ثمانية على الأقل من الألوان، تظهر وتختفي، من الأحمر اللامع، إلى أشد الزرقة إشراقا وعمقاً. وفي يومك الفضائي ترى ستة عشر شروقاً وستة عشر غروباً. لكنك لا ترى شروقاً أو غروباً مثل الآخر قط.

جوزف ألن رائد فضاء أميركي

«نظرت بعيداً إلى سواد الفضاء، وقد شعشعت فيه أضواء مجد الكون المتلألئ. رأيت الفخامة، لكنني لم ألمس ضيافة. تحت كان الكوكب المضياف. هنا، في داخل قوقعة الغلاف الجوي الرقيقة المتحركة، الهشة هشاشة لا تُصدّق، رأينا كل ما هو عزيز علينا، كل الدراما البشرية المضحكة والمبكية. هنا الحياة، هنا كل ما هو جيد.»

لورين أكتون رائدة فضاء أميركية

«قبل رحلتي إلى الفضاء، كنت عارفاً كم ان كوكبنا صغير وهش. لكن حين شاهدته من الفضاء، بكل جماله الأخاذ وهشاشته، شعرت أن أمسّ واجبات الجنس البشري وأشدها إلحاحاً هو عشق هذا الكوكب، وحفظه للأجيال الآتية.»

زيغموند يين رائد فضاء ألماني

«تروى قصة صينية عن بضعة رجال، أُرسلوا لإيذاء فتاة، فلما رأوا جمالها، تحولوا حُماةً لها بدل أن يؤذوها. بهذا أحسست لما رأيت الكرة الأرضية أول مرة. لم أتمالك إلا أن أعشقها وأحبها.»

تيلور وانغ رائد فضاء صيني

ميشال غرانجيه



مهما كانت قيمة ميشال غرانجيه الفنية، فإنه فنان جعل حب الكرة الأرضية قضيته الأولى. ففي طول سنوات عمله العديدة في التصوير والرسم والنحت، أبدع غرانجيه فوق مئة لوحة موضوعها الأرض. إنه عاشق الكرة الأرضية ورسامها. ولد في مدينة روان (Roanne) الفرنسية في سنة 1946م، وحاز شهادة الفنون الجميلة في ليون سنة 1968م. يرسم بالأكليريك على ورق سميك جداً، ويكشط بالسكين، ليعطي انطباع الهشاشة والإحساس بالمدينة، وإمكان فك الأشياء وإعادة تركيبها. رسومه ملتزمة، فيها رسالة بليغة بكلام قليل. الأرض ليست همه الأول، إنها هوسه الدائم.

قيل فيه:

- «إنه يرسم رؤاه الحرون. يحول الأرض إلى حقيبة، بيضة، بطيخة، يضعها على صحن، او في زجاجة... في لغة ريشته خفة، لكن فيها التزاما عميقا.»
جيريل كراوس (نيويورك تايمز)

- «لم يعثر غرانجيه على الكلمة الصحيحة وحدها، بل خصوصا على النبرة الصحيحة، والحساسية الصحيحة.»
بطرس بطرس غالي (أمين الأمم المتحدة العام السابق)

- «إنه يعمل بهوس متشعب، يتقدمه هوسه بالأرض. الأرض الممزقة، التي صارت غريبة عند جماهير ساكنيها. الأرض عنده مقلوبة، يدفعها بشر لا إيمان عندهم ولا قانون.»
فيليب برتران (إذاعة فرانس أنتر)

- «رسومه دعوة إلى اللعب، إلى الحلم، أي إلى الوقت الضائع. ميشال غرانجيه يبذر الفوضى.»
روبير دوانو (مصور)

- «ميشال غرانجيه، نحن بحاجة إليك في الزمن الذي تنتصر فيه الأمية النفعية، على حطام العالم الثالث، وبواسطة نهب البيئة.»
جان إيف كوستو (عضو الأكاديمية الفرنسية)

- «كوكبه على مقياس إنساني. تبدو الأرض في بعدها الجديد هشة، خاضعة. مصيرنا هنا ... عند رؤوس أصابعنا.»
هنري بابيه (محافظ متحف دالار)

خلايا طحالب Volvox Aureus الخضراء

الأم التي تحتضن 1.7 مليون نوع حي

على طبقة واحدة من طبقاتها العديدة ما بين النواة والفضاء الخارجي، تحتضن الأرض الحياة. فقد أحصى العلماء حتى اليوم 1.7 مليون نوع مصنف من الكائنات الحية مابين البكتيريا المؤلفة من خلية واحدة والإنسان، ناهيك عن ملايين الأنواع التي ظهرت وانقرضت خلال التاريخ الطويل للأرض. ويقدر علماءٌ آخرون عدد الأنواع الحية اليوم بنحو 10 أضعاف هذا الرقم، إذ يشهد العالم سنوياً اكتشاف وتسجيل نحو 10 آلاف صنف جديد من الكائنات المجهرية الحيوانية والنباتية، وبعضها أكبر بكثير من ذلك. وقد يصاب المرء بالدوار وهو يعدد هذه الأنواع، ويقارنها بالفراغ الكامل في معرفتنا ما إذا كان لها ما يشبهها في شيء على الكواكب الأخرى.

المدهش أن هذه الطبقة الرقيقة من الأرض المعروفة باسم «القشرة» وتتضمن سطحها اليابس والماء المحيط به والقليل من غلافها الجوي، وفرت في تضاريسها المختلفة تنوعاً عملاقاً من المعطيات البيئية يسمح لكل نوع من ملايين الأنواع هذه أن تحيا في وسطها أي أن تولد وتتكاثر وتموت.

وخلال العقود الأخيرة، وفي إطار البحث عن الظروف الجغرافية الملائمة للحياة، سجَّل العلماء بعض الاكتشافات المهمة. ففي صحراء أتاكاما في التشيلي حيث لا تهطل الأمطار إلا مرة كل 10 أو 20 سنة عثر العالم لوبيز غارثيا على بكتيريا حية. كما اكتُشف نوع آخر من البكتيريا يعيش في بيئة بركانية تصل حرارتها إلى 80 درجة مئوية. أما بطل البقاء الصعب فهو بكتيريا تعرف باسم Bacilius subtilis، التي تستطيع العيش في الفضاء من دون حماية ولا أوكسجين، فقد بقيت عالقة بقمر صناعي لمدة 6 سنوات، كما أنها تعيش حتى على عمق 6000 متر في أعماق المحيطات.

ولكن بالانتقال من عالم البكتيريا إلى عالم الكائنات الأكبر حجماً، من نباتات وحيوانات يصبح الهامش الجغرافي المتاح للحياة ضيقاً أكثر فأكثر. حتى أن معظم الأنواع يرتبط في بقائه ببيئات محددة بكل ما فيها من معدل الحرارة إلى الغطاء النباتي وصولاً إلى التضاريس ونشاط الغلاف الجوي.

وعلى الرغم من أن الإنسان هو المخلوق الحي شبه الوحيد الذي استطاع بفضل العقل أن يتكيف مع بيئات مختلفة، فسكن الصحارى الحارة والمناطق المتجمدة في القطبين والغابات الاستوائية وسواحل البحار وقمم الجبال.. فإن ذلك لم يحرره من الانتماء إلى جزء متناهي الصغر من هذه القشرة. إنه المكان الذي يولد فيه، ويتماهى معه، ويصبح بالنسبة إليه تلخيصاً كاملاً للكرة الأرضية ولكل الحياة عليها.

الحياة كروية.. كالأرض تماماً

شوقي بزيع

لعل العلاقة بالأرض هي واحدة من أكثر علاقات الإنسان رسوخاً وفرادةً ومن أشدِّها اتصالاً بالقلب والوجدان. ولأنها كذلك، فقد شكلت العمود الفقري للفن والكتابة والإبداع، وظهرت تجلياتها عبر آلاف القصائد والروايات والمنحوتات واللوحات الفنية. فالإنسان بحد ذاته هو مخلوق ترابي بامتياز لأنه مجبول من الطين نفسه الذي اتخذه فيما بعد وطناً ومسكناً وحصناً. كما أنه عائد في نهاية المطاف إلى الرحم الأرضي الذي انفصل عنه والذي تطارده أضغاثه وتهيؤاته حتى نهاية العمر. وليس أجمل في هذا السياق من قول الشاعرة الفلسطينية الراحلة فدوى طوقان: «هذه الأرض امرأة / في الأخاديد وفي الأرحام سرّ الخصب واحد».

وإذا كانت العلاقة بالأرض هي القاسم المشترك بين الناس جميعاً فإنها تبدو بالنسبة لنا نحن المنحدرين من القرى والأرياف أكثر صلابةً وعمقاً مما هي عليه عند المولودين في المدن.

«إن الأبواب المفتوحة على الريف تمنحنا الشعور بالحرية من وراء ظهر العالم» يقول الكاتب والناقد رامون لاسيرنا. فخلف تلك الأبواب تزدهر طفولات البشر وتتجول مخيلاتهم وسط مروحة هائلة من الأصوات والروائح والمرئيات. وليس غريباً والحالة هذه أن تتحول الأرض حين نغادرها إلى صخرة صلبة نشحذ فوقها نصال اللغة ونسند إليها ظهورنا المهيضة حين يتعبنا الترحال. وليس من المستغرب أيضاً أن تتحول الأرض، في بعدها الريفي على وجه الخصوص إلى معين دائم لشاعريَّات العالم المتوقدة. ذلك أنه لا يكون شعراً غنياً بلا طفولة غنية، ولا طفولة غنية خارج ذلك الفضاء المفتوح على مصراعيه، حيث يتاح للزرع أن ينبت وللضوء أن يتألق وللرياح أن تهب وللنجوم أن تتلألأ وللشهوات أن تتعظ وللخيال البشري أن يتجول حيث يشاء.

لايمكن لفكرة الوطن أن تتبلور تبعاً لذلك خارج «الأرض» التي تشكِّل العمود الفقري للهوية والظهير الأهم الذي تشتد إليه الجماعة في بحثها عن التشكل. فالأرض هي الجغرافيا التي نرسِّم بواسطتها الحدود بين الحضور والغياب. والأرض هي التاريخ الذي يتيح لنا أن نقيم علاقة ممكنة وواضحة بين الحاضر والماضي وبين الحاضر والمستقبل وبين الذاكرة والنسيان وبين الأسلاف والأحفاد، ومن دون هذا الناظم الترابي لن يكون للهوية أي معنى ولن يتاح للدم المراق أن ينتظم في سياقٍ رؤيوي وأخلاقي.

من الصعب أن أسترسل في الحديث عن الأرض دون الإشارة إلى علاقتي الشخصية بقريتي حيث ولدت قبل خمسة عقود ونصف. فمن بين هذه العقود كلها تظل السنوات العشر الأولى التي عشتها في القرية هي الخزان الهائل لكل ما عثرت عليه فيما بعد من ذهب الكتابة وبريقها اللانهائي.

فكلما هممت بالكتابة ينفتح أمامي سرادق من الصور والأطياف متصل بتلك العوالم الغامضة التي عبَّدت لي الطريق إلى الشعر وحقنتني بأمصال اللغة وعذاباتها المترعة بالحنين.

ليس الشعر في جوهره سوى تلفُّت بالعين والقلب إلى براءة الروح وبراءة اللغة. ومن دون العودة إلى الأرض الأم لا يمكن أن ينمو على صفحة الكتابة سوى البرد القارس والأعشاب السامة والجفاف الذهني. صحيح أن السفر والمنفى ضروريان أحياناً لاكتساب المعرفة والتجربة وللبحث عن أفق جديد للمخيلة، ولكن الصحيح أيضاً أن السفر لا قيمة له إذا لم يكن وسيلة لإعادة اكتشاف العلاقة الصعبة والجارحة بيننا وبين الأرض التي انبثقنا عنها بالولادة والتي تعود نعوشنا إليها لحظة الموت. إن قانون الجاذبية الأرضية لا يرتبط بالفيزياء وحدها بقدر ارتباطه بالقلب الإنساني. كما أن الدليل على كروية الأرض لا يتعلق بالجغرافية وحدها، والتي تؤكد أننا لا بد أن نعود دائماً إلى النقطة التي انطلقنا منها، بل يتعلق أيضاً بالحياة التي تعيدنا في حقبة الشيخوخة إلى زمن الطفولة وأعراضها. وهكذا، فالأرض ليست وحدها كروية. بل الحياة أيضاً.

مشروع هجرة إلى كوكب آخر

في بداية عصر الفضاء قبل نصف قرن، كانت أنظار البشر ترى في الصواريخ والأقمار الاصطناعية نافذة على الكون، تخطيطاً للهجرة إلى كواكب أخرى. الغريب الآن أن معظم الأقمار الاصطناعية عادت وأدارت بصرها نحو الأرض. فما الشيء الخاص في الكرة الأرضية حتى نتمسّك بها؟

أفلا يمكننا، بما نملك من صواريخ وتكنولوجيا وعلوم تتقدم كل يوم مثلما تقدمت في قرون طويلة، أن نهجر الارض إلى كوكب آخر نكتشفه، بمناظيرنا الفضائية الجبارة؟

ألا توجد بين مليارات النجوم التي نشاهدها في الفضاء، نجمة ما تدور من حولها كواكب تناسب عيشنا نحن البشر؟

ألم يحن الوقت لنبحث بجد، عن بيت آخر ننقل إليه متاعنا وأبناءنا، بعدما بلغ الاكتظاظ السكاني حدود الامتلاء، بل تخطاها؟

ألم يبلغ تنافس الدول والقوى مرحلة تجعل المرء الحكيم يحلم فعلاً، بعالم آخر، يبدأ فيه من جديد، بعيداً عن التنافس وشح الموارد؟

أفلا ينذر التدهور البيئي بمستقبل، لا بد معه من التفكير الجاد بالرحيل، ما دام أصحاب الشأن لا يأبهون لمخاطر الاحترار والتلوث؟

لقد آن أوان الحلم، القابع على منتصف الطريق بين الخيال العلمي والحاجة الواقعية. فهيا بنا نحلم بهذا العالم الجديد الذي نشدّ إليه الرحال قريباً: الكوكب المختار الذي سنهجر الكرة الأرضية لنستقر فيه.



معرض الكواكب في مرصد غريفيث

شروط المهجر المناسب

ما هي ملامح الكوكب الجديد الذي ينبغي أن نبحث عنه؟

المعلوم أن البشر يعيشون على الكرة الأرضية ضمن ظروف تحدّها حدود الضغط الجوي والحرارة. ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة طويلاً إذا أحاطت به حرارة قائظة، أو برد شديد. وإذا كان في الإمكان أن يكيّف الحرارة في حدود معقولة، فيدفئ بيته في الشتاء، ويبرّده في الصيف، إلا أن العيش على كوكب مثل الزهرة، الذي تفوق الحرارة على سطحه 450 درجة مئوية، أمر غير ممكن، إلا ربما لحظات قصيرة للغاية، في إطار حماية مُحكمة. كذلك لا يمكن لمجتمعات كبيرة أن تستوطن كوكباً تسود في جوه حرارة دون الصفر بكثير، على سلم الدرجات المئوية. ويصطلح العلماء حين يتحدثون في المختبرات عن الحرارة العادية، على أنها 20 درجة مئوية.

إذن فالبحث جار عن كوكب حرارته بين الصفر وأربعين درجة، في معظم مناطقه، مدداً طويلة من «السنة». والسنة على ذلك الكوكب المنشود، هي المدة التي يقضيها في الدوران حول شمسه.

أما الضغط فمسألة أصعب. فالمعروف أن ضغط الجو المسمى عادياً، في عرف العلماء، هو الذي يساوي 760 ملمتراً من الزئبق، في ميزان الضغط. ولا يستطيع الإنسان أن يعيش على نحو عادي، إذا ركب طائرة غير مضغوطة، وصعد بها في الجو فوق 2500 متر. فعلى هذا الارتفاع يقل مقدار الأكسيجين في كل لتر من الهواء 25%. وحين يبلغ ارتفاع الطائرة 3000 متر، يحتاج المرء حتماً إلى كمامة أوكسجين، وإلا أصابته أعراض، قد تودي بحياته. ولهذا تكون الطائرات محكمة الغلق، ويكون الجو فيها خلال السفر على ارتفاع شاهق (فوق 10 آلاف متر في المعتاد من رحلات الطيران التجارية) مضغوطاً، كأنك على ارتفاع 2000 متر فقط. ولهذا أيضاً، يضع الطيارون الحربيون كمامات أوكسجين، لأن طائراتهم غير مضغوطة.

لا بد إذن من كوكب يكون فيه جو يحيط به أولاً، وأن يكون الضغط الجوي قريباً جداً من 760 ملمتراً من الزئبق. أضف إلى ذلك أنك ستحتاج إلى أوكسجين وماء في الموطن الجديد. ولا نعتقد أن في الإمكان حمل الماء والأوكسجين والطعام أيضاً من الكرة الأرضية، والمأمول أن يكون الكوكب الجديد قابلاً للزرع، وأن تكون تربته منبتاً مناسباً لما نستطيع أكله من خضار وفاكهة وأعشاب وأشجار.

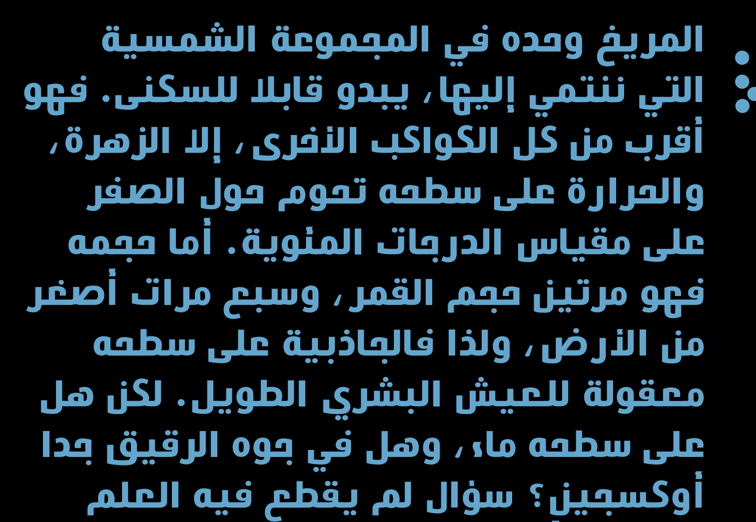
كذلك لا بد من أن يكون توالي النهار والليل، قريباً من أربع وعشرين ساعة، وإلا اضطربت ساعة الإنسان البيولوجية، التي تنتظم وفقها الوظائف الحيوية في جسم الإنسان، بدءاً بالصحو والنوم، وصولاً إلى ما لا نتوقع من وظائف عمل الكبد والقلب وغيرهما.

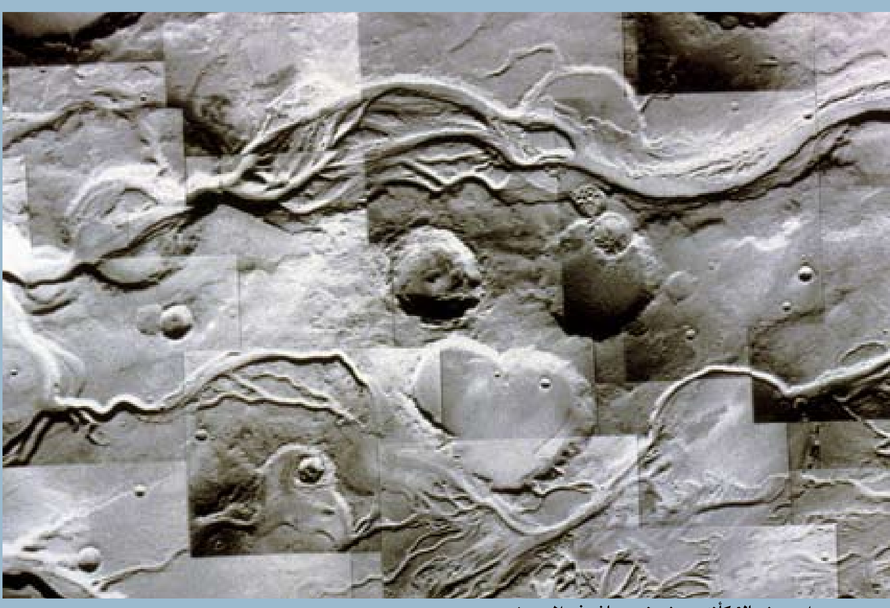
قوة الجاذبية

يضاف إلى هذه الشروط، الأولية التي قد تخطر ببال أي تلميذ في الصفوف الابتدائية، شرط قد لا يخطر ببال. فلكل كوكب حجم وكتلة


شروط العيش على كوكب المهجر
الحرارة
بين صفر و40 درجة مئوية
الضغط
760 ملمتراً من الزئبق
الحجم والجاذبية
قريبة من الأرض
ميزات ضرورية
ماء، أوكسجين







وادي منجالا كأنه حوض نهر جاف في المريخ

مختلفة. فالزهرة أصغر قليلاً من الأرض، والمريخ أصغر من الزهرة. ولذا فالجاذبية على سطحهما أقل منها على الأرض. أما القمر فالجاذبية على سطحه، أقل ست مرات منها على الأرض. والرجل الذي يزن على الأرض 80 كيلوغراماً، لا يزن على القمر سوى 13 كيلوغراماً. وحين تصعد إلى القمر، فباستطاعتك أن ترتدي ثوباً فضائياً ثقيلاً يزن 400 كيلوغرام، ولا يتأثر مشيك. أما إذا ذهبت إلى كوكب زحل، الذي يزيد حجماً 750 مرة على الأرض، فإن جسمك سينسحق على سطحه من قوة الجاذبية، إذا لم يسحقك ضغط جوه الكثيف.

المريخ وحده في المجموعة الشمسية التي ننتمي إليها، يبدو قابلاً للسكنى. فهو أقرب من كل الكواكب الأخرى، إلا الزهرة، والحرارة على سطحه تحوم حول الصفر على مقياس الدرجات المئوية. أما حجمه فهو مرتين حجم القمر، وسبع مرات أصغر من الأرض، ولذا فالجاذبية على سطحه معقولة للعيش البشري الطويل. لكن هل على سطحه ماء، وهل في جوه الرقيق جداً أوكسجين؟ سؤال لم يقطع فيه العلم بعد تماماً. ويبلغ الضغط الجوي فوقه مثل ما يبلغ على الكرة الأرضية، عند ارتفاع 18 كيلومتراً، ولا بد إذن من لبس بزة فضائية على الدوام عليه، لتعويض نقص الضغط والأوكسجين، ناهيك بالحرارة التي تميل إلى الانخفاض، معظم أيام السنة المريخية، وفي معظم مناطق الكوكب.

نظم شمسية أخرى

دعنا إذن من النظام الشمسي، الذي يقال إنه قريتنا الفضائية، ولننظر في عوالم أخرى، فلا شك في أن الخيار فيها أوسع بكثير، لأن شمسنا واحدة، أما الشموس التي نسميها نجوماً، فلا تعد ولا تحصى.

يقول ستيفان أودري، عالم الفضاء، من مرصد جنيف في سويسرا، إنه اكتشف أصغر كوكب، وأخف كوكب حتى الآن خارج النظام الشمسي. وهذا أمر مهم. فالكوكب المنشود يجب ألا يكون عملاقاً ينسحق على سطحه البشر، الذين سيعيشون عليه. والكوكب الصغير صعب الاكتشاف، بسبب صغره. ويدور هذا الكوكب المناسب على ما يبدو، حول نجمة قزمة حمراء اسمها غلييزي. حجم الكوكب خمس مرات حجم كرتنا الأرضية. ويدور على مسافة مناسبة من شمسه، لتظهر السوائل على سطحه، ويهمنا منها الماء بالطبع، إذا كان عليه ماء. أما الحرارة فيه فتراوح بين الصفر و40 درجة مئوية. إذن فهو المكان المناسب، لشد الرحال. لكن ما المسافة بيننا وبينه؟

20.5 سنة ضوئية!

لا يعني هذا الرقم شيئاً واضحاً، فكيف نفهم أن تكون مسافة رحلتنا 20.5 سنة ضوئية؟

يقطع الضوء 300000 كيلومتر في الثانية، وحساب المسافة إذن هو التالي:



يقول ستيفان أودري، عالم الفضاء، من مرصد جنيف في سويسرة، إنه اكتشف أصغر كوكب، وأخف كوكب حتى الآن خارج النظام الشمسي. وهذا أمر مهم. فالكوكب المنشود يجب ألا يكون عملاقا ينسحق على سطحه البشر، الذين سيعيشون عليه. والكوكب الصغير صعب الاكتشاف، بسبب صغره. ويدور هذا الكوكب المناسب على ما يبدو، حول نجمة قزمة حمراء اسمها غلييزي. حجم الكوكب خمس مرات حجم كرتنا الأرضية. ويدور على مسافة مناسبة من شمسه، لتظهر السوائل على سطحه، ويهمنا منها الماء بالطبع، إذا كان عليه ماء.

الدقيقة الضوئية: 300000×60=18 مليون كيلومتر
الساعة الضوئية: 18×60=1080 مليون كيلومتر
اليوم الضوئي: 1080×24=25920 مليون كيلومتر
السنة الضوئية: 25920×365=9460800 مليون كيلومتر
20.5 سنة ضوئية: 9460800×20.5=193946400 مليون كيلومتر

ما أسرع الصواريخ التي بحوزة البشر الآن؟
لقد أطلقت وكالة الطيران والفضاء الأمريكية السنة الماضية صاروخ الآفاق الجديدة صوب كوكب بلوتو أبعد الكواكب السيارة المعروفة حتى الآن عن الشمس. وهو أسرع صاروخ أطلقه البشر على ما يبدو، وسرعته 36000 كيلومتر في الساعة.

كم يلزمنا من الوقت إذا ركبنا هذا الصاروخ، لنصل إلى الكوكب المقصود؟
فلنقسم المسافة على السرعة:
193946400 مليون:36000=5387400000 ساعة
والمعلوم أن في السنة 24×365=8760 ساعة.
ولذا فإن الرحلة إلى موطننا الجديد، بأسرع صاروخ نملكه اليوم، ستستغرق:
5387400000:8760=615000 سنة!!!
أكثر من نصف مليون سنة؟ بأسرع الصواريخ؟ هذه مفاجأة غير متوقعة، وغير سارّة!

ويبدو مشروع الهجرة هذا إذن بعيد المنال.
فلننظر في مشاريع أقرب.
ما أقرب نجمة إلينا؟ لعل من حولها كواكب تناسب نزوعنا إلى الهجرة صوب مواطن جديدة.

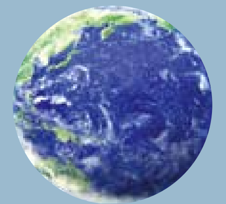
على مقربة من النظام الشمسي، نجد نظاماً من ثلاث نجوم، تشد بعضها إلى البعض جاذبية تبقيها في مجموعة واحدة. تسمّى هذه المجموعة الثلاثية ألفا سنتوري. وأما النجمتان الكبريان فيها، فهما أشبه بشمسنا، وهذه بشرى جيدة. واسماهما ألفا سنتورى أ، وألفا سنتوري ب. وأما الأقرب إلينا فهي الصغرى، وقد سُميت بروكسيما سنتوري. وتصنّف قزمة حمراء، أي انها نجمة في أواخر العمر.

لننظر إذن في أمر الاثنتين الأخريين.
كم تبعد هاتان النجمتان عن كوكب الأرض؟ يقول علماء الفضاء، إن المسافة التي تفصلنا عن ثلاثي المجموعة المذكورة، وهي أقرب النجوم إلينا في الفضاء الشاسع، هي 4.36 سنوات ضوئية. وبحساب سريع، نكتشف أن الصاروخ الذي نتباهى به اليوم، صاروخ الآفاق الجديدة هذا، حتى لو تسنّى له في رحلته الأسطورية الخيالية هذه وقود لا ينضب، يحتاج إلى ... 130800 سنة حتى يصل إلى موطننا الجديد.

يبدو هذا الموطن هو أيضا مجرد حلم، سنفيق منه على الحكمة الموروثة: حافظ على قديمك فجديدك لن يدوم، بل ربما لن يكون.





الخطر الآتي من الفضاء

الكارثة الأرضية الكبرى

...وفيما ينظر علماء الفضاء إلى أطراف الكون، يستمتع منهم البعض، وينظر آخرون بهلع، حين يرون الكويكبات، وقد عجَّت بها مدارات النظام الشمسي، وهم يتذكرون حادثة ذلك الكويكب الذي ضرب أرضنا قبل 65 مليون سنة، فأباد معظم الأجناس الحية التي كانت عليها.

الخطر الآتي من الفضاء جدي إذن، وقد أشارت إليه أخيرا مجلة «إكونومست» البريطانية، في عددها الصادر في 23 يوليو/تموز 2007م. ففي النظام الشمسي عشرات ملايين الكويكبات، منها ألوف تتحرك في مدارات تقرّبها من الأرض. وسيسقط واحد منها عاجلاً أو آجلاً، على كوكبنا.

ففي الماضي، سقطت كويكبات فعلاً على الأرض. لكن صفحة الأرض الناشطة والمناخ تسهم في تغطية آثار سقوط هذه الكويكبات، بسرعة نسبية. إلا أن صفحة القمر المبثرة، حيث تدوم الآثار مدة أطول بكثير، تنبئ بكثرة عدد الأجرام الفضائية التي تحوم في مدارات النظام الشمسي.

وتمتلك الأرض نظام حماية نسبية من الكويكبات التي يقل قطرها عن 35 متراً، لأن هذه الكويكبات تحترق في الغلاف الجوي، قبل أن تصل إلى سطح الأرض. ومع هذا فإن لدينا فوهات عديدة، أحدثتها كويكبات أكبر، استطاعت أن تصطدم بكوكبنا. ويحصي مركز معلومات الأرض في كندا أكثر من 170 فوهة، مصدرها سقوط كويكب في زمن ما على الكرة الأرضية. هذا ما بقي بادياً في أي حال، بعد فعل عوامل المناخ والطبيعة التي أزالت الكثير من الفوهات ولا شك.

ولحسن الحظ أن هذه الفوهات تعد أمراً نادراً، على الأقل في التاريخ البشري المعروف. ويتساوى احتمال خطر الموت أو لحوق الضرر من سقوط الكويكبات، على الصعيد الإحصائي، باحتمال الموت أو التضرر في الزلازل. ولكن على الرغم من أن الاحتمال ضئيل، إلا أن نتائج حدوث سقوط كويكب، قد تكون مرعبة. وهي تتناسب مع حجم الكويكب الذي قد يسقط، وسرعته. فالكويكب البالغ قطره أمتاراً، قد يسوِّي مدينة بالأرض. أما إذا كان أكبر، كأن يبلغ قطره كيلومتراً واحداً، فيمكنه عندئذ أن يحدث دماراً بيئياً في كل أنحاء الأرض.

قال ديفيد موريسون، وهو عالم في وكالة الطيران والفضاء الأمريكية (NASA) أمام مؤتمر، إن ضربة كويكب كبير، هي الحدث الوحيد (باستثناء الحرب النووية ربما) الذي يستطيع أن يهدد بقاء مجتمع الحضارة.

وتعطينا الأمثال السالفة من الحوادث التي مرت بها الأرض، صورة أوضح مما تعطيه الأرقام. ففوهة تشيكولوب، المدفونة تحت مكسيكو الحديثة، عمرها 65 مليون سنة، ويبلغ عرضها 180 كيلومتراً. ويعتقد العلماء أن الشهاب الذي أحدثها، وكان قطره 10 كيلومترات، أثار غباراً في الفضاء

ولكن على الرغم من أن الاحتمال ضئيل، إلا أن نتائج حدوث سقوط كويكب، قد تكون مرعبة. وهي تتناسب مع حجم الكويكب الذي قد يسقط، وسرعته. فالكويكب البالغ قطره أمتارا، قد يسوّي مدينة بالأرض. أما إذا كان أكبر، كأن يبلغ قطره كيلومترا واحدا، فيمكنه عندئذ أن يحدث دمارا بيئيا في كل أنحاء الأرض.

حجب الشمس مدة طويلة، وسبّب بذلك انقراض كل أنواع الدينوصورات. وفي سنة 1908م، انفجرت صخرة آتية من الفضاء، صغيرة نسبياً، يراوح قطرها بين 30 و50 متراً، فوق منطقة تنغوسكا، في محلة نائية من سيبيرية. واكتسح الانفجار، وهو أقوى مئات المرات من انفجار قنبلة هيروشيما الأمريكية الذرية التي ألقيت بعد سبع وثلاثين سنة على اليابان، أشجاراً تبلغ ارتفاعاً 80 متراً، في مساحة 2150 كيلومتراً مربعاً. الحظ وحده أوقع الحادثة في منطقة نائية نسبياً، غير مأهولة في العالم. ويحاول علماء الفضاء الآن أن يدرسوا إذا كان الكويكب المسمى 99942 أبوفيس، سيضرب الأرض، سنة 2036م ربما (المتوقع ألا يضربها، لكن الأفضل أن نتيقن من هذا الأمر).

ومن حسن حظ البشرية أن التكنولوجيا تقدمت إلى الحد الذي يتيح مبدئياً، تجنب اصطدام هذا الكويكب بالأرض. في سنة 1998م وافقت وكالة الطيران والفضاء الأمريكية، على محاولة رصد 90% من الكويكبات التي يفوق قطرها كيلومتراً، حتى السنة المقبلة 2008م، وتصنيفها. إذ انها قد تكون مصدر خطر على الكرة الأرضية. والفكرة التي تراود العلماء، هي أن أي كويكب يصنَّف خطراً على الأرض، يُدفع إلى مدار آمَن. والوسيلة التي تخطر أولاً في البال لفعل هذا، هو الأسلحة النووية. والجميل في هذه الوسيلة، هي أنك تستخدم بالتوازي، أداة كارثة، في تجنب أداة كارثة أخرى. لكن العلماء يوصون بالتريث. فتفجير الكويكب بقنبلة نووية، قد يحطمه فيجعله كويكبات أصغر، بعضها يظل على مسار تصادم مع الأرض.

ولذا اقترح البعض أسلوباً آخر. فقد ترسَل سفينة فضاء سريعة للغاية، تدفع الكويكب في مسار آخر، فلا يلتقي والأرض. وثمة طريقة ثالثة، هي إنزال سفينة فضاء على الكويكب، واستخدام محركاتها في دفعه صوب مدار آمن. ويقترح البعض أسلوباً أذكى، هو إرسال سفينة فضاء إلى جوار الكويكب واستخدام جاذبيتها الضعيفة في تحويل مساره، بعيداً عن الأرض. حتى الآن لا تزال هذه الأفكار كلها نظرية، على الرغم من أن الاتحاد الأوروبي يخطط لإرسال بعثة فضائية سنة 2011م لهذا الغرض، اسمها دون كيخوتي، لاختبار أسلوب دفع الكويكب.

وتوحي كل هذه المشاريع الاطمئنان، لكن أي مسعى لدفع كويكب بعيداً عن الأرض، يقتضي الكثير من الإنذار المبكر، وقد لا يكون هذا ممكناً على الدوام. لقد صنفت وكالة «ناسا» إلى الآن أكبر الكويكبات، «قاتلة الحضارة». ولا يزال كثير من الكويكبات الصغرى غير مكتشفة حتى الآن. وقد ينجم منها ضرر بليغ. في سنة 2002م، مر كويكب متوسط الحجم (من 50 إلى 120 متراً) بجوار الأرض، على مسافة 121 ألف كيلومتر، أي ثلث المسافة بين الأرض والقمر. ولم يكتشفه الفلكيون، إلا بعد مروره بثلاثة أيام. والشهب التي تأتينا من خارج النظام الشمسي، أسرع من الكويكبات، ولكنها تأتينا باحتمال كوارث مماثلة.

لكن المشكلة الكبرى قد تكون عدم اكتراث البشرية. فالدولة الوحيدة التي تنفق في كشف الكويكبات الآن هي الولايات المتحدة الأمريكية. وحتى هناك، يرى الساسة أولويات أخرى. والكثير من العمل الآن يتولاه منظار «أريسيبو» الراداري، الذي تملكه جامعة كورنل، في بورتوريكو. إلا أن هذا المنظار يواجه مشروع خفض ضريبي، مع ان تشغيله يكلف تقريباً، مليون دولار فقط في السنة. وهو ثمن يبدو زهيداً جداً، إذا كان ذلك ما يترتب على البشرية أن تدفعه، من أجل بوليصة تأمين!


شهاب هوبا في ناميبيا


فوهة شهاب سقط في أريزونا قبل 50 ألف سنة

الأرض في القرآن.. وعلاقتها بالإنسان

علاقة الإنسان بهذا الكوكب علاقة وجودية، ويبادلها العشق ما شاءت له العناية الإلهية أن يعيش، ثم يعود إلى رحم الأرض التي جاء منها، وليبعث منها بإرادة الله من جديد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه/55).

من هنا كان حديث القرآن الكريم عن الأرض متشعباً وذا مرامٍ وأبعاد مختلفة، لكنه يمكن أن يقسَّم إلى منحيين كبيرين: مادي ومعنوي، تنضوي تحتهما فروع عدة، أو بتعبير آخر: منحى يتعلق بالشكل الظاهري والتضاريس وعلاقة الأرض بالكواكب والكون من حولها، ومنحى ذو صلة بعلاقتها بالإنسان وبالخالق. وإذا كنا لا نستطيع سبر أغوار المقاصد القرآنية في الآيات التي تحدثت عن الأرض في مثل هذا المجال، فإننا سنحاول رصد بعض اللمحات التي تشير إلى بعض أهم تلك المقاصد.

ورد ذكر مفردة الأرض ومشتقاتها في القرآن الكريم 461 مرة، وجاءت الكلمة للدلالة على الأرض جميعها في بعض المواضع، وللدلالة على جزء منها في مواضع أخرى. وقد وصف القرآن الأرض بصفات متعددة وهذا يتبين من قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ (الذاريات/20)، وتحدث عن وصف الأرض وخصائصها، وشكلها ومكونات أرضها، وثرواتها، وحركتها وتركيبتها الجيولوجية.

خلق الأرض وشكلها وتكوينها

لقد اقترنت آيات خلق الأرض مع خلق السماوات في مواطن كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (الأعراف/54). وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الحجر/85).

كما تحدث عن بسط الأرض وتثبيتها بالجبال وعن الثنائية فيها كيما تستقيم الحياة: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (ق/7). و﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ (النبأ/6-8).

كما تحدث عن تكويرها: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر/5)، بل بيضويتها: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات/30-32)، والأدحية عند العرب هي بيضة النعام.

وعن مكونات الأرض يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر/27). ووصف قشرة الأرض بأنها على هيئة قطع متجاورة: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ﴾ (الرعد/4)، وأن هذه القطع مثبتة بواسطة الجبال: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ (النبأ/7).

وعن إحياء الأرض، أشارت الآيات إلى قدرة الخالق على إحياء الأرض بعد موتها، وإنبات النبات فيها، ومعظم تلك الآيات تشير إلى دور الماء في ذلك: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم/24)، وقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (يس/33).

الأرض والإنسان

أما في نسق المقاصد المعنوية، فتبدأ علاقة الإنسان بالأرض باستخلافه فيها وتمكينه منها وإعماره لها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة/30)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف/10).

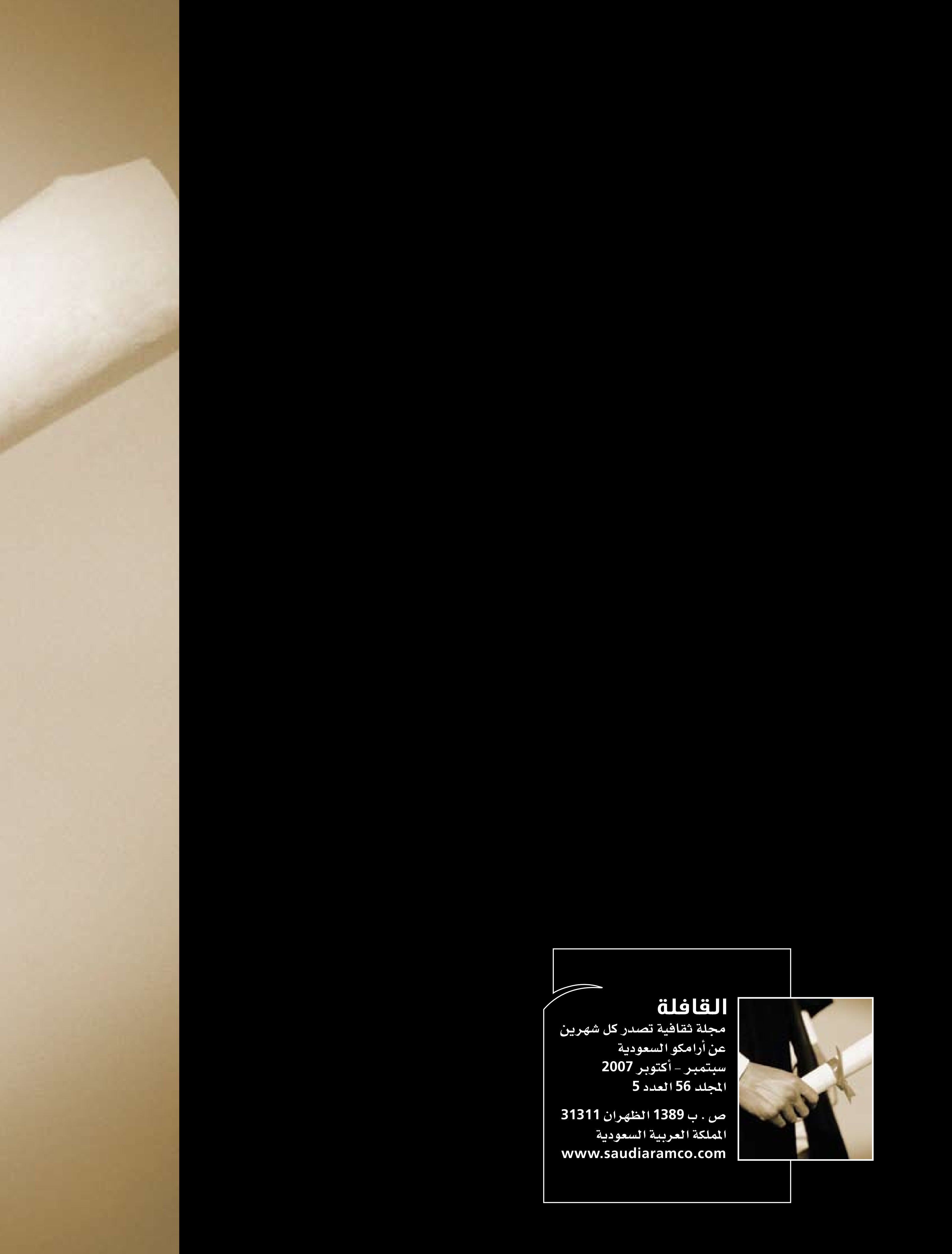
وعن تذليلها وجعلها مكاناً صالحاً لعيش الإنسان: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة/22)، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة/36).

أما عن تسخيرها والكون بأجمعه للإنسان، فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان/20).

ودعت الآيات الإنسان للتأمل ودراسة الأرض، في قوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس/101).

وقد نهى الله عن الإفساد فيها: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة/27).

وهكذا نجد أن القرآن الكريم قد فصل العلاقة بين الأرض والإنسان ودعاه للتأمل فيها وإحيائها وعدم الإفساد فيها بعد إصلاحها، فهي الأم التي مهما أساء إليها لا تزداد فيه إلا حباً، ومهما تولى عنها، فسيعود إليها وليس له إلا حضنها الدافئ يلقي بهمه إليه، وهل هو إلا منها وإليها؟


القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
سبتمبر - أكتوبر 2007
المجلد 56 العدد 5
ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com